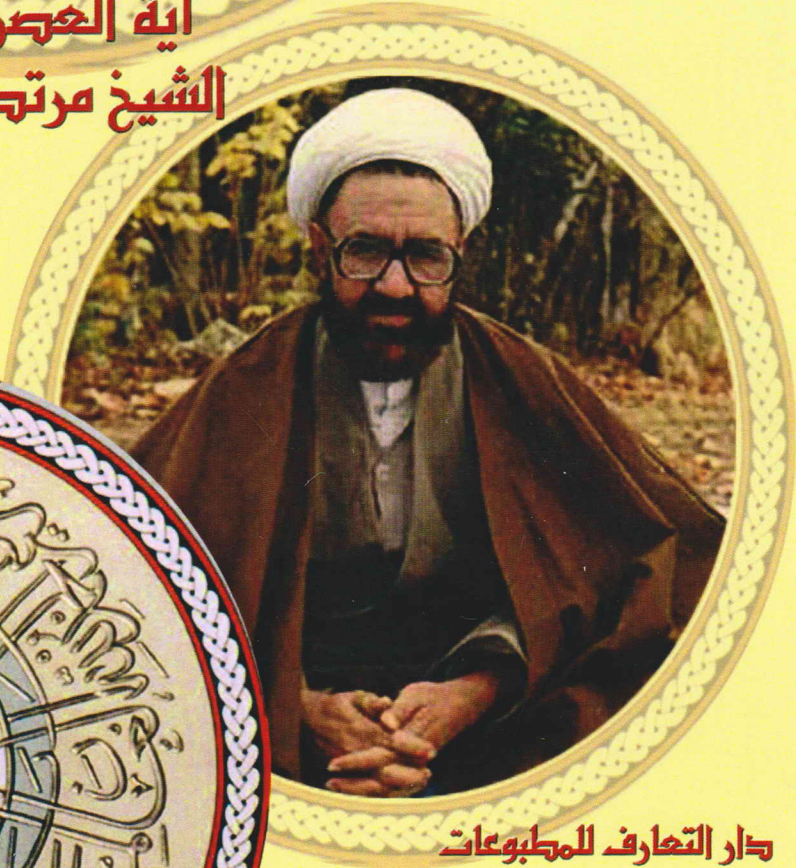


معرفة القرآن

آية العصر الشهيد
الشيخ مرتضى مطهري



دار التعارف للمطبوعات

مُرْتَضَى مُطَهَّرِي

مَعْرِفَةُ الْقُرْآنِ

جَعْفَرُ صَادِقُ الْخَلِيلِي

وزارة المعارف للطباعة
بمبئی - بنگال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أوصي الطلبة الجامعيين الأعزاء ، والطبقة المثقفة
المتنورة الملتزمة ألا يدعوا الدسائس غير الاسلامية
تنسيهم مطالعة كتب هذا الاستاذ العزيز » .
« الإمام الخميني »

كلمة المترجم

كثيراً ما كنت أجد عناء ، وأنا بعد شاب يافع ، في مطالعة كتب التفسير ، وتاريخ الإسلام والسير وفهمها ، بسبب صعوبة اللغة ، فكنت أجدني مضطراً إلى أن أتركها جانباً على مضض ، بالرغم من شغفي وولعي بالاستزادة من تلك المواضيع . وكان معي جمع من اصحابي لا يقلون عني ضيقاً بضعف إدراكنا للغة تلك الكتب التي كانوا يصفونها بالكتب الصفر .

بل لقد خاب ظننا حتى في خطبائنا الذين كان معظمهم يردد ما كان في بطون تلك الكتب الصفر نفسها ، دون أن يحاول التجديد فيها ، وتقريبها الى الأذهان ، وتبسيط لغتها ، لتشويق الناس إلى سماعها . كان الناس قد حفظوا عن الخطباء كل ما في « مقتل ابي مخنف » ، ويرددون معهم قصائد رثاء الحسين (عليه السلام) بالقريض وبالعامية ، ويروون كل رواياتهم وقصصهم ، ويتباكون ، لا تغيير ولا تبدل .

ثم سمعنا يوماً ان أحد مشاهير الخطباء الايرانيين قد قدم الى النجف الأشرف وانه سوف يخطب في جامع الهندي بضع ليال . كان ذلك قبل ثلاثين ونيف من السنين ، وكان اسم الخطيب ، اذا لم تخي الذاكرة ، الشيخ الطبسي (رحمه الله حياً وميتاً) . وحضرت مجلسه مع آلاف غيري حتى اكتظ بهم المسجد على سعته .

وما انتهى من خطبته في الليلة الأولى ، حتى شعرت أن هذا ما كان ينقصنا ، وما نفتقر اليه نحن الشباب الذين كنا نريد أن نبدأ الفهم من البداية وبشيء من التجديد . لقد فرر لنا الشيخ الطبسي بعض الآيات الكريمة من القرآن المجيد ، وكان تفسيراً مزيجاً من التاريخ ، والفلسفة ، والمنطق ، والحديث ، والروايات المنقولة عن الأئمة (عليهم السلام) ، وحتى النكتة والنادرة (حدث في ليلة حارة ان فك الشيخ الطبسي حزامه ، وراح يمسح به العرق عن رأسه ووجهه ، ثم اعتذر عن ذلك بقوله إن حزامه أشبه بعضاً موسى ، فهو حزام يوماً ، وعمامة يوماً آخر ، ومنديل لتجفيف العرق ، وسفرة يتناول عليها الطعام احياناً اخرى) .

وإذ عاد الرجل بعد تلك الليالي إلى بلده ، عدنا نحن نجتر ذكرياتنا منه ، وقد احسنا أن الفراغ الذي

تركه اخطر بكثير مما كنا نظن ، فقد افتقدنا اسلوبه الجديد ، وبساطة عرضه ، وسعة اطلاعه ولم ينفع معنا ما أخذ يردنا بعد ذلك من مصر ولبنان من الكتب الجديدة لكتاب افاضل . صحيح انها كانت كتباً عظيمة رائعة ، إلا أنها كانت قد كتب للتاريخ ، وللنخبة من الناس ، وليس للناس العاديين من الطبقات المتوسطة .

لقد كانت السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية سنوات حرب اعنف وأشد ، حرب العقائد والأفكار والايديولوجيات التي وفدت على الشرق مع ماورد من الغرب من بضائع وعادات . إلا أنها كانت حرباً غير متكافئة ، وقودها الطبقة الكادحة ، والشباب المثقف الأعزل ، الذي لولا تأصل فطرته الدينية وتشبته بمبادئه الأصيلة ، لجرفه التيار العارم . ومع ذلك فالحسائر لم تكن قليلة ، فقد اخذ التيار الكثير ، ولقد كان بالإمكان تقليل الخسائر إلى ادنى حد ، لو ان المدافعين كانوا قد تسلحوا بمثل ما تسلح به رجال الدين الأفاضل في ايران ، فهم إلى جانب تضلعهم في العلوم الدينية ، درسوا العلوم الحديثة ، واخذوا من لغة العصر جانباً مهماً اعانهم على إيصال الأسس التي بني عليها الإسلام إلى قلوب الكثرة الكاثرة من عموم أبناء الشعب ، بلغة سهلة ، ومنطق سليم ، وقرع الحجة بالحجة ، ودحض المفتريات بالأدلة

الدامغة ، مما حفظ للأمة الاسلامية في ايران وحدتها
وتوحيدها ، وتمسكها بعلمائها الأعلام .

واليوم ، وانا نزيل طهران ، أجدني محاطاً بحشدٍ من
خيرة العلماء المتنورين المجاهدين ، وبفيض من الكتب
القيمة التي تعين عامة الناس على التمسك بالإسلام ديناً ،
وخلقاً ، وسلوكاً .

ولقد اتاح لي حسن الحظ ان أقوم بجولة مائعة في
مجموعة مؤلفات الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري ، اطاعة
لوصية امام الأمة ، وإذا بي استرجع ذكرى الأيام الخوالي ،
وإذا بالكلمة تند من فمي « وجدته » .

نعم وجدته ، فهذا انسان عرف نفسه ، وعرف بني
جلدته ، وعرف ما ينبغي لهم ، فقدمه في تدرج سليم ،
وفي لغة سائغة ، خطباً ، ومحاضرات ، وكتباً ، بخبرة
الطبيب النطاسي العارف بالداء ، والعارف بالدواء ،
فيفصفه بنية خالصة تقرباً إلى الله تعالى . فما كان مني إلا
أن عقدت العزم ، بعون الله على أن أقدم هذه الكتب
النفيسة إلى أبناء اللغة العربية ، تلك اللغة الشريفة التي
ما فتئ شهيدنا الاستاذ مطهري ينادي في كتبه بضرورة
تعلمها وتعميمها حتى في المدارس الابتدائية .

وإني إذ اضع اليوم بين يدي القاريء العربي هذا
الكتاب الأول من سلسلة « القرآن » ليحدوني الأمل في أن
يمد الله تعالى في توفيقي ، فاقدم ما بقي من كتبه ودراساته
وبحوثه ، فأكون قد حققت بذلك ما كان ينبغي أن يتحقق
من قبل لسد الفراغ الذي ما زلنا نحسه في نفوس شبيبتنا
وطلابنا حتى اليوم .

ولا يسعني هنا إلا أن اسجل تقديري وشكري لمؤسسة
« بنياد بعثت » التي كانت سبباً في ما جاني به الله من
توفيق ، والله لا يضيع اجر من أحسن عملاً .
جعفر صادق الخليلي

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

« معرفة القرآن » . سلسلة من الخطب ، كان الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري يلقيها في جلساته الأسبوعية التي كان يعقدها في طهران .

كان الأستاذ مطهري خلال الخمس والعشرين سنة من إقامته في طهران ، يعقد جلسات متنوعة مع مختلف الطبقات ، أسبوعية ، أو شهرية ، أتت أكلها ثمراً يانعاً . ومن جملة تلك الجلسات ، كانت جلسته الأسبوعية لتفسير القرآن ، والتي كان يحضرها العامة من أبناء الشعب .

ولا شك في إنه لو كان الأستاذ الشهيد قد ألقاها في مجمع علمي ، بما كان لديه من إحاطة شاملة بالعلوم الإسلامية ، وبما امتاز به من دقة النظر ، ومن عشق عميق

للقرآن ، لكان لتفسيره شأن آخر . و لكن بالنظر إلى طبيعة تكوين المجتمع العلمي ، خليف بنا أن نقول ان الاستاذ لم يكن يرمي إلا إلى أن يتعرف العامة من المستمعين على القرآن الكريم .

لا نعلم بالضبط في أية سنة بدأ الاستاذ بهذه البحوث ، ولا من أي جزء من القرآن بدأها ، ولكن بعض القرائن تدل على أنه قد بدأ بسورة مريم حتى نهاية القرآن ، ثم عاد من بداية القرآن حتى الآية الثالثة والعشرين من سورة البقرة .

على كل حال ، إن ما هو موجود بين أيدينا واستخرجناه من أشرطة التسجيل ، يشمل الجزء ٢٩ و ٣٠ من القرآن (مع فقدان بعض السور) وتفسير سورة الفاتحة والبقرة ، بالاضافة الى ما ورد في هذه المجموعة . ولكننا نرى أنها ربما تكون قد بحثت بعد سنوات من تسجيل الجزئين ٢٩ و ٣٠ إذ إن هذا القسم يحتوي على وجهات نظر جديدة .

كانت هذه البحوث قد بدأت في فترة أخذت فيه بعض الجهات المنحرفة والمدعية بتفسير القرآن تفسيراً يتمشى مع ميولها وأذواقها ، ومع أسس المادية . ولعل الاستاذ الشهيد مطهري هو أول من تنبه إلى ما يجري

واكتشف مواضع الانحراف، فدق ناقوس الخطر بشدة ، وراح يكتب ويخطب كلما وجد فرصة مناسبة ، يكشف فيها ذلك الأعوجاج والانحراف . ومن ذلك هذه التفاسير القرآنية التي كان يرد بها على تحريصاتهم ، ويدافع بها عن الحقائق القرآنية دفاع المستميت ، حتى دفع في النهاية حياته ثمناً لذلك .

وفي السنوات الأخيرة من حياته ، كثيراً ما طولب الأستاذ بتدوين هذه البحوث وطبعها ونشرها ، بعد أن كانت مسجلة على أشرطة التسجيل ، لكي تكون في متناول الجميع . وبقي الأستاذ ينتظر الفرصة المناسبة ، إلا أنه اضطر أخيراً إلى أن يعهد إلى أحد أصدقائه بمهمة إعداد تلك البحوث وتحضيرها للنشر .

لقد بوشر في العمل بتفسير سورة الفاتحة ، وبعض من سورة البقرة ، تحت نظر الأستاذ الذي أجرى عليها بعض التعديلات والأضافات ، قبل أن يقع له الحادث المفجع . فتوقف كل شيء عدا تفسير الجزئين ٢٩ و ٣٠ من القرآن ، اللذين أعدا للنشر بعد حذف الجمل المتكررة المألوفة في الخطب .

كان الأستاذ الشهيد قد بدأ سنة ١٣٥٢ هـ . ش بإلقاء سلسلة من المحاضرات في « كلية صناعة شريف » بعنوان

« معرفة القرآن » ، على أن تكون مدخلاً لسلسلة من البحوث العقائدية العميقة الرئيسة حول معارف القرآن ، ولكنها توقفت على إثر اضطرابات الطلبة في تلك السنة ، وقيام الحرس المأجور بمهاجمة قاعات الدرس ، وتعطيل الدراسة في الجامعة . كل الذي بقي ذكرى من تلك المحاضرات خمس خطب ، أعدت وهيئت لتكون مدخلاً إلى تفسير القرآن المدرج في هذا الكتاب ، ونشر كجزء أول له .

من المأمل أن تكون هذه المجموعة ، مثل باقي آثار الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري القيمة والتي تعتبر فريدة في بابها ، أوقليلاً نظيرها ، موضع تقدير القراء وفائدتهم .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة القرآن :

إن معرفة القرآن لكل فرد عالم باعتباره عالماً ، ولكل فرد مؤمن باعتباره مؤمناً ، أمر ضروري وواجب . إلا أن ضرورة معرفة القرآن لعلماء النفس ولعلماء الاجتماع ، تتأق من حقيقة أن هذا الكتاب كان ذا تأثير على المجتمعات الاسلامية ، بل وفي مصير المجتمع البشري برمته إن نظرة إلى التاريخ ، تؤيد القول بأنه لم يكن لأي كتاب ما كان للقرآن من الأثر في المجتمعات الانسانية والحياة البشرية^(١) . ولهذا يدخل القرآن عنوة إلى ميدان علم

(١) اما من حيث اتجاه الأثر ، وهل كان نحو تغيير سير التاريخ باتجاه سعادة البشر ورفاههم ، أم باتجاه التفسخ والانحطاط ، أو انه بسبب هذا الكتاب ظهرت في التاريخ وثبة وحركة . فسرت في عروق المجتمعات البشرية دماء جديدة ، أو انه العكس . ذلك موضوع خارج عن نطاق هذا البحث .

الاجتماع ، ويصبح جزءاً من مواضيع بحث هذا العلم . وهذا يعني أن إجراء أية دراسة أو تحقيق حول تاريخ العالم خلال الأربعة عشر قرناً الماضيات ، ومعرفة المجتمعات الاسلامية على وجه الخصوص ، لا يمكن ان يتيسر قبل أن نعرف القرآن .

أما ضرورة معرفة القرآن للمسلم المؤمن ، فناشئة من كونه أصل إيمان المسلم ، ومنبع دينه وأساس فكره ، فما يمنح حياة المسلم حرارتها ومعناها وحرمتها وروحها إنما هو القرآن .

والقرآن ليس كباقي الكتب الدينية التي تطرح سلسلة من المسائل الغامضة فيما يختص بالله والخليقة والتكوين ، ومن ثم يتقدم بسلسلة من المواعظ الأخلاقية الساذجة فحسب ، بحيث أن المؤمنين لا يرون مندوحة عن اللجوء إلى مصادر أخرى يستقون منها القوانين والأفكار .

إن القرآن يبين أصول المعتقدات والأفكار والآراء اللازمة للإنسان كفرد « مؤمن » وذو عقيدة ، وكذلك يضع أصول التربية والأخلاق والنظام الاجتماعي والأسري ، ولم يترك على عاتق السنة أو الاجتهاد سوى ما يتطلبه التوضيح ، والتفسير ، والتشريح ، والاجتهاد احياناً ، وتطبيق الأصول على الفروع لذلك فكل رجوع الى أي

مصدر آخر ، يقتضي أولاً الرجوع إلى القرآن ومعرفته . إذ أن القرآن هو المقياس والمعيار لكل المنابع الأخرى . فالحديث والسنة علينا نقيسهما بمعيار القرآن لكي نرى إن كانا يطابقان القرآن فنتقبلهما وإلا فلا .

إن أهم مصادرنا المقدسة - بعد القرآن - في الحديث هي « الكتب الأربعة » . وهي : « الكافي » و « من لا يحضره الفقيه » و « التهذيب » و « الإستبصار » ، وفي الخطب « نهج البلاغة » ، وفي الأدعية « الصحيفة السجادية » . إلا إنها جميعاً فروع من القرآن ، وليست لها قطعية بت القرآن . أي إن إعتبارنا لحديث الكافي ، يعتمد على مقدار تطابقه مع القرآن وتعليماته . وعلى ألا يكون بينهما اختلاف . كان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الأطهار يقولون : اعرضوا أقوالنا على القرآن ، فما لم ينطبق عليه منها ، فاعلموا إنه موضوع ومختلق ومنسوب إلينا . فنحن لا نقول ما يخالف القرآن .

انواع معرفة القرآن :

أما وقد شخصنا ضرورة معرفة القرآن ، فقد بقي أن نعرف طرق معرفة هذا الكتاب . إن لمعرفة كل كتاب ودراسته ، عموماً طرقاً ثلاثاً :

الأول : المعرفة السندية أو الإنتسابية :

في هذه المرحلة ، نسعى لمعرفة مدى انتساب الكتاب إلى مؤلفه . فلنفترض اننا نريد معرفة ديوان حافظ (الشيرازي) أو خيام . إن الخطوة الأولى هي أن نرى إن كان ما يطلق عليه اسم ديوان حافظ كله من نظم حافظ ، أو إن بعضاً منه فقط من نظمه ، وإن بعضه الآخر مضاف إليه . كذلك الأمر بشأن خيام وغيره .

وهنا تبرز قضية تعدد النسخ ، وعلى الأخص أقدمها تاريخاً وأكثرها اعتباراً ، فنلاحظ إن أياً من هذه الكتب لا يستغني عن المعرفة والتمحيص . فديوان حافظ الذي طبعه المرحوم القزويني ، إستناداً إلى أكثر النسخ اعتباراً ، يختلف اختلافاً بينا عن دواوين حافظ المعروفة التي طبعت في ايران أو في بمبي ، والتي يحتفظ بها الناس في دورهم . فالدواوين التي طبعت قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة تكاد تبلغ ضعفي حجم الدواوين التي يعتمدها الباحثون اليوم . على الرغم من إننا نجد بين الأشعار التي يعتبرها الباحثون منحولة أبياتاً لا تقل جودة عن شعره الموثوق .

وعندما ننظر إلى الرباعيات المنسوبة إلى خيام نجد ثمة ٢٠٠ رباعية تكاد تكون متقاربة المستوى ولا يتعدى ما

فيها من اختلاف تلك الحدود المتعارف عليها عند الشعراء . ولكننا كلما تقدمنا تاريخياً مقتربين من عصر الخيام نجد أن ما لا يشك في نسبته إلى الخيام من ذلك العدد لا يتجاوز عشرين رباعية . والباقي إما أن يكون مشكوكاً في انتسابه إليه ، أو أنه لشعراء آخرين حتماً .

وعليه ، فإن المرحلة الأولى في معرفة كتاب ما هي أن ننظر إذا كان ما بين أيدينا يمكن إسناده إلى مؤلفه أم لا . وإلى أي مدى يصح ذلك . هل إن مستنداتنا تؤيد كل ما بين أيدينا ، أم أنها تصح على بعض دون بعض ؟ وفي هذه الحالة ، ما هي النسبة المثوية لصحة المنسوب إلى المؤلف ؟ ثم ما دليلنا على صحة الانتساب ، أو على الشك في الانتساب ؟ .

إن القرآن غني عن هذا النوع من المعرفة ، وهو ، لهذا السبب ، كتاب فريد بابه في العالم القديم ، فما من كتاب بين الكتب القديمة يمكن أن تمر عليه قرون طويلة ويبقى مع ذلك لا تناله شبهة أو اعتراضات من قبيل أن تكون السورة الفلانية مشكوك فيها ، أو أن الآية الفلانية موجودة في النسخة الفلانية وغير موجودة في غيرها ، ليست مطروحة أساساً . إن القرآن متقدم على النسخ وعلم المعرفة بالنسخ ، فليس ثمة أدنى شك في إن الذي أتى

بجميع تلك الآيات هو محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على اعتبار أنها معجزة ، وأنها كلام الله . وإن أحداً لا يستطيع أن يدعي بوجود نسخة مختلفة من القرآن ، ولا الزعم باحتمال وجودها . ولم يظهر من المستشرقين أحد يحاول تناول القرآن من هذه الناحية ، ليقول إن علينا أن نبحث عن نسخ القرآن القديمة جداً لكي نرى ما فيها وما ليس فيها ولئن كانت كتب مثل التوراة والإنجيل والأفستا ، أو مثل « شاهنامه » فردوسي و « كلستان » سعدي وغيرها تستلزم هذه الطريقة ، فإن القرآن غني عن كل ذلك .

في هذا الموضوع سبق أن قلنا إن القرآن متقدم على النسخ والعلم بالنسخ ، فهو فضلاً عن كونه كتاباً مقدساً سماوياً وينظر إليه أتباعه من هذا المنظور ، فإنه أقوى دليل وبرهان على صدق دعوى الرسول وأكبر معجزة من معاجزه .

ثم إن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كالتوراة لتظهر عندئذ مشكلة التساؤل عن النسخة الأصلية ، بل تتابع نزول القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة . ومنذ اليوم الأول من نزوله أخذ المسلمون يعبون منه مثلما يعب العطشان من ماء الفرات عباً ، فكانوا يستوعبون آياته ويحفظونها في

قلوبهم . حيث كان المجتمع الاسلامي يومئذ مجتمعاً بسيطاً وليس عنده كتاب آخر يقرؤه ويحفظه إلى جانب القرآن ، فكان يمتاز بخلو الذهن وقوة الحافظة . كما إن تفشي الأمية بينهم حملهم على أن يتناولوا معلوماتهم ومعارفهم من بين ما يرون ويسمعون .

لذلك فقد ارتسم القرآن على قلوبهم - وهو الذي نزل منسجماً مع ما لديهم من عاطفة وإحساس - ارتسام النقش على الحجر . ولما كان القرآن عندهم كلام الله ، لا كلام بشر ، فقد راحوا ينظرون اليه بتقديس ، ولا يسمحون بأن يتبدل فيه حرف واحد ولا أن يتغير مكان كلمة واحدة تقديماً وتأخيراً ، بل كانوا لا يفتأون يتلونه ويرتلونه تقريباً إلى الله تعالى . ولا بد أن نذكر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد انتخب منذ الأيام الأولى عدداً من الكتبة عرفوا باسم « كتاب الوحي » . هذه ميزة أخرى تضاف إلى مميزات القرآن لم تكن من نصيب أي كتاب آخر . إذ إن تدوين كلام الله منذ البداية يعتبر من جملة الأسباب الرئيسة في حفظه وصيانتة من التحريف .



إن من المظاهر الأخرى التي كانت سبباً في حسن استقبال الناس للقرآن ، هو جانبه الأدبي والفني الرفيع . . جانب

فصاحته وبلاغته . كانت لقوته الأدبية جاذبية تشد الناس إليه شداً وتحملهم على سرعة استيعابه ، بخلاف ما هو عليه الأمر بشأن كتب الأدب الأخرى ، مثل ديوان حافظ وأشعار مولوي وغيرهما ، فقد كان المولعون بها لا يتخرجون من التلاعب بما فيها لكي يزيدها اكتمالاً على ما يدعون . إلا أن أحداً لم يجر لنفسه أن يمد يداً في القرآن ، وقد نزل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا الْوَتِينَ ﴾ (١) .

وآيات غيرها تبين وخامة التقول على الله سبحانه . وعلى ذلك ، وقبل أن يطراً أي تحريف على هذا الكتاب السماوي ، تواترت آياته حتى بلغت مرحلة لم يعد بالإمكان معها حدوث أي تصحيف أو تحريف أو انكار . ولهذا فلسنا بحاجة إلى أن نبحث هذا الجانب من جوانب القرآن ، كما لا يحتاج ذلك أي خبير متضلع في القرآن . بيد أننا لا بد أن نتطرق إلى نقطة بهذا الخصوص ، وهي إنه على أثر سرعة انتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجا ، وبسبب ترامي اطراف بلاد المسلمين وبعدها عن

(١) الحاقة - آية : ٤٤ - ٤٦ .

المدينة المنورة ، مركز الصحابة وحفظه القرآن ، فقد ظهر احتمال وجود خطر يهدد القرآن ، وعلى الأخص في المناطق النائية ، حيث يمكن أن يقوم بعضهم من باب التعمد أو السهو ، بإضافة أو حذف أو تغيير في نسخ القرآن هناك ، غير إن ذكاء المسلمين وحسن تقديرهم للأمور ، حال دون وقوع هذا الاحتمال ، إذ إنهم تنبهوا إلى ذلك مبكراً في النصف الأول من القرن الأول الهجري ، وأدركوا أن عليهم أن يدروا أو خطر أي تغيير متعمد ، أو غير معتمد في القرآن ، فاستفادوا من حفظته ومن الصحابة . وأرسلوا نسخاً مصدقة من المدينة إلى تخوم الإسلام البعيدة ، وبذلك وقفوا بوجه أي تخريب من هذا القبيل ، وعلى الأخص بوجه اليهود الذين كانوا أساتذة فن التزوير والتحريف المشهورين .

الثاني : المعرفة التحليلية :

في هذه المرحلة يكون تحليل الكتاب هو موضع الدراسة ، أي دراسة ما يشتمل عليه الكتاب من مطالب ، وما يقصد إليه من أهداف ، ما هي نظرتة إلى الكون ؟ وإلى الإنسان ؟ وإلى المجتمع ؟ ما هي طريقة عرضه لتلك المطالب وأسلوب معالجته إياها ؟ أينطوي على

منظور فلسفي ، أو كما نقول اليوم ، أفيه منظور علمي ؟
أينظر إلى الأمور بعين العارف ، أم أن له أسلوبه
الخاص ؟ وثمة سؤال آخر : أيحمل هذا الكتاب رسالة ما
موجهة للبشرية ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب ، فما هي
تلك الرسالة ؟ .

في الواقع إن المجموعة الأولى من الأسئلة تتعلق
بوجهة نظر الكتاب في الكون والإنسان والحياة والموت ، أو
بعبارة أشمل تتعلق بوجهة نظره الكونية ، وهو ما يصطلح
عليه فلاسفتنا اليوم بحكمته النظرية . أما المجموعة
الأخرى من الأسئلة فتتعلق بما إذا كان الكتاب يعرض
خطة لمستقبل الإنسان ، وعلى أي طراز يريد أن يبني
الإنسان والمجتمع ؟ وهذا ما نطلق عليه اسم : رسالة
الكتاب .

على كل حال ، هذا الضرب من المعرفة يخص
المحتوى ، ويمكن إخضاع أي كتاب إلى هذه المعرفة سواء
أكان كتاب « الشفاء » لابن سينا ، أو ديوان « گلستان »
لسعدي .. وقد نجد كتاباً ليس فيه (منظور) ولا (رسالة)
أو قد يكون له (منظور) بغير رسالة ، أو قد يضمهما
كليهما .



أما من حيث معرفة القرآن معرفة تحليلية ، فينبغي علينا أن نعرف المسائل التي يتناولها وكيفية تناوله إياها ، وكيف تكون استدلالاته ومجادلاته في مختلف المواضيع .

وإذا كان القرآن حارس الإيمان ومحافظاً له ، ورسالته رسالة الإيمان ، فهل ينظر إلى العقل بعين الرقيب المنافس محاولاً صد هجماته ، أو أنه بالعكس ينظر دائماً إلى العقل بعين الحامي والمدافع محاولاً الاستعانة به ؟ هذه الأسئلة ، ومئات غيرها مما يطرح خلال المعرفة التحليلية ، هي التي تقودنا إلى إدراك ماهية القرآن .

الثالث : معرفة الأصل :

في هذه المرحلة ، وبعد الاطمئنان إلى نسبة الكتاب إلى مؤلفه ، وبعد التحليل التام لمحتواه ، علينا أن نبدأ البحث لنعرف إن كانت محتويات الكتاب ومطالبه من إبداعات فكر المؤلف نفسه ، أم إنها مديونة إلى أفكار الآخرين . ففيسما يتعلق بديوان حافظ ، مثلاً ، وبعد الانتهاء من مرحلتي المعرفة المستندية والمعرفة التحليلية ، علينا أن نتساءل إن كانت هذه الأفكار والآراء التي أفرغها حافظ في قوالب الكلمات والجمل والأبيات ، وعبر عنها بلغته الخاصة ، قد ابتدعها بنفسه ، أم إن ابوتها لها إنما

تقتصر على الألفاظ والكلمات وجمالها الفني فحسب ، وإن الأفكار والآراء تخص غيره من الناس ؟ وبعبارة أخرى إننا بعد ان نتأكد من اصالة حافظ الفنية ، ينبغي أن نتأكد من اصالته الفكرية ايضاً^(١) .

(١) إذ يمكن أن يكون حافظ مجرد فنان لا مفكراً ولا عالماً ، ولكنه ايضاً يمكن يكون في الوقت نفسه فناناًوعالماً معاً . إنما الذي نسلم به هو أن حافظاً كان عالماً قبل أن يكون شاعراً ، وكان عارفاً بالمفكرين الآخرين عن طريق كتبهم ، كالشعراء والأدباء والمفسرين والفقهاء . والمتصوفين على وجه الخصوص . ولقد كان أكثر علمه بهم عن طريق اساتذته . إنما نحن اليوم نعرف حافظاً شاعراً أكثر من كونه عالماً ، بينما كان في أيامه عالماً وإن نظم الشعر أحياناً ، ففي الكتب التي تم تأليفها في زمانه وفيها ذكر له ، نجده موصوفاً بما يوصف به العلماء لا الشعراء . فإذا كان هذا العالم واقفاً على آداب زمانه ، ومطلعاً على سير العلماء وسلوكهم ، ومتعمقاً في معرفة متصوفة عصره ، بحيث إنه استطاع ان يضع كل ذلك في الشعر بأفضل مما يستطيعه أي شاعر آخر ، فهل كان عرضه لتلك الأفكار متأثراً بأحد ممن سبقه ؟ أم إن ذلك كان من ابتداعه وابتكاره ؟ وهل إن لمحي الدين الأندلسي ، الذي يعد أبا التصوف الاسلامي ، أي أثر على حافظ ؟ أفهل يستبعد أن يكون لابن الفارض المصري - وهو اسبق من حافظ ، ولا يقل مكانة في الأدب الصوفي العربي عن مكانة حافظ في الأدب الفارسي - تأثيره في التكوين الشكلي لأفكار حافظ ؟ إن وظيفة (معرفة الأصل) هي البحث في أمثال هذه المسائل وإيجاد الإجابة عليها .

هذا النوع من المعرفة بخصوص حافظ أو أي مؤلف آخر هو معرفة أصول أفكار المؤلف وآرائه . وهذه المعرفة فرع يتفرع من المعرفة التحليلية . أي إننا يجب أولاً أن نعرف محتوى أفكار المؤلف بدقة ، ومن ثم نتوجه إلى معرفة أصوله ، وبغير هذه الطريقة يكون حاصل عملنا مشابهاً لما يقوم به بعض المؤلفين في كتابة تاريخ العلوم بدون أن يكون لهم أي علم بها أو مثل بعض المؤلفين الذين يكتبون في الفلسفة ، كأن يكتبوا عن ابن سينا وأرسطو ويحاولون إيجاد ما يتشابهان فيه وما يختلفان ، ولكنهم مع الأسف لا يعرفون ابن سينا ولا أرسطو .

إنهم ما إن يجدوا عندهما بعض الألفاظ المتشابهة ، حتى يأخذوا بإصدار الأحكام ، مع إن عليهم عند المقارنة أن يتعمقوا في فهم الفكرة ، وإن التعمق في إدراك عمق أفكار أشخاص مثل ابن سينا وأرسطو ليستغرق عمراً بأكمله ، وليس ما يقال غير ذلك سوى تخمين وخبط عشواء .

عند بحث القرآن ومعرفته ، وبعد أن نكون قد أنجزنا مطالعتنا التحليلية ، يأتي دور المقارنة والمعرفة التاريخية . وهذا يعني إن علينا أن نقارن القرآن بكل محتوياته مع كتب أخرى كانت موجودة في عصره ، وعلى الأخص الكتب الدينية . ولأجراء هذه المقارنة لا بد من توفر جميع

الشروط ، مثل مدى ارتباط شبه الجزيرة العربية بالمناطق الأخرى ، ونسبة الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة يومئذ في مكة . . . الخ ، ثم نقوم بالتقويم والتقدير .

ترى هل كل ما وجد في القرآن موجود ايضاً في كتب أخرى ؟ فإذا وجد ، فما هي نسبة وجوده ؟ وهل إن المطالب الموجودة في الكتب الأخرى تتخذ شكل الاقتباس أم إنها مستقلة ، أم إنها لا تعدو أن تكون مجرد تصحيحات وتوضيحات لما قد يكون فيها من تحريف ؟ .

اصالات القرآن الثلاث :

عندما نقرأ عن القرآن تتضح لنا « اصالات القرآن الثلاث » :

أولها : اصالة الانتساب ، أي إننا بغير أن يخامرنا ادنى شك ، أو أن نحتاج إلى دراسة النسخ القديمة ، نكون واثقين بأن ما يقرأ اليوم باسم القرآن المجيد ، هو الكتاب عينه الذي نزل على محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

والأصالة الثانية : هي اصالة المحتوى ، أي إن المعارف القرآنية ليست ملتقطة ولا مقتبسة ، بل هي

مبتكرة . والتحقيق في هذا الجانب تتكفل به المعرفة التحليلية .

والأصالة الثالثة : هي الأصالة الإلهية ، أي إن هذه المعارف قد فاضت مما وراء أفق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذهني والفكري ، وإنه لم يكن سوى ناقل هذا الوحي ومبلغ هذه الرسالة ، وهذا ما تتكفل به معرفة أصل القرآن .

إن معرفة الأصل ، أو بعبارة أخرى معرفة إصالة المعارف القرآنية ، مبنية على النوع الثاني من المعرفة . ولذلك فإننا سنبدأ من المعرفة التحليلية ، أي أننا سنبدأ ببحث محتويات القرآن ، وماهية المسائل المطروحة فيه ، والمسائل التي تنال حظاً أوفر من التوكيد ، وطريقة عرض تلك المسائل . فإذا استطعنا في المعرفة التحليلية أن نفهم تلك المسائل والمطالب حقها ، وأن نزداد معرفة بالمعارف القرآنية ، نكون ، كما قلنا ، وصلنا إلى أصالة هي أهم اصالات القرآن ، وهي (الأصالة الإلهية) أي كون القرآن معجزة .

شروط معرفة القرآن :

يتطلب التعرف على القرآن بعض المقدمات التي سوف

نوردها فيما يلي :

إن من أهم الشروط اللازمة للتعرف على القرآن هو معرفة اللغة العربية ، فبمثلاً يتطلب التعرف على حافظ وسعدي معرفة اللغة الفارسية ، كذلك لا يمكن التعرف على القرآن المكتوب باللغة العربية إلا بمعرفة اللغة العربية . والشرط الآخر هو معرفة تاريخ الإسلام ، ذلك لأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة مثل التوراة والانجيل . وإنما استغرق نزوله ثلاثاً وعشرين سنة من حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . من بعثته حتى وفاته ، في غضون سنوات ثائرة من تاريخ الإسلام . ولذلك فإن لآيات القرآن (شأن نزول) . ولا يعني هذا إن معنى الآية محدد بحدودها ، بل على العكس من ذلك ، إذ إن معرفة شأن النزول تساعد كثيراً على توضيح مضمون الآية وتمهد السبيل لفهمها . والشرط الثالث هو معرفة اقوال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ إنه ، حسبما ورد في القرآن ، المفسر الأول لهذا الكتاب :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . . . ﴾ (١) .

(١) النحل - آية : ٤٤ .

وكما في آية أخرى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١) .

فالرسول ، بحسب القرآن ، هو المين لهذا الكتاب والمفسر له ، وكل ما وصلنا منه يعيننا على تفسير القرآن . أما نحن الشيعة المعتقدين بالأئمة الأطهار . والمؤمنين بأن ما كان عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الله قد نقله إلى أوصيائه الأكرمين ، نرى الروايات الموثوقة التي وصلتنا منهم لها ما للروايات الموثوقة التي وصلتنا من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه . ولذلك فإن الموثوق به مما يروى عن الأئمة يعيننا على التعرف على القرآن كذلك .

ثمة نقطة مهمة تجب ملاحظتها عند دراسة القرآن والبحث فيه ، وهي إن مجموع آيات القرآن تؤلف بنياناً متماسك الأجزاء ، أي إننا لو أخذنا آية واحدة وقلنا إننا نريد أن نفهم هذه الآية وحدها ، فلن نكون قد اتخذنا سبيلاً سويّاً . لا شك إن فهمنا لتلك الآية قد يكون صحيحاً ، ولكنه عمل غير سليم ، فالقرآن يفسر بعضه

(١) الجمعة - آية : ٢ .

بعضاً ، وهذا ما أيده الأئمة الأطهار حسبما ورد على لسان بعض كبار المفسرين . إن للقرآن طريقة خاصة في بيان المسائل ، ففي كثير من الأحيان يكون للآية إذا أخذت منفردة مفهوماً يختلف كل الاختلاف عن مفهومها إذا ما وضعت إلى جنب الآيات المشابهة لها في المضمون .

كمثال على طريقة القرآن الخاصة ، يمكن أن نشير إلى آياته المحكمات والمتشابهات والتي يحمل العامة عنها تصوراً معيناً ، ويظن بعض ان المحكمات هي تلك الآيات التي ترد فيها المسائل بصورة صريحة وبسيطة ، والمتشابهات ، على العكس ، هي التي ترد فيها المواضيع بصورة ألغاز ومعميات ورموز . وعلى هذا يحق للناس أن يقتصروا على التدبر في محكمات آياته الصريحة ، ظانين إن متشابهاته عvisة على الفهم والتدبر .

وهنا يبرز هذا السؤال : ما هي فلسفة وجود الآيات المتشابهات ؟ لماذا يعرض القرآن آيات غير قابلة للفهم ؟ إن الجواب إجمالاً هو إنه لا المحكمات صريحة في معناها ، ولا المتشابهات غامضة المعنى . إن الغامضة من التعابير ، هي ما يكون معناها مبهماً ومجماً وفي كلمات لا تفيد المعنى بصورة مستقيمة . فمثلاً عندما كافأ السلطان محمود (الغزنوي) فردوسي الشاعر مكافأة ضئيلة على الرغم مما

عانه من تعب ، فإنه رفض صلة السلطان ، وأخذ يهجو
في شعره ، متهماً إياه بالبخل والإمساك ، وكان بعض
هجو صريحاً ، وبعضه الآخر مبهماً .

من ذلك قوله ما معناه : « لو كانت ام السلطان ملكة
لبلغ ذهبي وفضتي ركبتني »^(١) .

ويقول في مكان آخر : « إن كف السلطان محمود ،
فاتح البلاد ، عادت تسعة في تسعة وثلاثة في أربعة »^(٢) .
فما معنى هذا ؟ .

هنا يستخدم فردوسي تعبيراً غامضاً أشبه باللغز وهو
يقصد أن يقول : $9 \times 9 = 81$ و $3 \times 4 = 12$
والمجموع $= 93$ وهذا يعني إن كف السلطان محمود تشبه
الرقم ٩٣ ، أي إن كفه مضمومة ضمّاً شديداً باستثناء
الإبهام الذي يكون مع السبابة الرقم ٩ . ويؤلف مع
الأصابع الثلاثة الأخرى الرقم ٩٢ . وبهذا يشير فردوسي
إلى خسة السلطان محمود .

-
- (١) اگر مادر شاه بانو بدا
مرا سیم وزر تابه زانو بدی
- (٢) كف شاه محمود كشور كشاي
نه اندر نه آمد سه اندر چهار

والآن، هل في القرآن آيات ذوات الغاز؟ إن هذا يتنافى مع نصوص القرآن التي تقول إن القرآن كتاب ينير الطريق ، ويفهمه كل الناس ، وآياته نور وهداية . إن السر في ذلك هو أن بعض المسائل المطروحة في القرآن تدور حول ما وراء الطبيعة والأمور الغيبية . وهي أمور غير قابلة للإفصاح عنها بالألفاظ .

وكما يقول الشيخ الشبستري :

« لا يمكن ضم المعاني في الحرف ، بمثلما لا يمكن ضم البحر اللامتناهي في اناء »^(١) .

ولكن لما كانت لغة القرآن هي لغة الناس ذاتها . فكان لا بد لتلك المواضع الدقيقة المعنوية أن ترتدي تعابير مما يستعملها الناس للمواضيع المادية . ولغرض الحيلولة دون وقوع سوء فهم . فقد طرحت بعض الآيات بحيث لا تكون مندوحة عن الرجوع إلى آيات أخرى للاستعانة بها في تفسيرها . وما من سبيل غير هذا في ذلك . مثلاً ، إن القرآن أراد أن يتطرق إلى حقيقة « رؤية الله قلبياً » . أي إن الإنسان قادر على أن يرى الله بقلبه .

(١) معاني هرگز آندر حرف نايد

که بحر بيکران در ظرف نايد

هذه الحقيقة وردت هكذا :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾^(١) .

فالقرآن يستخدم هنا لفظة النظر لعدم وجود كلمة أخرى تناسب المقصود . ولكنه لكي يحول دون حدوث أي سوء فهو يقول في مكان آخر :

﴿ لَا تَذَرُكَ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾^(٢) .

فلا شك في إن القاريء سوف يتنبه . على الرغم من التشابه اللفظي . أن ليس بين هذين الأمرين علاقة . وإنما منفصلان كل الانفصال . ولئلا تختلط تلك المعاني الرفيعة الشاخبة بالمعاني المادية . يطلب القرآن منا أن نرجع بالمتشابهات على المحكمات :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾^(٣) .

والمحكمات هن اللواتي لا يمكن اخراجهن عن معانيهن ، ولا أن نستنتج منهن معاني أخرى . تلك هي

(١) القيامة - آية : ٢٢ و ٢٣ .

(٢) الأنعام - آية : ١٠٣ .

(٣) آل عمران - آية : ٧ .

الآيات الأم . فكما إن الطفل يرجع إلى أمه ، وهي مرجع طفلها - أو كما إن أم القرى هي مرجع المدن الصغرى ، كذلك تكون الآيات المحكمات مراجع للآيات المتشابهات . فالمتشابهات للفهم والتدبر ، ولكن بعد الرجوع إلى المحكمات ، فبغير عون الآيات الأم لا يكون ما تأخذه من الآيات المتشابهات موضع اعتبار .

ما معنى معرفة القرآن ؟ :

عند تحليل القرآن ومعرفة محتواه ، يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : أيمن تعرف القرآن ودراسته أصلاً ؟ أيمكننا أن نتدبر القرآن ونفكر في آياته . أم إنه لم ينزل لكي يتعرفه الناس ، بل نزل لمجرد التلاوة والقراءة ، ولنيل الثواب والتبرك والتميم ليس غير ؟ قد يبدو لأول وهلة أن لا داعي لأيراد مثل هذا السؤال ، وإنه لا شك في أن القرآن نزل لكي يعرف . ولكن بما أنه قد ظهرت في دنيا الإسلام أمور يؤسف لها بحيث ما زالت ذات جذور لأفكار منحطة وخطيرة في مجتمعا ، فقد رأينا إن علينا أن نورد ما يوضح هذا الجانب من الأمور .

قبل ثلاثة قرون أو أربعة ، ظهر من بين علماء الشيعة افراد اعتقدوا إن القرآن ليس حجة ، ورفضوا القبول بثلاثة

من أصول الفقه الأربعة التي كان علماء الإسلام قد اعتبروها معياراً لمعرفة المسائل الإسلامية ، وهي : القرآن ، والسنة ، والعقل ، والإجماع .

ففيما يتعلق بالإجماع كانوا يقولون : إن هذا من تقاليد أهل السنة فلا يمكن أتباعه .

وبخصوص العقل كانوا يقولون : كيف يجوز اعتماد العقل وهو كثير الأخطاء .

أما عن القرآن فكانوا يدعون من باب التقدير والاحترام : إنه أكبر من أن نتمكن نحن التافهين من البشر أن نطالعه ونتفكر فيه ، بل إن الرسول والأئمة وحدهم الذين يحق لهم أن يتلوا آياته ، وهؤلاء هم الأخباريون . لذلك كان مرجع الأخباريين الوحيد الجائز هو الأحاديث والأخبار . وقد يتتابكم العجب إذا علمتم إن في بعض التفاسير التي كتبها هؤلاء ، كانوا يدرجون الآية إذا كان لها ثمة حديث ، ويغفلون إدراجها إذا لم يكن لها حديث ، وكأنها ليست من القرآن . هذا لون من الظلم والجفوة بحق القرآن .

ومن البديهي إن مجتمعاً يهمل كتابه السماوي . كتاباً كالقرآن ، بهذه الصورة ويطرحه في زاوية النسيان ، لا يمكن أن يكون سائراً على هدي القرآن .

كان هناك غير هؤلاء جماعات أخرى أيضاً ، اعتقدت بضرورة إبعاد القرآن عن أيدي العامة . ومن هؤلاء الأشاعرة الذين كانوا يعتقدون بأن معرفة القرآن لا تعني تدبر آياته ، بل تعني فهم معانيها الحرفية ، أي إن علينا أن نقبل بالمعنى الظاهر للآيات ، ولا شأن لنا بعد ذلك بالباطن .

لا شك في أن هذه النزعة تؤدي إلى الإنحراف والضلال ، وذلك لأن هؤلاء كانوا مضطرين إلى توضيح معاني الآيات ولكنهم ، بإلغائهم عمل العقل ، لم يكن امامهم من القرآن إلا مفهوم هو أقرب إلى مفهوم العوام . وهم لذلك سرعان ما انحرفوا عن جادة الصواب ، واعتنقوا معتقدات غير صحيحة .

من ذلك مثلاً تجسيدهم الله (سبحانه) ومثات أخرى من المعتقدات الخرافية ، كأمكان رؤية الله تعالى عياناً ومخاطبته ، وإلى غير ذلك .

وفي مقابل هذه الجماعات التي تركت القرآن فعلاً ، ظهرت جماعة أخرى جعلت من القرآن وسيلة للوصول إلى غاياتهم وأهدافهم . أخذ هؤلاء يؤولون القرآن كيفما اقتضت منافعهم ، ونسبوا إلى القرآن أموراً لم تكن فيه إطلاقاً . وكانوا يردون على كل اعتراض قائلين بأنهم

وحدهم الذين يدركون المعاني الباطنية للقرآن وإن تأويلاتهم تلك متأتية من معرفتهم بآياته .

إن أبطال هذه الجماعات فئتان : الفئة الأولى هم الاسماعيلية ، ويعرفون بالباطنية ايضاً . والثانية هم المتصوفة . واكثر الاسماعيلية في الهند وقليل منهم في ايران . وقد بلغ بهم الأمر أنهم أنشأوا حكومتهم ايضاً ، وهي الدولة الفاطمية في مصر . ويعرف الاسماعيليون بأنهم من الشيعة الذين يعترفون بستة من الأئمة . غير أن المقطوع به ، وبإجماع واتفاق تام من علماء الشيعة الاثني عشرية ، إن هؤلاء أبعد ما يكونون حتى عن غير الشيعة . أي إن أهل السنة الذين لا يرون في أئمة الشيعة ما يرى الشيعة فيهم ، أقرب إلى التشيع من هؤلاء المحسوين على الشيعة^(١) .

إن هؤلاء ، بسبب تشبهم بالباطنية ، أساءوا إلى

(١) في مؤتمر « التقريب بين المذاهب الاسلامية » الذي عقد قبل حوالي ٣٥ سنة ، والذي جمع اصحاب مختلف المذاهب الاسلامية لإزالة كل سوء تفاهم ، حضر ايضاً عدد من الاسماعيليين ، غير أن الشيعة والسنة الحاضرين اتفقوا بالاجماع على عدم اعتبار هؤلاء من جملة الفرق الاسلامية ، ومنعواهم من الإشتراك في المؤتمر .

الإسلام وخانوه خيانات عديدة في التاريخ الإسلامي ،
وكان لهم دور كبير في إيجاد الانحرافات في أمور الإسلام .
بعد هؤلاء نأتي إلى المتصوفة الذين كانت لهم اليد
الطولى في تحريف الآيات وتأويلها بحسب عقائدهم
الخاصة . وكمثال على ذلك ، نذكر غموضاً من
تفاسيرهم ، ليتبين طرز تفكيرهم ، بحيث يستطيع
القارئ أن يقرأ المفصل من هذا المجلد :

لقد جاء في القرآن ذكر ابراهيم وابنه اسماعيل ، وأن
الله قد أمر ابراهيم في المنام عدة مرات بذبح اسماعيل
تقرباً إليه . ويعجب ابراهيم أول الأمر لهذا الأمر ، ولكنه
بعد تكرار الرؤيا يؤمن بذلك ويسلم أمره لله ، ويفتح ابنه
بذلك ، فيستسلم اسماعيل استسلام المخلص له :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا
تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ ﴾ (١)

المقصود هنا هو هذا التسليم أو الرضا بقضاء الله ،
ولذلك عندما قام الأب والأبن ، بكل خلوص نية ونقاء
سريرة بإعداد العدة لتنفيذ أمر الله تعالى ، توقف التنفيذ

(١) الصافات - آية : ١٠٢ .

بأمر من الله ايضاً . أما المتصوفة فيرون في تفسير هذه الآية إن ابراهيم هو العقل ، وإن اسماعيل هو النفس ، وإن العقل ههنا كان ينوي قتل النفس .

من الواضح أن هذا المفهوم لا يعدو أن يكون تلاعباً بالقرآن ، ولوناً من المعرفة التحريفية . إن هذه المفاهيم المنحرفة المبنية على الأهواء الشخصية ، هي التي قال فيها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » . إن هذا التلاعب خيانة للقرآن بل خيانة عظمى ^(١) .

والقرآن ، في قبال جمود الأخباريين وجفاف تفكيرهم ، وكذلك في مواجهة انحرافات الباطنية ومفاهيمهم الخاطئة وأمثالهم ، يعرض سبيلاً وسطاً هو التأمل والتدبر الخالص المنصف وبغير تغرض . إن القرآن لا يحرض المؤمنين فحسب على التفكير في آياته ، بل إنه

(١) إنه لما يؤسف له في هذا الزمان أن تكون سوق المفاهيم المنحرفة والتفاسير الإعتباطية رائجة ، فتظهر الآراء اللاإسلامية بلبوس الإسلام ، ولقد أعلن الاستاذ الشهيد حرباً شعواء على أمثال هذه الأمور ، فبارز بأفكاره وبقلمه الجبار ، حتى إنه في آخر الأمر ضحى بحياته في سبيل ذلك تضحية صادقة - الناشر .

يحث المخالفين له على ذلك أيضاً ، ويطلب منهم ألا
يتحزبوا ، بل يتأملوا في آياته ، ويقول :

﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١) .

وفي آية أخرى يقول :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

أي إنه كتاب غزير الثمر ، كثير البركة ، وإن تدبر
آياته لا يعني تقبيله ومن ثم وضعه على الرف ، بل يعني
تدبر آياته والتفكير فيها .

إن هذه الآيات وعشرات أخرى في توكيد تدبر
القرآن ، تجيز كلها تفسير القرآن ، وتؤيده ولكن لا التفسير
المبني على هوى النفس ، بل المبني على أساس من الصدق
والأنصاف والتجرد عن الغرض . فعندما نتأمل في القرآن
صادقين وغير مغرضين ، لن تكون هناك ثمة ضرورة إلى
أن تكون لنا القدرة على حل كل مسأله .

إن القرآن من هذا المنظور أشبه بالطبيعة . ففي

(١) سورة محمد - آية : ٢٤ .

(٢) سورة ص - آية : ٢٩ .

الطبيعة كثير من الأسرار التي ما زالت تفتقر إلى الحل ،
وليس بالإمكان حلها في الظروف السائدة فعلاً ، ولكنها
سوف تحل في المستقبل . ثم إن الإنسان في سعيه لمعرفة
الطبيعة ينبغي عليه أن يلائم بين تفكيره والطبيعة كما
هي ، لا أن يفسر الطبيعة على حسب ما يشاء هو .
وكذلك هو القرآن ، فإنه لم ينزل لزمان واحد ، ولم
يكن الأمر كذلك ، لانكشفت أسرارها منذ أمد ، ولقد
هذا الكتاب السماوي كل جاذبيته وجدته وتأثيره . غير أننا
نرى إن الرغبة في تدبره والتفكير فيه واستكشاف جديده لم
يزل باقياً كما كان ، وهذه ملاحظة سبق أن شرحها النبي
والأئمة .

فقد ورد في حديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله
وسلم) أنه قال : « مثل القرآن كمثل الشمس والقمر ،
فهو مثلهما في جريان دائم » . أي إنه ليس على وتيرة
واحدة ولا هو قد سَمَر في مكان واحد . وقال ايضاً :
« القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق » .

وجاء في عيون اخبار الرضا (عليه السلام) عن
الامام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه سئل عن السر في
أن القرآن تزداد طراوته وجدته بتقادم الزمان عليه وبتكرار
تلاوته . فقال : لأن القرآن لم ينزل لزمان دون زمان

ولناس دون ناس ، بل إنه نزل لكل الأزمان وكل
الناس . إن منزله قد صاغه بحيث إنه يتقدم على كل
تطور في العلم والتفكير ، على الرغم من التطور الهائل في
المعارف والعلوم ، كما إنه يعرض من المعاني والمفاهيم
القابلة للدرك بما يتسع لظرفية الزمان واشباعه .

* * *

معرفة القرآن تحليلياً

نريد في هذا الفصل ان نبحث في محتويات القرآن .
وطبيعي اننا لو اردنا تناول موضوعاته موضوعاً موضوعاً
لاقتضانا ذلك أطناناً من الورق . وعليه فسوف نعالج
الكليات أولاً ، ثم نعود على بعض الجزئيات .

يتناول القرآن كثيراً من المطالب بالبحث ، وفي
غضون ذلك يؤكد بعضها تأكيداً أكبر دون بعض . ومن
جملة الأمور التي جرى بحثها في القرآن إله الكون
والكون . علينا ان نرى كيف ينظر القرآن إلى الله . هل
يعرفه معرفة فلسفية ، أم معرفة تعبدية ؟ هل يذهب ،
مثل التوراة والانجيل ، مذهباً دينياً ، أم أنه يسير كما تسير
الديانات الهندية ، أم إن له مذهبه الخاص والمستقل في
معرفة الله ؟ .

والموضوع الآخر هو الكون . لا بد لنا أن ندرك
النظرة التي ينظر بها القرآن إلى الكون . فهل ينظر إلى
الخليقة والكون نظرة عبث وهو ؟ أم إنها نظرة الصدق

والحق ؟ فهل يرى جريان العالم يسير على وفق سنن
ونواميس . أم يراه يجري على غير هدى أو قاعدة ، بحيث
لا يبدو أي شيء سبباً لأي شيء آخر ؟ .

ومن جملة المسائل الكلية المطروحة في القرآن مسألة
الإنسان . فلا بد من تحليل نظرة القرآن إلى الإنسان .
أتراه يتحدث عن الإنسان متفائلاً ، أم إن نظرتة إليه
سلبية ومتشائمة ؟ أيرى الإنسان حقيراً ، أم يرى أن له
كرامة وعزة ؟ .

ومسألة أخرى هي مسألة المجتمع الإنساني . أفهل
يرى القرآن للمجتمع الانساني أية اصالة ، أم يرى الفرد
هو الأصيل ؟ وهل للمجتمع الانساني في نظر القرآن حياة
وموت ورفعة وانحطاط ، أم إن هذه الصفات تختص
بالفرد فحسب ؟ وهنا تدخل مسألة التاريخ ، وكيف ينظر
القرآن إليه . ترى ما هي القوى المحركة للتاريخ ، وما هو
مقدار تأثير الفرد في التاريخ ؟ .

هنالك مسائل كثيرة أخرى يطرحها القرآن ، ونحن
نورد هنا سرداً لبعض منها : نظرة القرآن إلى القرآن ، ثم
مسألة الرسول في القرآن ، وكيف يعرف القرآن الرسول ،
وكيف يحادثه . . . ثم مسألة تعريف المؤمن في القرآن ،
وما هي صفات المؤمنين ، وغيرها .

ولا شك ان لكل واحدة من هذه المسائل الكلية مسائل فرعية ، فمثلاً عند الكلام على الانسان ، لا بد لنا أيضاً أن نتكلم على الأخلاق ، أو إذا تحدثنا عن المجتمع ، لا بد أن نتحدث عن روابط الأفراد ، وعن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن مسائل الطبقات الاجتماعية . . . وغير ذلك كثير .

كيف يعرف القرآن نفسه ؟ :

من الأفضل في تحليل القرآن أن نبدأ من ملاحظة رأيه في نفسه ، وكيف يعرف نفسه . إن أول ما يطالعنا بهذا الشأن هو قوله إن هذه الكلمات والعبارات هي كلام الله . إنه يعلن صراحة إن الرسول ليس هو منشيء القرآن ، بل إنه إنما يبين ما ينزل به روح القدس أو جبرائيل بإذن الله .

والأمر الآخر الذي يوضحه القرآن هو تعريف رسالته . وهي إنها هداية أبناء البشر وقيادتهم للخروج بهم من الظلمة إلى النور :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١) .

(١) سورة ابراهيم - آية : ١ .

ولا شك إن من مصاديق هذه الظلمات الجهالة .
 فالقرآن يقود البشر من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولكن
 لو كانت هذه الظلمات تنحصر بالجهل فحسب ، فقد كان
 بإمكان الفلاسفة أن يقوموا بتلك المهمة ، غير أن هناك
 ظلمات أخرى أخطر بكثير من ظلمة الجهل ، ولا يستطيع
 العلم أن يعالجها . فهناك مثلاً حب المال ، والأنانية ،
 واتباع الشهوات ، وغيرها . . . مما يعتبر من الظلمات
 الفردية الأخلاقية . وثمة ظلمات اجتماعية كالظلم ،
 والتمييز ، وغيرهما . . . والظلم ممن مشتقات الظلام ، مما
 يوحي بنوع من الظلام الاجتماعي المعنوي ، وإن مكافحة
 هذه الظلمات من شأن القرآن والكتب السماوية
 الأخرى .

يخاطب القرآن موسى بن عمران قائلاً :

﴿ أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
 النُّورِ . . . ﴾ ^(١) .

إنها ظلمات الظلم ، ظلم فرعون والفراعنة ، والنور
 هو نور الحرية والعدالة .

إن مما التفت إليه المفسرون هو إن القرآن لا يورد كلمة

(١) سورة إبراهيم - آية : ٥ .

« الظلمات » إلا بصيغة الجمع ، ومقرونة بالالف واللام ، لتدل على الاستغراق ، فتشمل كل ضروب الظلمات ، ولكنه يورد النور بصيغة المفرد . وهذا يعني إن الطريق الصحيح واحد لا أكثر ، بينما سبل الانحراف والضلال عديدة . من ذلك مثلاً الآية التالية :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِئَا هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (١) .

وهكذا يعين القرآن هدفه : تحطيم اغلال الجهل والضلال والظلم والتردي الأخلاقي والإجتماعي . وبكلمة واحدة : القضاء على الظلمات ، والهداية نحو العدالة والخير والنور .

معرفة القرآن :

المسألة الأخرى ، مسألة معرفة لغة القرآن وتلاوته . يظن بعضهم إن القصد من تلاوة القرآن هو قراءته طمعاً في الثواب دون إدراك شيء من معانيه . هؤلاء الذين

(١) سورة البقرة - آية : ٢٥٧ .

« يختمون » القرآن مرّات عديدة ، ولكننا إذا سألنا أحدهم إن كان قد فهم معنى ما يقرأ فسوف يعجز عن الجواب . إن قراءة القرآن بقصد تفهم معانيه أمر لازم ومطلوب ، لا بقصد الحصول على الثواب فقط .

إن لإدراك معاني القرآن مستلزمات لا بد من الإهتمام بها . إن ما يحصل عند القارئ الذي يريد تعلم كتاب ما ، هو سلسلة من الأفكار الجديدة لم تخطر له من قبل . فهنا يكون العقل وقوة فكر القارئ هما الفاعلان الشيطان . وفيما يتعلق بالقرآن يجب أن يكون التعلم والإدراك هما القصد من قراءته . والقرآن هو نفسه يقول :

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .

إن واحدة من وظائف القرآن التعليم . وهنا يخاطب القرآن عقل الانسان بلغة المنطق والاستدلال . ولكن للقرآن لغة أخرى لا يخاطب بها العقل ، بل القلب ، ويطلق على هذه اللغة الثانية اسم الإحساس . فمن يريد أن يتعرف على القرآن وأن يأنس به ، عليه أن يعرف هاتين اللغتين ، وأن يستفيد منهما معاً ، إذ إن الفصل بينهما يؤدي إلى الخطأ ، وسوء الفهم ، وما هذا إلا خسران كبير .

(١) سورة ص - آية : ٢٩ .

إن ما نطلق عليه اسم القلب هو ذلك الإحساس العظيم والعميق الكامن في داخل الإنسان ، وقد يطلقون عليه أيضاً اسم الإحساس بالوجود ، أي ذلك الإحساس الذي يرتبط بالوجود المطلق . إن من يعرف التكلم بلغة القلب ويخاطب به الإنسان ، فإنه يهزه من أعماق حياته وكنه وجوده ، وعندئذ لا يكون العقل وحده تحت التأثير ، بل الوجود بأكمله يكون متأثراً .

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً للغة الإحساس ، فإننا نضرب بالموسيقى مثلاً لذلك . فالموسيقى ، على اختلاف أنواعها ، تشترك في امر واحد ، وهو إنها تعالج إحساس الإنسان . إنها تهيج روح الإنسان وتغرقه في عالم خاص من المشاعر . وبالطبع تختلف أنواع الهيجانات باختلاف أنواع الموسيقى .

فقد يمتاز نوع بآثارته مشاعر البطولة والحماس ، فهو يخاطب الإنسان بهذه اللغة . إنكم تعرفون انهم يعزفون الموسيقى العسكرية والأناشيد خلال الحروب . إن تأثير هذه الموسيقى يكون أحياناً من القوة بحيث إن الجندي المرتعد خوفاً من العدو داخل خندقه ، يندفع خارجاً متحدياً هجمات العدو ويقابله بالهجوم .

ونوع آخر من الموسيقى قد تثير أحاسيس الشهوة ،

فيرتخي الإنسان ، ويرتمي في أحضان الشر . من الملاحظ أن هذا اللون من الموسيقى متفش وواسع الانتشار ، ولعله أقدر من أي شيء آخر على هدم جدران العفة والأخلاق . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالغرائز والمشاعر الأخرى ، التي يمكن السيطرة عليها ووضعها تحت المراقبة ، سواء عن طريق الموسيقى أو أية وسيلة أخرى .

إن من أرفع غرائز الإنسان واحساساته هي حسه الديني ، وفطرته في البحث عن الله . فتوجه القرآن يكون نحو مخاطبة هذا الحس الشريف السامي ^(١) .

القرآن نفسه يوصينا أن نقرأه بلحن لطيف وجميل . إن هذا اللحن السماوي ، هو اللحن الذي يخاطب به القرآن فطرة الإنسان الإلهية ويجتذبها إليه ^(٢) . عند وصف القرآن ذاته يقول إنه يتكلم بلغتين ، فهو مرة كتاب الفكر والمنطق الاستدلالي ، ومرة أخرى كتاب المشاعر والعشق

(١) لقد قيل الكثير في شرق العالم وغربه عن هذا الحس الديني . إننا هنا سوف نوجز أقوال عالين من علماء العالم . أولهما هو انشتاين . ففي إحدى مقالاته يتطرق إلى الدين ويقول إنه يعتقد بأن في العالم عموماً ثلاثة أنواع من الأديان .

(٢) كان الأئمة (عليهم السلام) يقرأون القرآن بكثير من الانفعال والتهيج بحيث كان المستطرقون المستمعون اليهم يتوقفون عنوة وتنقلب احوالهم ويجهشون في البكاء .

وبعبارة أخرى ، ليس القرآن غذاء العقل والفكر بحسب ، بل هو غذاء الروح ايضاً .

والقرآن يؤكد موسيقاه الخاص توكيداً كبيراً . تلك الموسيقى التي يكون تأثيرها في استثارة مشاعر الإنسان العميقة والسامية أقوى من كل موسيقى . فالقرآن يطلب من المؤمنين أن يقضوا بعض ليلهم في تلاوته . وأن يقرأوه كذلك خلال الصلاة عند توجههم إلى الله . إنه يخاطب الرسول قائلاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا
نُصْفَهُ ... ﴾ (١) .

قم ناج ربك ، ورتل القرآن في صلاتك ، والترتيل يعني عدم الاسراع في القراءة لئلا تتداخل الكلمات فلا تفهم ، وعدم الابطاء إلى درجة فصم الرابط بين المعاني . يقول اقرأ القرآن بتأن وبتوجه إلى المعنى . ويضيف في آيات أخرى في السورة نفسها مخاطباً الناس : إذا ما الجأتكم أعمالكم اليومية ، كالتجارة والجهاد في سبيل الله . إلى فترة نوم اطول ، فلا تنسوا خلوة العبادة .

إن السبب الوحيد الذي كان يزيد نشاط المسلمين ،

(١) سورة المزمل - آية : ١ و ٢ .

وقدرتهم الروحية ، وخلوصهم ، وصفاء بواطنهم ، هو موسيقى القرآن . لقد أحال نداء القرآن ، في فترة وجيزة ، النفوس الخشنة الجافة في جزيرة العرب إلى مؤمنين ثابتة أقدامهم . تمكنوا من مصارعة أقوى سلطات زمانهم والقضاء عليهم . لم يكن المسلمون ينظرون إلى القرآن على أنه مجرد كتاب للدرس والتعليم فحسب ، بل كانوا يرون فيه غذاء للروح ، ومادة لكسب القوة وازدياد الايمان . كانوا يتلونه أثناء الليل بنية خالصة^(١) . يناجون ربهم ، وفي النهار يهجمون على الأعداء كالأسود الضارية . ولقد كان القرآن يتوقع هذا من المؤمنين به . إذ يقول مخاطباً الرسول :

﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾^(٢) .

إن قصة حياة الرسول نفسها مصداق لهذا القول . فهو بمفرده ، وبغير سند ، يرفع القرآن ، ويبدأ ثورته ،

(١) جاء في دعاء الامام زين العابدين (عليه السلام) لختم القرآن : « واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مونساً » . أي امنحنا الفهم والعشق لنألف كتابك ونأنس به في ظلمات الليالي .

(٢) سورة الفرقان - آية : ٥٢ .

فيكون القرآن له كل شيء ، يعد له الجند ، ويهيئ السلاح والعدة ، وأخيراً يجبر العدو على الخضوع والتسليم ، ويجتذب افراد العدو لينحنوا أمام رسول الله ، وهكذا يفي الله بما وعد^(١) .

عندما يسمى القرآن لغته بلغة القلب ، إنما يقصد ذلك القلب الذي يريد أن يصقله ويهذبه بآياته ويشيره . وهذه غير لغة الموسيقى التي تغذي أحياناً رغبات الإنسان الشهوانية ، وهي كذلك غير لغة المارشات العسكرية والأناشيد الحربية التي يعزفونها في الجيش لاستشارة روح الحرب في الجنود ، بل انها تلك اللغة التي تجعل من أعراب البادية مجاهدين قيل فيهم : « حملوا بصائرهم على اسيافهم » .

أولئك الذين وضعوا معارفهم ونظراتهم وأفكارهم النيرة ومداركهم الإلهية والمعنوية على اسيافهم التي شهروها في سبيل تلك المعتقدات . لم تكن لديهم منافع شخصية ولا مسائل فردية . وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا معصومين من الخطأ ، وكانت تصدر عنهم أخطاء . إلا أنهم كانوا

(١) يتحقق وعد الله الحق هذا في زماننا أيضاً ، فيظهر رجل من ذرية الرسول ، يؤمن ، كجده ، بالقرآن وحده ، فينزل بجند الكفر وجيش الباطل هزيمة مهلكة - الناشر .

يمثلون مصداق القول : « قائم الليل وصائم النهار » .
كانوا دائماً على ارتباط عميق بالوجود ، فيقضون ليلهم
بالعبادة ونهارهم بالجهاد^(١) .

فالقرآن بالنظر لخصوصيته في كونه كتاباً للقلب
والروح ، يثير الأشجان ، ويسيل الدموع ، وهز الأفتدة .
ويصدق هذا حتى على أصحاب الكتب الأخرى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ،
وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾^(٢) .

ويؤكد في آية أخرى إن النصارى من أهل الكتاب

(١) في الخطبة رقم ١٩٣ من خطب نهج البلاغة المعروفة بإسم
« المتقون » يعدد امير المؤمنين (عليه السلام) صفات المتقين .
وبعد أن يذكر كيف هم قولاً وفعلًا ، يصف حالهم في الليل ،
أو كما يقول سعدي : يصف ليالي رجال الله قائلاً :

« أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن ، يرتلون
ترتيلًا ، يحزنون به أنفسهم » أي إنهم يقرأون القرآن قراءة تفهم
وتأمل ، لا كما يقرأ بعضنا القرآن اليوم ، بغير أن نفهم شيئاً
من معناه ، وهم يقرأونه بلحن محزون خاص ، ينبعث من
قلوبهم ، وإذا ما بلغوا آية فيها إشارة إلى رحمة الله ، نظروا
بشوق . وإذا ما بلغوا آية تشير إلى غضب الله . هلعت قلوبهم ،
وكانهم يسمعون صراخ أهل النار .

(٢) سورة القصص - آية : ٥٣ .

أقرب إلى المسلمين من اليهود والمشركين :

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ (١) .

ثم يصف النصارى الذين يؤمنون عند سماع القرآن
فيقول :

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٢) .

وعند الإشارة إلى المؤمنين عموماً . يصفهم هكذا :

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ
مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٣) .

في هذه وفي كثير غيرها من الآيات (مثل الآية : ٥٨
من سورة مريم ، والآيات الأولى من سورة الصف) يشير

(١) سورة المائدة - آية : ٨٢ .

(٢) سورة المائدة - آية : ٨٣ .

(٣) سورة الزمر - آية : ٢٣ .

القرآن صراحة إلى أنه ليس كتاباً علمياً وتحليلياً فحسب .
بل إنه في الوقت الذي يستفيد فيه من منطلق الإستدلال .
كذلك يتحدث مع مشاعر البشر وأذواقهم ، ويضع
أرواحهم تحت تأثيره .

من يخاطبهم القرآن :

من النقاط الأخرى التي ينبغي استنباطها من معرفة
القرآن هي معرفة الذين يخاطبهم . إننا نجد في القرآن تعابير
مثل : ﴿ هدى للمتقين ﴾ و ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾
و ﴿ ولينذر من حي ﴾ . وهنا نتساءل : إن الهداية لا لزوم
لها للمتقين . لأنهم متقون .

ومن جهة أخرى نجد القرآن يعرف نفسه قائلاً :

﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ
جَيْنٍ ﴾ ^(١) .

(١) سورة ص - آية : ٨٧ .

هذه واحدة من آيات القرآن العجيبة . فعند نزولها كان الرسول
(صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة ، وكان يحادث أهل
إحدى القرى . لقد كان مما يشير ضحك الناس أن يسمعوا
شخصاً وحيداً يقول بكل اطمئنان : إن خبر هذه الآية سيأتيهم =

إذن ، هل نزل الكتاب لكل الناس أم للمؤمنين دون
غيرهم ؟ وفي آية أخرى يخاطب الله رسوله فيقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) .

سيأتي توضيح ذلك مفصلاً عند الكلام على التاريخ
في القرآن . ولكننا هنا نجمل قائلين إن الآيات التي
تخاطب أهل العالم كلهم ، يقصد منها القول في الواقع بأن
القرآن لا يختص بقوم أو بجماعة بعينها ، فمن يقترب
صوب القرآن ينبج .

أما الآيات التي تخاطب المؤمنين والمتقين ، فالمقصود هو
الإشارة إلى نوع الناس الذين سيجتذبهم القرآن اليه ،
والنوع الذي سيباعد عنه في نهاية الأمر . والقرآن لا يشير
إلى قبيلة بعينها أو قوم معينين على أنهم عن المرتبطين
به والمؤيدين له . وهو لا يقول إنه يختص بقوم دون قوم
ولا هو يضع اصبعه على منافع طبقة معينة كما تفعل باقي
المذاهب ، فلا يقول إنه جاء لحماية مصالح الطبقة الفلانية
فحسب . إنه لا يقول مثلاً إنه جاء ليحمي مصالح الطبقة

= فيما بعد ، أي سيعرفون ما فعل هذا الكتاب بالعالمين في مدة
وجيزة .

(١) سورة الأنبياء - آية : ١٠٧ .

العاملة دون غيرها ، أو لتأييد طبقة الفلاحين فقط ، بل إنه يؤكد كونه كتاباً جاء ليسط العدل .

ويقول بشأن الرسل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (١) .

يريد القرآن القسط والعدالة لكل المجتمعات الانسانية ، لا لهذه لطبقة أو لتلك ، أو لقوم دون قوم . يريد القرآن ، بخلاف بعض المذاهب ، كالنازية ، أن يجتذب الناس ، فيضع اصبعه على مواطن عصبيتهم . وكذلك هو ، بخلاف الماركسية مثلاً ، لا يستند إلى ما في الانسان من روح النفعية والمصلحية ، ولا يحركه عن طريق منفعته (٢) .

وكما إن القرآن يقول باصالة الانسان العقلية . يقول أيضاً باصالته الوجدانية والفطرية . وإن فطرة البحث عن الحق والعدالة هي التي تحمل الانسان على السير والحركة .

(١) سورة الحديد - آية : ٢٥ .

(٢) حيث في هذه الحالة لا تكون العدالة والحق من اهداف أتباعه ، بل سيكون هدفهم الوصول إلى منافعهم واتباع رغباتهم .

لذلك فرسالة الرسول ليست موجهة إلى العمال أو
الفلاحين أو المحرومين أو المستضعفين . إن القرآن يخاطب
كلا الظالم والمظلوم ، يدعوهما إلى طريق الحق .

موسى يبلغ رسالته لبني اسرائيل ولفرعون كليهما ،
ويطلب منها الإيمان بالله والمسير في طريقه . كذلك عرض
محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) رسالته ودعوته على
سراة قريش ، وعلى امثال أبي ذر وعمرار . يورد القرآن
نماذج عديدة لتحريض الفرد على التمرد على ذاته ،
والرجوع عن طريق الضلال والفساد إلى طريق التوبة . لا
شك إن القرآن ذاته يعلم إن توبة الذين كانوا يعيشون في
رفاه ونعيم أصعب بكثير من توبة المحرومين والمظلومين ،
فهؤلاء يسيرون بمقتضى الطبع في طريق العدالة . أما
الأولون فعليهم أن يتنازلوا عن مصالحهم الشخصية
وامتيازاتهم القبلية وأهوائهم .

يقول القرآن إن اتباعه هم ذووا الأرواح الطاهرة
النقية . وإن تبعية هؤلاء للقرآن متأتية من حبه الفطري
للبحث عن الحقيقة والعدالة ، وليس لميولهم الدنيوية
ومنافعهم المادية وأهوائهم الخاصة .

العقل في نظر القرآن

تكلمنا في الفصل السابق باختصار على لغة القرآن ، وذكرنا إن القرآن يستعين بلغتين في ابلاغ رسالته ، وهما لغة الاستدلال المنطقي ، ولغة الاحساس . ولكل من هاتين اللغتين مخاطبوها المختصون . فالأولى تخاطب العقل . والثانية تخاطب القلب . في هذا الفصل سوف نتناول بالبحث وجهة نظر القرآن في العقل .

علينا أن نعرف إن كان القرآن يعتبر العقل سنداً ، أو ، كما يقول علماء الفقه والأصول ، هل العقل حجة ؟ أي إذا كان المكتشف حقاً من مكتشفات العقل الصحيحة . فهل ينبغي على البشر أن يحترموه وأن يعملوا بموجبه أم لا ؟ فإذا عمل به وارتكب في ذلك أحياناً خطأ ما ، فهل سيعذره الله على ذلك أم سيعاقبه ؟ وإذا لم يعمل به ، فهل سيعاقبه الله على عدم العمل به مع إن عقله قد حكم بذلك ، أم لا ؟ .

دلائل كون العقل حجة :

إن كون العقل حجة وسنداً في نظر الإسلام أمبر ثابت ، كما إن علماء الاسلام جميعاً ، ومنذ البداية وحتى الآن - عدا مجموعة صغيرة - لم يشكوا في سندية العقل ، واعتبروه أحد مصادر الفقه الأربعة .

١ - الدعوة الى التعقل في القرآن :

بما اننا نبحث في القرآن ، فلا بد لنا من الرجوع إلى القرآن نفسه للحصول على الدليل الذي يثبت كون العقل حجة . إن القرآن يضع توقيعه على مستند سندية العقل بطرق مختلفة . وأؤكد : بطرق مختلفة . فمن الآيات يمكن أن نعد ستين أو سبعين آية وردت في القرآن تشير إلى أن موضوعاً ما قد طرح لكي يتدبره العقل . ولنضرب مثلاً احدى الآيات العجيبة في القرآن :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

من الواضح بالطبع ، إن المقصود بالصم البكم ليس العضوي منها ، بل المقصود هو الجماعة من الناس الذين

(١) سورة الأنفال - آية : ٢٢ .

لا يريدون أن يسمعوا الحقيقة ، وإذا سمعوها لا يعترفون بها بألسنتهم . فالأذن التي تعجز عن سماع الحقائق ، ولا تعجز عن سماع لغو الكلام الفارغ ، هي في القرآن أذن صماء . واللسان الذي يقتصر على الشقشقة والهراء ، هو في القرآن لسان أبكم .

أما « الذين لا يعقلون » فهم الذين لا ينفعهم تفكيرهم . وهؤلاء لا يراهم القرآن جديرين بصفة (الإنسان) ، فأدرجهم في سلك الحيوانات والدواب ، فيخاطبهم بهذا المنظور^(١) .

وفي آية أخرى تطرح مسألة التوحيد ، بقوله :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(٢) .

وعلى اثر طرح هذه المسألة الغامضة التي لا يتسع بعض القول لدركها . تستأنف الآية قولها :

﴿ وَيَجْعَلِ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٣) .

(١) . يورد سعدي هذا المضمون في بيت شعر جميل :

به نطق آدمي بهتر است از دواب

” دواب از تو به کر نکوئی صواب

« الإنسان خير من البدواب بنطقه لكن الدواب خير منك إن لم تقل صوابا » .

(٢) و (٣) سورة يونس - آية : ١٠٠ .

في هاتين الآيتين اللتين اوردتهما مثالين ، يدعو القرآن إلى أعمال العقل بدلالة التطابق ، حسب تعبير أهل المنطق . هنالك آيات كثيرة أخرى يؤكد فيها القرآن سندية العقل بدلالة الالتزام^(١) . أي إنه يتكلم بأمور يستحيل قبولها دون القبول بسندية العقل وحجته . فهو مثلاً يطلب من الخصم استدلالاً عقلياً ، حيث يقول :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾^(٢) .

أي إنه يريد أن يبين ، بدلالة الالتزام ، إن العقل حجة وسند . أو إنه لكي يثبت وحدة الوجود صراحة يعتمد القياس المنطقي :

(١) عندما يقودنا وجود امر الى امر آخر ، نطلق على ذلك اسم الدلالة . والدلالات انواع شتى . ومنها الدلالة اللفظية ، وهذه تتخذ صوراً ثلاثاً :

الأولى : دلالة التطابق أو المطابقة ، أي ان اللفظة تدل على كل معناها ، كأن نقول : سيارة ونقصد كل اجزائها .

الثانية : دلالة التضمنين ، أي إن اللفظة تدل على جزء من المعنى ، كأن نقول : السيارة هنا ، ونفهم من ذلك ان هيكلها أو محركها موجود ايضاً .

الثالثة : دلالة الالتزام ، أي إن في اللفظة دلالة على امر خارج معناها ، كأن نسمع اسم حاتم فيخطر لنا جوده وكرمه .

(٢) سورة البقرة - آية : ١١١ .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (١) .

وهنا يقيم القرآن قضية شرطية ، فقد استثنى المتقدم وأهمل المتأخر . إن القرآن ، بتوكيده العقل ، يريد إبطال أقوال بعض الأديان التي تقول إن الإيمان غريب على العقل ، وإنه ، لكي يؤمن المرء ، عليه أن يعطل عمل العقل ، وأن يكتفي بعمل القلب ، لكي يدخله نور الله .

٢ - الاستفادة من العلة والمعلول :

إن من الأدلة الأخرى على قول القرآن باصالة العقل هو تبيان بعض المسائل باستخدام العلية والمعلولية . فالعلة والمعلول ، وأصل العلية ، قواعد للفكر العقلاني ، وهذا ما يحترمه القرآن ويعمل به . وعلى الرغم من أن القرآن كلام الله ، وأن الله هو خالق العلة والمعلول ، وأن الكلام يدور على ما وراء ما تقع العلة والمعلول دونه ، فانه مع ذلك لا يغفل عن ذكر السببية والمسببية لهذا العالم ، ويضع الوقائع والظواهر تحت سيطرة هذا النظام .

من ذلك الآية التي تقول :

(١) سورة الأنبياء - آية : ٢٢ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وهو بهذا يريد أن يقول إنه مع إن كل المصاير بيد
الله ، فإن الله يحْمِلُ البشر مصايرهم بسبب اختيارهم
وتصميمهم وعملهم ، ولا يقوم بعمل جزافاً ، بل حتى
المصاير لها نظام ، ولن يغير الله مصير مجتمع على عواهنه
وبغير بديل ، إلا إذا غير المجتمع ما به ، كأن يغير نظامه
الأخلاقي أو الاجتماعي

والقرآن من ناحية أخرى يحث المسلمين على النظر في
أحوال الأقوام السالفة ومصايرها ، يستخلصون منها
الدروس والعبر . من البديهي إنه لو كانت مصاير الأقوام
والملل وانظمتها قد سارت خبط عشواء ، ومصادفة . أو لو
كانت تلك المصاير مفروضة من فوق ، لما كان ثمة داع
لدرس أو عبرة . فبهذا التوكيد يريد القرآن أن يشير إلى
أن مصاير الأقوام تتحكم بها أنظمة واحدة ، أي لو
تشابهت ظروف مجتمع ما مع مجتمع آخر لتشابه
مصيرهما .

وقد جاء في آية أخرى :

(١) سورة الرعد - آية : ١١ .

﴿فَكَأَيُّ مَن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِثْرٍ مُّعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا﴾^(١) .

نجد في كل هذا ان قبول النظم بدلالة الالتزام يؤيد
النظام المبني على العلة والمعلول . والقبول بحجة العلة
والمعلول ، قبول بسندية العقل .

٣ - فلسفة الأحكام :

من الدلائل الأخرى على القبول بحجة العقل في نظر
القرآن ، هو القول بوجود فلسفة للذاتيات والأحكام . أي
إن العلة في وضع الدستور هي المصلحة . يقول علماء
الأصول ان المصالح والمفاسد تتدرج في سلسلة علل
الأحكام . فمثلاً ، يقول القرآن : أقيموا الصلاة .

ثم يذكر في مكان آخر فلسفة هذا الأمر :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٢) .

فيشرح الأثر الروحي للصلاة ، وكيف أنها ترتفع

(١) سورة الحج - آية : ٤٥ و ٤٦ .

(٢) سورة العنكبوت - آية : ٤٥ .

بالإنسان عن الفحشاء ، فيبتعد عن المفاصد والموبقات . أو أنه يذكر الصوم ، ويأمر الناس به ، ثم يقول :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(١) .

وهكذا الأمر فيما يتعلق بأحكام أخرى ، كالزكاة والجهاد ، فقد بين القرآن في جميع الموارد مردوداتها الفردية والاجتماعية . وعليه فإن القرآن يمنح هذه الأحكام جانبها الدنيوي ، على الرغم من كونها سماوية ومن الأعلى ، ويطلب من الإنسان أن يتأملها ، ويتفكر فيها ، لكي يستبين له كنه الأمور ، ولئلا يحسبها مجرد سلسلة من الرموز أسمى من فكر البشر .

٤ - مكافحة شطحات العقل :

ثمة دليل آخر ، أقوى مما سبق ، على اصالة العقل في نظر القرآن ، وهو مكافحة القرآن لشطحات العقل . ولكي نوضح هذا الأمر لا بد لنا من ايراد مقدمة قصيرة .

لا شك ان فكر الانسان يقع في الخطأ في كثير من الأحيان ، وهذا أمر معروف وشائع ، ولكنه ليس مقصوراً

(١) سورة البقرة - آية : ١٨٣ .

على العقل ، فالحواس والمشاعر تخطيء أيضاً ، وقد أحصوا
لحاسة البصر عشرات الأنواع من الأخطاء . ففيها يتعلق
بالعقل ، كثيراً ما يتفق أن يستدل الانسان على أمر ،
ويتوصل الى نتيجة ، ومن ثم يتضح ان استدلاله كان خطأ
من أساسه . وهنا يطرح هذا السؤال نفسه : أيجب علينا
أن نلغي عمل العقل بسبب خطئه هذا ، أم ينبغي أن
نوجد وسائل وأسباباً تحول دون العقل وارتكاب الخطأ ؟ في
الرد على هذا السؤال يقول السفسطائيون إن الاعتماد على
العقل غير جائز ، بل إن الاستدلال لغو لا طائل وراءه .
ويرد الفلاسفة عليهم ردوداً مفجعة ، قائلين ، مثلاً ، إن
الحواس تقع ايضاً في الخطأ كالعقل ، غير إن أحداً لم
يحكم بتعطيل الحواس وبعدم استعمالها . ولما لم يكن
بالامكان الاستغناء عن العقل اضطر المفكرون إلى
الحيلة دون وقوعه في الخطأ .

وفي غضون بحثهم في هذا الموضوع لاحظوا أن كل
استدلال يتكون من قسمين : المادة ، والصورة ، كما هي
الحال عند تشييد عمارة ، إذ نكون بحاجة إلى السمنت
والحديد والجص الخ . . (المادة) وإلى هيكل البناء وشكله
(الصورة) . ولكي تبني العمارة على خير ما يكون ، علينا
أن نهيء أفضل المواد ، وأجمل خريطة مكتملة لا نقص
فيها . كذلك الأمر في الاستدلال ، فلكي يكون صحيحاً

لا بد أن تكون مادته وصورته صحيحتين . وللتوصل الى صورة صحيحة للاستدلال ، ظهر منطق ارسطو ، أو المنطق الصوري . وكانت وظيفة المنطق الصوري هذا أن يبين صحة صورة الاستدلال ، أو عدم صحتها ، فيعين العقل لكيلا يخطئ في صورة الاستدلال^(١) .

إن القضية الرئيسية في ضمان صحة الاستدلال هي إن المنطق الصوري وحده لا يكفي لأثبات صحة الاستدلال . فهذا المنطق إنما يضمن جانباً واحداً ، ولكي نطمئن إلى صحة مادة الاستدلال لا بد من اللجوء إلى

(١) من جملة الأخطاء التي ظهرت منذ عدة قرون في دنيا العلم وكانت سبباً في كثير من سوء الفهم ، هو اعتقاد بعضهم بأن وظيفة المنطق الأرسطي هي الحكم على صحة مادة الاستدلال أو عدم صحته ايضاً . ولما لم يكن هذا من وظائف المنطق الأرسطي . فقد أفتوا بعدم صلاحية هذا المنطق إطلاقاً . وإنه لما يؤسف له ان هذا الخطأ ما يزال يتكرر في زماننا هذا ، وهو أمر يدل على ان المفتين لم يعرفوا منطق أرسطو ولم يفهموه . لو عدنا الى مثالنا السابق عن العمارة ، لنا أن نقول ان مثل وظيفة منطق ارسطو في تعيين صحة الاستدلال ، كمثل الشاقول في تعيين استقامة الجدار . إن الشيء الوحيد الذي يكشفه لنا الشاقول هو استقامة الجدار ، أو اعوجاجه . إن منطق أرسطو ، الذي اكتمل على يد علماء آخرين وازداد غنى ، لا يصدر حكمه إلا على صورة الاستدلال ، لا على مادته .

منطق المادة أيضاً ، أي إننا نحتاج الى معيار نقيس به المادة الفكرية كذلك .

لقد سعى علماء من أمثال « بيكن » و « ديكارت » لوضع منطق لمادة الاستدلال ، مثلما وضع أرسطو منطقته لصورة الاستدلال . ولقد نجحوا في ذلك الى حد ما ، ولكنهم لم يبلغوا به الكمال الذي اتصف به منطق أرسطو وإن استطاع الانسان أن يستعين به لدرء أخطاء الاستدلال . ولكن الذي قد يثير عجبكم هو أن القرآن قد عرض بهذا الخصوص أموراً لها على مقترحات أمثال ديكارت فضل التقدم وتقدم الفضل .

منشأ الخطأ في نظر القرآن :

من جملة مناشيء الخطأ التي ذكرها القرآن هي إن الانسان يأخذ الشك مأخذ اليقين^(١) . إذا تقيّد الانسان دائماً باليقين ولم يقبل بالظن ، فلن يقع في الخطأ^(٢) . وهذا

(١) وهذه هي القاعدة الأولى عند ديكارت . إذ يقول إنه لا يصدق شيئاً إلا بعد التأكد ، فإن وجد فيه ١٪ من احتمال الخطأ ، نبذه ولم يأخذ به . وهذا هو معنى اليقين .

(٢) لا بد ان نشير هنا إلى أنه في حالات الظن والشك ، حيث لا يمكن بلوغ اليقين ، يجب أن نأخذ تلك الحالات بنظر =

ما يؤكده القرآن كثيراً ، حتى إنه يصرح بأن أكبر مزالق الفكر البشري هو اتباعه الظن .

وفي مكان آخر يخاطب النبي قائلاً :

﴿ إِن تَطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(١)
وفي آية أخرى :

﴿ وَلَا تَقْفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾^(٢) .

هذه تذكرة تصدر من القرآن لأول مرة في تاريخ البشر ، تنهي الانسان عن ارتكاب مثل هذا الخطأ .

المنشأ الثاني لحصول الخطأ في مادة الاستدلال ، وبخاصة في الأمور الاجتماعية ، هو التقليد . فبعض الناس يثقون بصحة الأمر ما دام المجتمع يثق بصحته . أي إن الأمر المقبول عند المجتمع ، أو إن الأسلاف الأقدمين قد ارتضوه ، يكون مقبولاً عند الجيل الحاضر ايضاً^(٣) .

= الاعتبار . أي أن نقبل بالظن على أنه ظن ، والاحتمال على أنه احتمال ، لا أن نأخذ الظن والاحتمال على انهما يقين ، إذ إن هذا يقود إلى الخطأ .

(١) سورة الأنعام - آية : ١١٦ .

(٢) سورة الاسراء - آية : ٣٦ .

(٣) لقد ورد هذا الموضوع في إحدى محاضرات « بيكن » حيث =

أما القرآن فيقول : عليكم أن تزنوا كل أمر بميزان العقل . لا أن تثقوا بكل ما كان أجدادكم يفعلون ، ولا أن تنبذوه كلياً لهذا السبب . ثمة مسائل كثيرة طرحت في الماضي ، وكانت خطأ في الوقت نفسه ، ولكن الناس تقبلوها . وثمة مسائل أخرى كانت صحيحة في زمانها ، ولكن الناس رفضوها من باب الجهل . لا بد من أخذ رأي العقل في قبول الأمور أو رفضها ، لا أن نقلد الآخرين فيها تقليداً أعمى . والقرآن يضع اتباع الآباء والأجداد ، في معظم الأحوال ، في تعارض مع العقل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

يؤكد القرآن إن قدم الفكرة لا يكون دليلاً على صحتها أو خطأها . إن لتقدم الزمن أثراً في الأمور المادية ، ولكن حقائق الوجود لا يمكن أن يصيبها البلى مهما تقدم عليها الزمان . فحقيقة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾

= يطلق على هذا النوع من التقليد الأعمى اسم « عبادة الصنم الاجتماعي » ضمن الأصنام الأخرى التي يعبدتها الناس (١) سورة البقرة - آية : ١٧٠ .

حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿ تظل صادقة ما دامت الدنيا قائمة . يقول القرآن إنه تجب مواجهة الأمور بسلاح العقل والفكر . فلا ينبغي نبذ عقيدة صحيحة لمجرد كون بعضهم يلصقها بالناس ، ولا أن نتقبل أخرى لمجرد كونها تقترب باسم هذا أو ذاك من الشخصيات المعروفة . بل يلزم القيام بالدرس والتحقيق في كل المسائل (١) .

من العوامل المؤثرة في حصول الخطأ والمذكورة في القرآن هو اتباع هوى النفس ، وميولها ، أغراضها المريضة . وفي ذلك يقول مولوي ما مضمونه : إذا ما برزت الأغراض حجب الفن ومد مئة ستار بين القلب والعين . فما من انسان استطاع ان يكون سليم التفكير إلا إذا ابتعد عن شر التغرض والتحيز . أي إن العقل يستطيع أن يعمل في محيط يخلو من أهواء النفس .

هنالك بهذه المناسبة ، حكاية تروى عن العلامة الحلي جديرة ان نضرب بها مثلاً هنا . سئل العلامة الحلي مرة

(١) إن مسألة تقليد الاسلاف ، والكبار ، والبدع المعاصرة ، والصيغة الاجتماعية ، التي نهى القرآن عنها بشدة يجب ألا تختلط بمسألة تقليد المجتهد الأعلام والأعدل ، المذكورة في الفقه ، إذ هي أمر واجب ومبني على الاستفادة من العلم والتخصص .

عن مسألة فقهية ، وهي أنه إذا مات حيوان في بئر وبقيت الميتة النجسة في البئر ، فكيف يمكن الاستفادة من ماء البئر ؟ وقد حدث من باب المصادفة والاتفاق أن وقع حيوان ميت في بئر دار العلامة الحلي نفسه . الأمر الذي اضطر معه إلى أن يستنبط لنفسه حكماً شرعياً بهذا الشأن . لم يكن امامه غير طريقين : فإما أن يعمي البئر نهائياً ، ويستفيد من بئر أخرى ، أو أن يستخرج مقداراً معيناً من ماء البئر ، ومن ثم يستعمل البئر دون وازع . ولكنه رأى إنه لا يستطيع أن يحكم في هذه المسألة دون أن يلتفت الى مصلحته الشخصية . فكان أن أمر بدفن البئر أولاً . ومن ثم راح يفكر براحة بال ودون وسوسة النفس في استنباط الحكم .

وفي القرآن اشارات كثيرة إلى اتباع هوى النفس ، منها :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ (١) .

(١) سورة النجم - آية : ٢٣ .

القلب في نظر القرآن

لعله لا حاجة بنا إلى أن نقول ان المقصود بالقلب في المصطلح الأدبي والديني ليس ذاك العضو العضلي الذي يقع في الطرف الأيسر من الجسم ويضخ الدم كالمضخة في العروق . ففي قول القرآن : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (١) .

أو ما جاء في هذا التعبير الأدبي اللطيف لحافظ :

« هلع قلبي وإني أيها الدرويش غافل
فماذا جرى يا ترى لهذا الصياد الحائر » (٢)

يتضح إن المقصود من القلب شيء سام ورفيع ،
يختلف عن عضو الجسم هذا كل الاختلاف . وإن أصابه

(١) سورة ق - آية : ٣٧ .

(٢) دَلَم رَمَيْدَهُ شُدُّ غَافِلَم مِّنْ دَرَوِش

که این شیکاری سَرکَشْتِه راجه اَمدِش

المرض أيضاً ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ (١) .

إلا أن معالجة هذه الأمراض ليست من اختصاص أطباء القلب . وإذا كان ثمة طبيب يعالجها ، فذاك هو الطبيب المختص بالأمراض الروحية .

تعريف القلب :

إذن ما المقصود بالقلب ؟ علينا أن نبحث عن جواب هذا السؤال في حقيقة وجود الانسان . فعلى الرغم من إن الانسان كائن فرد واحد . فإن له مئات الأبعاد ، بل آلافها . فالـ (أنا) إنسان يتألف من العديد من الأفكار والآمال . ومن الخوف والرجاء والحب ، الخ . . . وكل هذه الأفكار أشبه ما تكون بالأنهر والنهيرات التي تلتقي في مركز واحد . وهذا المركز نفسه بحر عميق ، لم يدع أحد من البشر بعد أنه قد سبر أعماقه وعرف كنهه . على الرغم من أن الفلاسفة ، والروحانيين ، وعلماء النفس ، قد وصل كل منهم الى كشف بعض أسرارهِ . ولكن البظاهر ان الروحانيين ، كانوا أكثر توفيقاً من غيرهم . فالذي يسميه القرآن بالقلب هو في الحقيقة ذلك البحر ، وإن ما

(١) سورة البقرة - آية : ١٠ .

نسميه نحن بالروح إن هو إلا الأنهر ، والروافد ، التي تتصل بهذا البحر .

وبما أن القرآن يتحدث عن الوحي ، فإنه لا يذكر العقل ، بل يقتصر على التوجه إلى قلب الرسول . وهذا يعني ان القرآن لم يحصل للرسول عن طريق قوة العقل ، ولا بالاستدلال العقلي . وانما هو قلب الرسول الذي بلغ حالة لا نستطيع نحن تصورها . فأصبح فيها قادراً على إدراك تلك الحقائق السامية وشهودها . إن كيفية هذا الارتباط مبينة إلى حد ما في آيات من سورتي النجم والتكوير (١) .

(١) نقرأ في سورة النجم الآيات التالية :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ .

يذكر القرآن كل هذه الأمور لكي يبين إن مستوى هذه المسائل أرفع من مستوى العقل ، فالحديث هنا عن الرؤية والسمو .

ونقرأ في سورة التكوير : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٍ ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ، لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ، وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .

يقول أقبال اللاهوري في تعبير لطيف بهذا الخصوص : « إن =

وإذ يتحدث القرآن عن الوحي ، وإذ يخاطب القرآن القلب ، يكون بيانه أوسع من العقل ولكنه ليس ضده . ذلك لأن ما يعرضه القرآن أوسع في منظوره من منظور العقل والشعور ، بحيث لا يقدر العقل على إدراكه ويعجز عن نيله .

مميزات القلب :

القلب في نظر القرآن أداة من أدوات المعرفة ، إذ إن القرآن في معظم رسالته يخاطب القلب ، تلك الرسالة التي تستطيع أذن القلب وحدها سماعها وما من أذن أخرى قادرة على سماعها . لذلك فالقرآن كثيراً ما يعني بالحفاظ على هذه الأداة . ويتعهدا وتربيتها . هنالك الكثير من الآيات في القرآن نقرأ فيها عن تزكية النفس ، ونور القلب ، وصفته :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ^(١) .
﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(٢) .
﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ^(٣) .

= الرسول هو من تفيض عنه الحقائق إذ يمتليء بها ، فيعرض مما أوتي على الناس لكي يغير ويبدل ويرتب وينظم .

(١) سورة الشمس - آية : ٩ .

(٢) سورة المطففين - آية : ١٤ . (٣) سورة الأنفال - آية : ٢٩ .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾^(١) .

وبالنظر إلى أن السيئات تلقي الظلام على روح الانسان وتكدر صفاءه ، وتبعد عنه حبه للخير وسعيه اليه ، فقد تكرر القول في القرآن بهذا الشأن ، وقد جاء على لسان المؤمنين :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾^(٢) .

أو يقول في وصف المسيئين :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٣) .
﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾^(٤) .

أو إنه يتحدث عَنْ إِغْلَاقِ الْقُلُوبِ وَخَتْمِهَا وَقِسَاوَتِهَا :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾^(٥) .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾^(٦) .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٧) .

﴿ فَكَسَتْ قُلُوبَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(٨) .

(١) سورة العنكبوت - آية : ٢٩ . (٥) سورة البقرة - آية : ٧ .

(٢) سورة آل عمران - آية : ٨ . (٦) سورة الأنعام - آية : ٢٥ .

(٣) سورة المطففين - آية : ١٤ . (٧) سورة الأعراف - آية : ١٠١ .

(٤) سورة الصف - آية : ٥ . (٨) سورة الحديد - آية : ١٦ .

كل هذه الآيات تؤكد إن القرآن يرى الانسان في جو روحي ومعنوي عال . ويرى أيضاً إن على الانسان أن يحافظ على هذا الجو نظيفاً ، نقياً . ولما كان كل سعي يقوم به الفرد في الحفاظ على طهارته ، في مجتمع غير سليم ، يعود في الأغلب عقياً غير موفق ، فإن القرآن يحث الناس على بذل الجهد لتصفية مجتمعهم ، وتركيزية محيطهم . ويشير القرآن صراحة إلى أن ما تستثيره آياته من العشق ، والايان ، والرؤى ، والتطلعات السامية ، وتقبل النصيح ، وغير ذلك ، يتوقف كله على تجنب المجتمع الانساني والانسان نفسه الرذائل ، والدناءات ، وحب الذات والشهوات .

يؤخذ من تاريخ البشر أنه كلما ارادت القوى الحاكمة أن تبسط سيطرتها على مجتمع ما ، لاستغلاله ، سعت الى ذلك المجتمع فنشرت فيه الفساد ، فتيسر لافراده مجالات اشباع الشهوات ، وتحثهم على اتباع الملذات .

لقد ظهرت أمثلة هذا الاتجاه الشائن ، الفاجع ، ذي العبرة ، في اندلس الاسلام - الأندلس الذي كان يعتبر من منابع عصر النهضة ، وكان من اكثر دول اوربا تقدماً - فلكي ينتزع المسيحيون الأندلس من المسلمين ، أخذوا يفسدون روحية الشباب المسلم وأخلاقه ، فلم يألوا جهداً

في توفير أسباب اللهو واللعب ، والانغماس في الملذات للمسلمين ، ولقد نجحوا في هذا إلى درجة أن القادة ، وكبار رجالات الدولة ، وقعوا في حبالهم ، فلوّثوا نفوسهم ، وبذلك تمكنوا من أن ينتزعوا ما كان في المسلم من عزم ، واردة ، وقوة ، وشجاعة ، وإيمان ، وطهارة روح ، فأحالوهم الى أفراد جبناء ، ضعفاء ، شهوانيين ، يشربون الخمر ، ويرتكبون الموبقات . ومما لا ريب فيه هو أن قهر شعب هذا شأنه ليس بالأمر العسير .

لقد انتقم المسيحيون من حكومة المسلمين ، ذات القرون العديدة إنتقاماً ينجل التاريخ أن يذكره ، ويشمئز من ترديد تلك الجنايات الشائنة ، لقد كانوا هم أولئك المسيحيون الذين كان المسيح (عليه السلام) قد علمهم أن يديروا خدhem الأيسر لمن يصفعهم على خدhem الأيمن . لقد اجروا في الاندلس بحاراً من دماء المسلمين ، فييضوا بذلك وجه جنكيز (المغولي) . وبالطبع كان السبب في هزيمة المسلمين ضعف همتهم ، وفساد روحهم ، جزاء اهمالهم تعاليم القرآن ودستوره .

وفي زماننا هذا ، حينما وضع المستعمرون قدماً في بلادنا ، كان اعتمادهم على الحالة نفسها التي حذر منها القرآن . أي إنهم سعوا الى افساد القلوب . وإذا فسدت

القلوب ، انقلب العقل الى قيد أكبر ، يغل أيدي الناس وأقدامهم . ولهذا نجد إن المستعمرين ، والمستغلين ، لا يخشون إنشاء المدارس والجامعات ، بل يؤسسونها بأنفسهم ، ولكنهم يسعون ، في الوقت نفسه ، وبكل قواهم ، الى افساد روح الطالب وقلبه . انهم يدركون حق الادراك ان القلب المريض لن يكون قادراً على المقاومة ، بل يستكين الى كل انحطاط ، واستغلال ، واستثمار .

لذلك يولي القرآن أهمية كبرى لطهارة روح المجتمع ، إذ يقول : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (١) .

فيطلب من الناس ان يتوجهوا اولاً الى عمل الخير ، وتجنب الأثم ، ثم ان يكون توجههم هذا جماعياً ثانياً .

فيما يتعلق بالقلب ، سأورد لكم بعض اقوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) لتكون حسن الختام لهذا الموضوع . جاء في كتب السير ، ان رجلاً قدم على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال إن لديه ما يسأل عنه . فقال له الرسول : أتريد أن تسمع الجواب أم تريد ان تسأل ؟ فقال أريد الجواب .

(١) سورة المائدة - آية : ٢ .

فقال الرسول : لقد جئت تسأل عن البر والخير ، وعن الأثم والشر . فقال الرجل : هو ذاك . فضم الرسول ثلاثة أصابع وضرب بها صدر الرجل بلطف وقال : استفت قلبك ، ثم قال : لقد صنع قلب المرء بحيث يكون متصلاً بالخير ، فهو يهدأ بالخير ، ويضطرب بالشر . مثل ذلك مثل الجسم ، إن دخله ما لا يتجانس معه ، اختل نظامه وتوازن أعضائه . كذلك روح الانسان ، يختل بالأعمال القبيحة . إن ما يسمى عندنا بعذاب الضمير ، ينشأ من عدم انسجام الروح مع الآثام والأعمال الشائنة .

﴿ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ افْتَاكَ الْمَفْتُونُ ﴾ (١) .

هنا يضع الرسول أصبعه على أمر مهم ، وهو أنه إذا كان الانسان باحثاً عن الحقيقة بتجرد ، وخلوص نية ، فإن قلبه لن يخونه أبداً ، وإنما يهديه الى الطريق الصحيح . في الحقيقة إن الانسان ما دام باحثاً عن الحق والحقيقة ويتقدم على طريق الحق ، فإن كل ما يصادفه هو الحق والحقيقة . إلا أن ثمة نقطة ظريفة تبعث على سوء الفهم ، وهي أنه إذا ضل الانسان طريقه ، فالسبب هو أنه كان منذ البداية متوجهاً وجهة خاصة ، بعيدة عن

(١) اوضحت في كتاب « جولة في نهج البلاغة » إن الاسلام يضع فرقاً بين أن يكون للمرء علاقة بالدنيا وأن يكون متعلقاً بها .

البحث عن الحقيقة بخلوص النية .

لقد أجاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
الشخص الذي سألته عن « البر » قائلاً له إنك إن كنت
حقاً تبحث عنه ، فاعلم انك إن وجدت ضميرك قد
استراح إلى أمر ، فذاك هو البر ، ولكنك إن رغبت في
شيء لم يرتح له قلبك ، فاعلم إن ذاك هو الإثم .

ويسألون النبي عن معنى الايمان فيقول : إن من إذا
ارتكب القبيح قلق وندم ، وإذا عمل صالحاً سر وفرح ،
فهذا له نصيبه من الايمان .

ينقل عن الامام الصادق (عليه السلام) إنه قال :
إذا تحرر المرء من تعلقه بالدنيا احس بحلاوة حب الله في
قلبه ، فيرى الأرض قد ضاقت به ، ويسعى بكل وجوده
للتحرر من عالم المادة ، والخروج منه . وهذا ما أكد أولياء
الله والمنقطعون اليه صحته بطريقة معيشتهم . لقد جاء في
سيرة حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنه زار
مرة بعد صلاة الصبح أصحاب الصفة ، وكانوا جماعة من
الفقراء ، لا يملكون من متاع الدنيا شيئاً ، يعيشون بجوار
مسجد النبي . فوقع نظر الرسول على واحد منهم اسمه
زيد ، أو حارث بن زيد ، ورآه واهناً نحيفاً ، قد غرقت
عيناه في محجريهما ، فسأله :

كيف اصبحت ؟ فقال الرجل : اصبحت وحالي حال
أهل اليقين .

فقال النبي : هذا زعم كبير . فما علامة ذلك .

فقال الرجل : علامة يقيني هي إن النوم قد جفا عيني
ليلاً ، وأنا بالنهار في صوم دائم ، أقضي الليل حتى
الصباح مضطرب الجوانح في العبادة .

فقال النبي : هذا لا يكفي ، زدني .

فأخذ الرجل يسرد العلامات الأخرى ، فقال : يا
رسول الله ، انا الانا في حالة وكأني أرى أهل الجنة وأهل
النار وأسمع أصواتهم ، وإن اجزتي أخبرتك بباطن
أصحابك فرداً فرداً .

فرد النبي قائلاً : صمتاً ، صمتاً ! لا تزدد . بل قل لي
ما ترجو .

فقال : أرجو أن أجاهد في سبيل الله .

يقول القرآن ان صقل القلب يوصل الانسان الى مقام
بحيث إنه إذا رفعت دونه الحجب - كما قال أمير المؤمنين
(عليه السلام) - لما زادته يقيناً .

إن ما يرمي اليه القرآن بتعليماته هو تربية الانسان ،
مستفيداً من سلاح العلم والعقل ، ومن سلاح القلب

أيضاً . وهو يستعملها بأفضل أسلوب ، وأرفع طريقة ، في
سبيل الحق ، ذلك الإنسان الذي يجسده في أمثلة حية
أئمتنا وتلامذتهم الصالحون حقاً .

* * *

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم^(١)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) .

عند البدء بكتابة القرآن ، كانت كل سورة تفتتح بسم
الله الرحمن الرحيم - باستثناء سورة البراءة - أي ان كل
سورة تبدأ باسم الله . ولكن حصل خلاف كبير منذ زمن
طويل بين الشيعة والسنة حول ما إذا كانت البسملة جزءاً
من كل سورة أم لا . أهل التسنن يرون إنها ليست جزءاً
من أية سورة ، وإنما يعتبرون البسملة في بداية كل سورة
مثل البدء بها عند الشروع في أي عمل ، مع انها ليست

جزءاً من العمل . وهم قد يقرأون سور القرآن بغير أن يقرأوا البسملة . وفي الصلاة عند تلاوة سورة الفاتحة أو أية سورة أخرى ، لا يقرأون البسملة معها .

غير إن الشيعة باتباعهم الأئمة الأطهار (عليهم السلام) يخالفون أهل السنة في ذلك ، حتى نقل عن الأئمة قولهم : « قتل الله الذين يحذفون أكبر آية من آيات القرآن » .

فلو حذفنا هذه الآية من بدايات السور كلها ، لما بقيت هذه الآية في القرآن ، سوى في سورة النمل حيث جاءت بصيغة مقول القول نقلاً عن ملكة سبأ يوم أن جاءتها رسالة سليمان ، فقالت : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

إن الشيعة ، على كل حال ، يرون إن هذه الآية جزء من القرآن ، وليست منفصلة عنه كأنفصالها عن أي عمل إذا ما قرأت عند الشروع فيه ، أي إنها ليست إضافة تضاف إلى السور القرآنية^(١) .

(١) يتفق أهل التشيع جميعاً بهذا الشأن ، غير أن أهل التسنن يختلفون فيما بينهم ، فبعض يؤيد الشيعة فيما ذهبوا إليه ، وبعض يخالفهم أشد المخالفة ، وبعض قائل بالتفصيل . =

.....
= فأما الذين يؤيدون البسملة جزءاً من السورة ، فمنهم : ابن عباس ، وابن مبارك ، وعاصم ، والكسائي ، وابن عمر ، وابن زبير ، وأبو هريرة ، وعطاء ، وطاووس وكذلك الامام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير ، وجلال الدين السيوطي ، وفي الاتقان ، حيث يقولون بتواتر الروايات بهذا الشأن .

وبعض آخر ، مثل مالك وأبو عمر ويعقوب ، يقول انها جزءاً من السورة ، بل وضعت في أوائل السور تيمناً ، وبمثابة فواصل بينها .

وهناك بعض آخر من اتباع الشافعي ، وحزمة ، يقولون بالتفصيل ، أي ان البسملة جزء من سورة الفاتحة فقط وليست في السورة الاخرى ويرى بعض المؤرخين أن أحمد بن حنبل يؤيد القول الأول (تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦) ، ويقول غيرهم انه يؤيد التفصيل (تفسير الألوسي ج ١ ص ٣٩) .

أما من حيث قراءة البسملة في الصلاة من وجهة نظر الفقهاء عموماً ، فهي هكذا :

- ١ - الحنفية قالوا : يسمى الإمام والمنفرد سرّاً .
 - ٢ - المالكية قالوا بكره الأتيان بالتسمية في الصلاة المفروضة .
 - ٣ - الشافعية قالوا : البسملة آية من الفاتحة فالأتيان بها فرض .
 - ٤ - الحنابلة قالوا التسمية سنة وليست آية من الفاتحة . « نقل بإيجاز من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة » .
- =

ابتداء الأعمال بسم الله :

إنكم تلاحظون إن الآية التي نحن بصددتها تتألف من جارٍ ومجرور ، وليست جملة تامة ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف ، وقد اختلفت آراء المفسرين في هذا المحذوف وما هو . ومن ذلك قولهم إن المحذوف : « أستعين » أو « أبتديء » أو « أسم » وهو الاحتمال الأقوى .

تكون الدوافع والأهداف عند التسمية متنوعة . فقد يرى أحدهم أن يطلق اسماً فردياً على مؤسسة ما ، وهو يرمي بذلك إلى الحصول على فائدة مادية من ذلك الاسم . أو حسبما جرت العادة أن يسموا الوليد باسم شخص كان ذا حظوة عندهم في الماضي ، مستهدفين تجديد حياة ذلك الشخص في المولود الجديد لكي تبقى ذكراه حية .

= « لكن الشيعة ، استناداً إلى روايات من أهل البيت ، وتمسكاً بسيرة المسلمين ، فقد أفتوا بأنها جزء من السور ، وأوجبوا الاتيان بها . ويمكن الرجوع الى هذه الروايات في « فروع الكافي » باب قراءة القرآن ص ٨٦ ، وفي « الاستبصار » باب الجهر بالبسملة ج ١ ص ٣١١ ، وفي « التهذيب » باب كيفية الصلاة وصفتها ص ١٥٢ ، وفي « وسائل الشيعة » باب ان البسملة من الفاتحة ج ١ ص ٣٥٢ .

ولكن ترى ما هو الدافع وراء الطلب من البشر أن يبدأ كل أعماله بسم الله ؟ الدافع هو أن تتسم أعماله بالقدسية والعبادة ، وأن تنال أعماله البركة .

إن الانسان الذي يضم في قلبه إحساساً فطرياً بالله ، ويراه وجوداً قدسياً ومنبعاً للخير ، يعني بوضعه اسم الله على أعماله إنه يريد أن يضيفي القدسية على عمله في ظل قدسية الله وسموه وكرمه .

وبما أن الابتداء باسم شخص يعني اعتباره قدوساً ، منزهاً عن جميع النقائص ومنبعاً للكمال ، وإنه يريد أن يتسب عمله الى ذلك الشخص ابتغاء بركته ، لذلك لا يمكن الابتداء بأي اسم كان ، حتى باسم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا هو السر في الأمر بالتسبيح باسم الله الوارد في سورة « الأعلى » .

يتكرر في القرآن ورود تعابير مثل : ﴿ يُسَبِّحُ اللَّهَ ﴾ أو ﴿ سَبَّحَ اللَّهَ ﴾ أو ﴿ سُبْحَانَ اللَّهَ ﴾ ، ولكن التسبيح باسم الله لم يرد في القرآن إلا في سورة « الأعلى » ، حيث يقول : ﴿ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ .

أرى ان خير نظرية بهذا الشأن هي نظرية صاحب « الميزان » ، إذ يقول إن معنى تسبيح اسم الله هو إنه

عندما يكون المقام مقام تقديس وتكريم ، فينبغي ألا يردف اسم مخلوق باسم الله ، أو إذا كان لا بد من ذكر اسم الله ، فلا يجوز ذكر اسم كائن آخر ، أي إنه لا يجوز ذكر اسم أحد مع ذكر اسم الله ، ولا يجوز ذكر اسم أحد بمكان ذكر اسم الله ، فكلا الحالتين شرك .

لقد شكّ مؤخراً بين الجماعات التي تدّعي مكافحة الشرك ، أمر هو نفسه من مظاهر الشرك . فبدلاً من أن يبدؤا أعمالهم باسم الله ، يقولون : بسم الشعب ! .

فإذا كان وضع اسم الرسول بمكان اسم الله يعد شركاً ، فإن الابتداء باسم الشعب يعد أيضاً بمثابة اصطناع خليفة لله . إنها شريعة القرآن التي تطالبنا بالتسبيح باسم الله دائماً ، والشروع في أعمال البشر باسم الله ، لا بإسم آخر ، لكي تتسم تلك الأعمال بالقداسة وبالبركة .

الله :

الله اسم من أسماء الخالق . إن التسمية التي توضع للأفراد قد تكون علامة وقد تكون صفة . ففي الحالة الأولى لا تكون معاني الأسماء هي المقصودة ، على الرغم من أن لتلك الأسماء معانيها الخاصة . بل يكون المقصود هو التشخيص والتعرف ، لذلك لا يزيد حكمها على حكم

العلامات . وقد يتفق ألا يطابق الاسم المسمى ، بل وقد يكون ضده ، كأن تسمى زنجياً باسم كافور ، مثلاً .

في القسم الثاني من التسمية يحكي الاسم جانباً من جوانب المسمى ، فيبين صفة من صفاته .

ليس لله سبحانه وتعالى اسم من أسماء العلامات ، فكل اسمائه تبين حقيقة من حقائق ذاته القدسية .

نجد في القرآن ما يقرب من مئة اسم من أسماء الله ، وهي في الحقيقة مئة صفة من صفاته ، وقد جاء بعض منها في هذه السورة : الله - الرحمن - الرحيم ، مالك يوم الدين . ولكن أياً منها لا يتصف بالشمول كاسمه هذا ، لأن كل واحد منها يدل على واحد من كمالاته ، غير أن هذا الاسم يبين جميع صفاته الكمالية ذاتها .

كلمة « الله » كانت في الأصل « الآله » ثم حذفت الهمزة بالاستعمال .

أما من حيث أصل الكلمة فثمة آراء متعددة . منهم من يقول إنها من « آله » ويقول آخرون إنها من « وَلَئِه » وإن « آله » فعال بمعنى المفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب .

فاذا كانت مشتقة من « آله » فتكون بمعنى « عَبْد » ، فتعني كلمة « الله » الذات الكاملة الحقيقة بالعبادة وذلك

لأن أي كائن هو نفسه مخلوق وفيه ما فيه من نقص ، فلا يكون جديراً بالعبادة فاذن ، كما قلنا ، الإله يعني تلك الذات التي استجمعت كل صفات الكمال ، وتنزهت عن كل عيب ، فحققت علينا عبادتها .

أما إذا كانت مشتقة من « وَلَهُ » بمعنى تحيّر ، وواله بمعنى الحيران أو العاشق المفتون ، فإن كلمة « الله » تكون بمعنى الذي يحار العقل في ذاته المقدسة ، أو أنه يتوجه إليه توجه العاشق الواله ويحتمي به .

سيبويه ، العالم النحوي العربي المعروف الذي عاش في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري ، والذي يعتبر نابغة زمانه ، ويعد كتابه المعروف بـ « الكتاب » من الكتب الفريدة في بابها ، مثل المنطق لأرسطو ، والمجسطي لبطلميوس في علم الهيئة (علم الفلك) ، ويعتبر رأيه في اللغة والأدب سنداً موثقاً به ، يرى إن أصل كلمة « الله » من الحيرة في قبالة عظمة الخالق ، أو من الوله والعشق .

وقد جاء ذلك في مثنويات مولوي الذي يقول في هذين البيتين :

« في معنى الله قال سيبويه
يولّهون في الحوائج هم لديه

قال : الهنا في حوائجنا اليك
والتمسناها وجدناها لديك «
يشير مولوي هنا إلى حالات من الحاجة تصيب
الانسان فيحار في أمره ولا يجد ملجأ يلجأ اليه ويحتمي به
سوى « الله » ومن ذلك أيضاً قوله^(١) :

« مئات الألوف من العقلاء عند الألم
يثنون جميعاً امام الديان الفرد
بل كل الأسماك في الأمواج
وكل الطيور في عليائها
بل كل الأمواج اللعوب
مشتاقة اليه جهاراً وعياناً »

ليس الانسان وحده هو الذي يتوجه وقت الحاجة الى
الله ، بل أسماك البحار بين الأمواج ، والطيور في عنان

(١) صد هزاران عاقل اندر وقت درد
جمله نالان پيش آن ديان فرد
بلکه جمله ماهيان در موجهها
جمله پرندگان در أوجهها
بلکه جمله موجهها بازيکنان
ذوق وشوقش راعيان اندر عيان

مثنوی : طبع کلاله خاور ص ۳۴ الأبيات ۳۷)

السماء ، بل وحتى تلك الأمواج الميتة نفسها في اليم ، تثن
في حضرة الله ! .

وهناك احتمال قوي في أن تكون كلمتا « أَلَه »
و « وَلَه » لغة واحدة ، أي إن الكلمة كانت في البداية
« وله » ثم تطور استعمالها فصارت « أله » ثم دخل على
صورتها معنى العبادة . وعلى ذلك يكون معنى « الله »
هكذا :

تلك الذات التي تعشقه الموجودات كلها بوله ، بغير أن
تدري ، وهي الحقيقة التي تستحق العبادة .

ترجمة كلمة « الله » :

نستطيع أن نقول إننا في اللغة الفارسية ليست لدينا
كلمة يمكن أن تكون مرادفة لكلمة الله بحيث تقوم
مقامها ، فجميع ما عندنا لا يفي بايصال معنى الله ايضاً
كاملاً . إذ لو وضعنا كلمة « خُدا » مكان « الله » لقصرنا
عن ايصال المقصود ، لأن كلمة « خُدا » مخففة كلمة
« خُداي » وهذه تعطي المعنى الذي يطلق عليه الفلاسفة
اسم « واجب الوجود » ، أو لعلها أقرب إلى صفة « غني »
الواردة في القرآن منها إلى كلمة « الله » . وإذا استعملنا
كلمة « خُداوند » لكنا قاصرين ايضاً ، لأن هذه الكلمة

تعني « صاحب » (صاحب الشيء) مع إن الله « صاحب »
أيضاً ، ولكنه ليس مرادفاً له ، فكونه صاحباً يعتبر شأناً
من شؤونه .

الرحمن الرحيم :

هنا أيضاً ليس لدينا في الفارسية ما يمكن أن يقوم
مقام هاتين الكلمتين بحيث يكون ترجمة صادقة لهما . أما
قولهم « بَخْشَنْدِه مِهْرَبَان » فليس ترجمة صادقة ، لأن
« بَخْشَنْدِه » تعني « الجواد » ، و « مِهْرَبَان » ، تعني
« رؤوف » وكلاهما من صفات الله الواردة في القرآن .

الجواد « بَخْشَنْدِه » هو الذي عنده ما يعطيه إلى
الآخرين بغير عوض . ولكن « الرحمن » و « الرحيم »
كلاهما مشتقان من « الرحمة » ، وفيها معنى اضافي كالآتي :

عندما يكون المرء محتاجاً ومستحقاً ، يكون ، لفظياً ،
كمن يمد يده طلباً للصدقة ، فهو يستحق أن يوصل اليه
شيء ، وفي هذه الحالة يكون هذا الشيء هو الرحمة ، غير
أن رحمة الانسان لا تصل الى المستحق ، إلا إذا وقع تحت
تأثير المستحق ورق قلبه له ، ولكن الله منزّه عن هذه
الحالات .

إذن عندما نقول « الرحمن الرحيم » ، يتجسد في ذهننا معنيان : الأول هو حاجة البشر العظيمة ، وكل المخلوقات التي تمديدها جميعاً ، كل بطريقته ، نحو الغني بتضرع متوسلين . والثاني هو إنه يرسل اليهم رحمته الواسعة فيعطي سؤلهم ، ويقضي حاجتهم .

لذلك فقد رأى بعض المترجمين المتأخرين انه ما من كلمة تستطيع أن توصل معاني تلك الكلمات في الآية الشريفة : بسم الله الرحمن الرحيم ، فترجموها هكذا :
« به نام الله رحمن رحيم »

الفرق بين الرحمن والرحيم :

من اللازم أن نوضح بأن وزن « فَعْلان » في العربية يدل على الكثرة ، مثل عطشان ، اي العطش الكثير . والكلمات التي تأتي على وزن فاعيل تسمى « الصفة المشبهة » وتدل على نوع من الثبات والدوام .

فالرحمن ، التي هي على وزن « فَعْلان » تدل على الكثرة والسعة ، وتدل على أن رحمة الله منتشرة وتشمل كل شيء .

إن شيئية كل شيء أصلاً تساوي رحمة الله ، أي أن الكينونة ذاتها هي الرحمة عينها ، كما ورد في سورة

الأعراف ، الآية ٥٦ : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾
ونقرأ في دعاء كميل « ورحمتك التي وسعت كل شيء » .

هذا النوع من الرحمة ليس فيه استثناء ، فلا يعني أنه
يشمل الانسان ولا يشمل غير الانسان ، أو أنه يشمل
الانسان المؤمن فحسب ، كلا ، بل إن الكون بأكمله
تشملة رحمة الله ، أو أنه هو رحمة الله . أي إن ما هو
موجود في عالم الوجود هو رحمة الله .

إن الدرس الذي نستطيع أن نستخلصه من آية
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هو أن كل ما يصل من الله
الى العالم ليس الخير والشر ، بل ان ما يصل منه كله خير
ورحمة ، وهي رحمة تشمل الجماد والنبات والحيوان
والانسان ، لأن الوجود قد افتتح برحمة الله .

أما الرحيم ، على وزن فعيل ، فتدل على رحمة من
الله دائمة لا تنقطع . قلنا إن « الرحمن » تدل على رحمة الله
الواسعة التي تشمل كل الموجودات ، غير إن في هذا العالم
مجموعات من الموجودات التي تفتي ، و (الرحيم) تدل
على تلك الرحمة الخالدة التي لا تشمل إلا الذين وضعوا
أنفسهم في مهب هذه الرحمة بايمانهم وأعمالهم الصالحات .

وعلى ذلك ، فإن لله رحمة عامة ورحمة خاصة . فبرحمته
الغامة يضم جميع الكائنات ، ومنها الانسان ، ولكن

الانسان هو الكائن الوحيد المكلف وهو المسؤول عن نفسه ، فاذا أنجز ما بعهدته من تكاليف ووظائف ، شملته رحمة الله الخاصة . فالرحمن اشارة الى الرحمة الشاملة بغير تفريق بين مؤمن وكافر ، وحتى الانسان والجماد والنبات . والرحيم اشارة الى الرحمة الخاصة التي تقتصر على الانسان المطيع^(١) .

الحمد لله :

هنا أيضاً لا بد من القول بأننا لا نملك في الفارسية كلمة نترجم بها كلمة (الحمد) . هنالك في الواقع كلمتان يمكن أن يقاربا معنى « الحمد » ، ولها مرادفان بالفارسية يستفاد منهما في ترجمة « الحمد » . الأولى هي « المدح » ويرادفها بالفارسية كلمة « ستایش » والأخرى « الشكر » ويقابلها « سپاس » بالفارسية ، ولكن لا يمكن لأي منهما بمفردها أن توصل معنى كلمة « الحمد » .

كلمة « المدح » قريبة في المعنى من « الحمد » ، بل

(١) ورد في الروايات عن الفرق بين الرحمن والرحيم كما يلي : عن الصادق (عليه السلام) (في حديث) : « والله آله كل شيء الرحمن لجميع خلقه ، والرحيم بالمؤمنين خاصة » . (الكافي - توحيد الصدوق - تفسير العياشي) .

يرى بعضهم ان هناك احتمالاً قوياً أن تكون اللفظتان لكلمة واحدة . إذ إن في العربية الكثير من نظائرها ، مثل خلص ولخص ، وأيس ويئس ، حيث نرى إن حروفها واحدة وإن اختلفت مواضعها .

والمدح من المشاعر التي يختص بها الانسان . فالانسان هو وحده الذي يبلغ من الإدراك والاحساس بحيث انه إذا واجه الكمال والجلال والجمال والبهاء ، أثار فيه هذا الشعور رد فعل يحمله على المدح . هذا الأحساس لا وجود له في الحيوان ، فلا هو يدرك ذاك الكمال والجلال والعظمة ، ولا هو قادر على أن يمدح تلك الأوصاف .

قد يتدنى المدح في الانسان أحياناً فيظهر في صورة منحطة ، وهو ما يطلق عليه عندئذ اسم « المداهنة » . وهذه من الرذائل ، وهي تحدث عندما يمدح المرء أمراً لا حقيقة له . إنه لمن القبيح أن يستعمل الانسان تلك القدرة التي وهبها الله له كي يمدح الجمال والعظمة على حقيقتهما ، فيمدح بها ما لا يستحق المدح بالمرّة لمجرد الطمع . وما تلك القدرة السامية على تمجيد الكمال وتكريمه إلا لكي يشبعها الانسان ويرضيها ، لا أن يضعها في خدمة اللطمع ، ذلك النوع الخسيس من الأحساس . أما المدح الحقيقي فلا يخالطه شيء من الطمع ، انما هو أمر

فطري وطبيعي في الانسان عندما يصادف مظهراً من مظاهر الجمال ، فلو رأى ، مثلاً ، ورق القرآن الذي كتبه (بأيسنقر) قبل سنين لدهش من جماله ولما وسعه إلا أن يمدحه ويثني عليه . فلو سئل هذا الانسان : ما الذي حملك على المدح ، أيدفعون لك شيئاً لقاء ذلك ؟ ترى ماذا سيكون جوابه ؟ سيقول : وهل يلزم أن يدفع أحد شيئاً ؟ أنا إنسان ، والانسان اذا وقف امام الجمال والكمال والعظمة والجلال لا يسعه إلا أن يحني رأسه ، وأن يمدح ما يرى . هذا هو معنى كلمة « المدح » ، ولكن كلمة « الحمد » لا تعني المدح فقط .

في الانسان ثمة احساس آخر ، الاحساس بالطهارة ، وهذا ايضاً من خصائص الانسان ، و هو ما يسمى بالشكر . ويحصل هذا عندما ينال الانسان خيراً ، حيث تقضي انسانية الانسان أن يظهر امتنانه للذي اناله الخير . فلنفترض ان رجلاً في سيارته يريد العبور فيصافد سائق سيارة آخر له حق السبق بالمرور ، فاذا توقف هذا وسمح للأول بالمرور ، فان الآداب الانسانية ، وهي فطرية ، تقضي أن يشكر صاحب الحق على كرمه ، أو حتى أن يلوح له بيده أو برأسه . إن هذه الخصلة ، وإلى هذا الحد ، غير موجودة في الحيوان ، بل يختص بها الانسان . وما سؤال القرآن : ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾

إلا خطاب موجه الى فطرة الانسان السليمة ، والمجيب هو ضميره الطاهر ووجدانه .

لقد قيل ان من عرف نفسه فقد عرف ربه . وهذا أمر صادق وعظيم ، إذ إن معرفة الانسان نفسه توصله الى معرفة ربه . وان من طرق معرفة الانسان نفسه هو أن يعرف مشاعره الانسانية الخاصة ، ومنها هذا الاحساس بالشكر والامتنان ، والذي يهيمن عليه الضمير ، ولا علاقة له بالتربية والمحيط والعادات المحلية ، ولا يتعلق باقليم دون آخر . فالآداب والعادات يغيرها الزمان والمكان ، بل قد ينقلب الى ضده . فقد تجد في بلد ما إنهم يرفعون قبعاتهم ويعيدونها الى رؤوسهم تحية ، ولكنك قد لا تجد هذا سائراً في بلد آخر . ولكن لا يمكن ان يكون جزاء الاحسان إساءة في بلد معين ، ثم يقال ان هذا من عادات ذلك البلد وآدابه ! .

والحمد لا هو مدح خالص ولا هو شكر خالص : فما هو إذن ؟ يمكن القول اننا إذا مزجنا الاثنين كان الحمد . اي تلك الحالة التي تستوجب المدح لجلالها وعظمتها وحسنها وكمالها وبهائها ، وفي الوقت نفسه تستوجب الشكر أيضاً لما وصلنا منها من خير واحسان . ههنا يكون موضع استعمال (الحمد) .

الحمد يكون لله :

ليس من المستبعد ان يكون للحمد مفهوم آخر ، وهو مفهوم العبادة . وعلى ذلك يدخل في مفهوم الحمد عناصر ثلاثة في وقت واحد : المدح ، والشكر ، والعبادة . فالحمد ، بعبارة أخرى ، هو مدح الشاكر العابد . وقد جاء في الآية : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ فلعل هذا هو منشأ مفهوم العابد في كلمة « الحمد » .

يجمع المفسرون على أن معنى الآية هو أن « الحمد » كله لله ، فاذا لم تكن الكلمة تتضمن معنى الخضوع والتواضع ، بالإضافة الى معنى العبادة ، وأنها تعني الشكر فقط ، فلماذا يمتنع الانسان عن الشكر ازاء النعم التي وهبها الله له ؟ بل ان على الانسان ان يشكر حتى المخلوقات التي جعلها الله وسيلة لأبصال الخير الى الانسان ، حتى لقد قيل : « من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق » كالأب والأم ، والمعلم ، وكل أولئك الذين كان الانسان مشمولاً دائماً بخيرهم واحسانهم . ولا يقبل الاعتذار بأن على الانسان أن يشكر الخالق ، وليس عليه ذلك تجاه المخلوق ، فينساهم وينسى احسانهم . والمسألة ليست ان نعلم انه ليس مستقلاً بذاته ، وانه انما كان بعون الله أن أوصل الينا خيره ، فوجب الشكر لله قبل

ذلك .

يتضح من اختصاص الحمد بالله أن معناه ليس الشكر فقط ، بل المدح والعبادة ايضاً .

ولما كان الله هو وحده الجدير بالعبادة ، وبما أنه هو الرحمن الرحيم ، فاننا نمدحه ونشكره ونعبده .

الخلاصة هي ان « الحمد » من الأحاسيس الانسانية الباطنية الطاهرة . احساس يعجب بالجمال والجلال ، فيثني عليهما ويخضع لهما . لذلك فان سورة الفاتحة تستلزم معرفة الله . أي إذا لم يعرف الانسان ربه معرفة كاملة ، فلن يكون قادراً على قراءة سورة الفاتحة قراءة صحيحة واقعية ، فتكون مجرد لقلقة .

مثلاً ، إذا صادفت انساناً ذا روح عالية كبيرة وملكات وفضائل ، وإذا ألّمت بك حاجة وجدته يسرع الى نجدتك ورفع حاجتك بدون تحفظ أو تقاعس ، فيصل اليك خيره واحسانه ، تجد انك تكبره في نفسك وتجله ، وإذا ما ورد ذكره في مجلس تسرع ، كالبلبل الواله امام الورد ، بمدحه والثناء عليه بكل ما في قلبك من امتنان وعرفان بالجميل . إن ثناءك هذا ينبع من اعماق روحك ، وانك لتشعر باللذة والراحة إذ تفعل ذلك .

والانسان تصيبه حالة مماثلة في الصلاة . لقد سبق أن

قلنا مراراً اننا نعتقد ان العبادة لازمة لمعرفة الله ، واذا لم تكمل معرفة الله ، لم تبلغ العبادة مراقبي السمو .

هنا تجدر الاشارة الى ان هناك بعد « الحمد لله » أربع صفات هي : « رب العالمين - الرحمن - الرحيم - مالك يوم الدين » . وكل صفة منها باب الى معرفة الله ، مما سوف يرد توضيحه .

ولكن قبل أن نصل الى تلك الصفات ، نجد ان اختصاص « الحمد » بالله - تلك الذات التي تستحق العبادة والثناء - يدل على أرفع الدرجات . اي انه الذات التي يجدر بنا ان نحمدها ونعبدها ، بصرف النظر عن نعمها علينا واحسانها الينا ، وبصرف النظر عن معرفة البداية والنهاية في العلم والمعرفة ، وخلق الانسان ، وهذا الكون الفسيح .

لا شك ان بلوغ هذه الدرجة ليس في متناول كل انسان ، فذاك علي بن ابي طالب الذي يقول : « إلهي مَا عَبْدُكَ طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ وَلَا خَوْفًا مِنْ نَارِكَ ، بَلْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ » .

أي إن عبادتي لك ليست لأنك خلقتني وأحسننت الي ، وليست لأنك وعدت عبادك بأن لهم الجنة في الدار

الآخرة ، بل لأنك أنت أنت ، وإنك أهل للعبادة^(١) .

يقول سعدي ما معناه :

« إذا كانت عينك من الصديق على احسانه فانت
تحب ذاتك لا الصديق . وهذا خلاف « الطريقة » أن يتمنى
الأولياء من الله غير الله »^(٢) .

رب العالمين :

فيما يتعلق بكلمة « رب » لا بد أن نشير الى انه ليس
في الفارسية كلمة تقوم مقامها ، فهي قد تكون بمعنى
المربي ، ولكن يجب الانتباه الى ان « رب » تأتي من
« رَبَّبَ » لا من « رَبَّى » . فالمربي مأخوذة من مادة
« رَبَّى » . وقد تأتي أحياناً بمعنى « صاحب » أو « ولي الأمر »
كما جاء في قول عبد المطلب : « أنا ربُّ الإبل وللبيت
رَبُّ » .

(١) جاء في نهج البلاغة ان عبادات العابدين انواع ثلاثة : « قوم
عبدوا الله رغبة ، فتلك عبادة التجار ، وقوم عبدوا الله رهبة ،
فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله شكراً ، فتلك عبادة
الأحرار » .

(٢) کر از دوست جشمت به احسان اوست

تو دیند خویشی نه در بند دوست

خلاف طریقت بود کاولیاء

تمنا کنند از خدا جز خدا

على كل حال ، إن أي اشتقاق من هذين لا يفيد
المعنى المتضمن في « رب » ، على الرغم من أن كلا منهما
صفة من صفات الله ، ولكن يبدو أن في كلمة « رَبِّ »
مفهوماً يؤدي معنى الألوهية ، وكذلك معنى ولي الأمر أو
صاحبه ، ومعنى المربي . والله هو وحده ولي أمر العالم
كله ، وموصله الى مرتبة الكمال .

لا شك إن الله قد خلق عوالم وموجودات كانت منذ
البداية كاملة لا نقص فيها . أي انها لا تملك أية قوة أو
استعداد للتكامل ، بل انها قد خلقت متكاملة منذ بدء
خلقها ، أي إن « بدءها » و « عودها » شيء واحد ، وهي
من حيث كونها مخلوقة ومُبدعة ، تكون مربوبة لله ، والله
ربها .

أما العالم الذي نعيش فيه نحن ، عالم المادة هذا ،
فانه عالم متدرج ، يبدأ نظامه من النقص ويتجه نحو
الكمال . أي إن « بدءه » و « عوده » ليسا شيئاً واحداً ،
بل هما شيان اثنان . موجوداته مخلوقات الله ، وهي
مربوبة له .

وفي الوقت نفسه يختلف عالم الطبيعة عن العوالم
الأخرى ، بالنظر لما فيه من التنوع . ولكل نوع من أنواعه
عالم خاص به ، مثل عالم الجماد ، وعالم النبات ، وعالم

الحيوان ، وعالم الانسان ، وعالم الأفلاك . وكلها تسير من
النقص الى الكمال في حركة مستمرة ، وان أياً منها لم يكن
منذ خلقه كاملاً ، وان الله هو الذي يوصل هذه العوالم الى
الكمال ، فهو رب العالمين .

يستفاد من القرآن أن هذا العالم عالم التربية .
والانسان ، الذي ينقسم بدوره الى مجموعات مختلفة ، منها
الصالح ومنها الطالح ، يمر بفترة التربية . وان مما يلقت
النظر ان العالم يبدو وكأنه محيط زراعي يصلح لكل انواع
البذور ، تنمو فيه وترعرع . والصالح هو وحده الذي
يسير نحو التكامل ، فالطالح (أي الذي يبذر بذوراً طالحة)
يمر كذلك في هذا العالم بمراحل تطوره . لقد جاء في سورة
اسرائيل :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ
نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَذْهُوراً (١٨) وَمَنْ
أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩) كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ
وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) ﴾ .

أي إن من يطلب الدنيا ويبذر بذراً دنيوياً فسوف
يجعل الله تلك البذور تثمر ، انما الى الحد الذي يريده
الله ، وللشخص الذي يشاء . أي ان ذلك لا يتبع نظاماً .

قاطعاً بحيث انه يعطي كل باذر بذرة دنيوية ثمراً .

والسبب في ان وصول طالب الدنيا الى نتيجة ليس قطعياً هو ان هذه الدنيا تعج بالآفات ، والتزاحم ، والعقبات ، وليست لتربية امثال هذه البذور . ولكن الله يقول ان من كان هدفه محصوراً بالدنيا وخرج عن مسيرة الانسان الصحيحة ، فان مصيره النار .

ولكن الذي لا يستهدف اهدافاً دنيوية ، فيبذر بذوراً للأخرة ويجتهد في سبيل ذلك ، فان الله لن يضع عمله ويوصله الى غرضه ﴿ كَلَّا نُنَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾ .

وعليه فان نظام هذا العالم قد وضع بحيث ان كل من يبذر بذراً يجد في النظام عوناً على نمو بذورته وتربيتها نفسها ، غير ان بعض البذور تصل الى نتيجة كاملة مئة بالمئة ، وتلك هي البذرة التي توضع على الصراط المستقيم . وثمة بذور فيها إمكانية النمو ، الا انها قد لا تنمو النمو الكامل المطلوب منها . وعلى ذلك فان الذين يخططون لأعمال قبيحة ويصلون الى بعض نتائجها ، لا يمكن ان يحتجوا بأنهم لم يكونوا ليصلوا الى النتيجة لو ان خططهم لم تكن صحيحة . كلا ، ان وصول اية نظرية الى نتيجة لا يدل على صحتها وأحقيتها ، بل هو نظام الكون الذي يقول ﴿ كَلَّا نُنَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾ .

الرحمن الرحيم :

سبق ان بحثنا بعض الشيء في هاتين الصفتين ، ولعلنا نضيف هنا فنقول ان وصف الله بهاتين الصفتين يتطلب معرفة كاملة بالله ، فالرحمن صفة من كانت رحمته كثيرة ، ولكنها ليست بالضبط بالمعنى الذي نفهمه من كلمة (كثيرة) ، بل المعنى ان كل ما في الوجود قد جاء منه ، وان كل ما يجيء منه خير ورحمة . والرحيم صفة من تفيض رحمته على الانسان دائماً .

هاتان صفتان : أولاهما ترتبط بنظام الوجود ، والأخرى تختص بعالم الانسان . إن الإنسان ليجتاج الى معرفة عميقة جداً حتى يستطيع ان يدرك اتصاف الله بالصفة الأولى بحيث يقدر أن يبصر ارجاء العالم وقد غرقت في فيض رحمة الرحمن ، وحتى يبعد عن نفسه الثنائية لكي لا يقسم العالم الى خير وشر ، بل يرى العالم الذي نشأ عنه وعاء من الرحمن والخير ليس غير . وهذا هو مصداق العدل الالهي .

ينبغي على العبد ان يتذكر دائماً هذا الأمر ، وكما جاء في بعض الأدعية ، كالدعاء الذي يقرأ بعد التكبيرة الخامسة من التكبيرات المستحبة قبل الصلاة :

« لِيَكْ وَسَعْدِيكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ
الِيكَ » .

فاذا عرفنا الله انه هو الرحمن ، فقد عرفنا العالم على
انه المظهر الأتم لحكمة الله البالغة ونظامه الأكمل . على
الانسان عندما يصف الله بهذه الصفة أن يرى في نظام
الكون نظاماً كله خير ورحمة ونور . أما الشر ، والحق ،
والظلمة ، فهي أمور نسبية وغير حقيقية . لا شك انه
ليس بمقدور كل فكر ناضح أن يزعم أن له مثل هذا
المنظور الى العالم . وليس بإمكان احد ان يكون له هذا
المنظور بالقوة أو حتى بالتعبد . فاذا أرادنا القرآن ان نحمد
الله بهذه الصفة ، فانه يريدنا ان نعرف الله والعالم بهذه
الصورة . وان معرفة كهذه تعني اننا ندرك امراً شامخاً
عظيماً كهذا بطريقة صحيحة ، عن طريق العقل
والبرهان . وفي هذا كله دعوة ضمنية للتفكير في الالهيات
وتأييدها .

أما فيما يتعلق بالصفة الثانية « الرحيم » ، فهنا ايضاً
يجب ان نقول ان معرفة الله بهذه الصفة تقتضي ان يكون
الانسان على معرفة تامة بموقعه بين الكائنات في هذا العالم .

إن مآ يتاز به الانسان بين الكائنات ، هو انه الأبن
البالغ لهذا العالم . انه ليس الأبن القاصر لهذه الأسرة

ليبقى تحت قيمومة الأب والأم الأجبارية ، وانما هو قد بلغ من الرشd والتعقل الى درجة قيل له ان عليك أنت ان تختار طريقك . بينما نرى الكائنات الأخرى تقع بالأكره تحت سيطرة عوامل هذا العالم . فالانسان هو وحده الذي يستطيع بعقله أن يكون حراً في اختيار أحد طريقين امامه :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (١) .

فإذا سار الانسان في الصراط المستقيم وطريق الحق ، أصبح تحت رحمة من الله خاصة شاملة ، لكأن العالم قد صيغ بحيث ان السائر في طريق الله لا بد أن يكون الله في عونته ، فيهديه وأخذه يده ، ويسبغ على قلبه النور والقوة :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) .

ويهيء له اسباب الرزق وسبله « من حيث لا يحتسب » ، ويبلغ بعد ذلك مرحلة يشعر فيها أنه في مرحلة الأخذ والعطاء مع ربه ، إذ يرى انه كلما ازداد خلوصاً في عمله ، ازدادت عناية الله ورحمته به . تلك هي مرحلة الرضا والتسليم .

(١) سورة الدهر - آية : ٣ .

(٢) سور العنكبوت - آية : ٦٩ .

مالك يوم الدين :

تقرأون في « الرسائل العملية »: إن هذه الآية يجوز أن تقرأ على وجهين : « مالك يوم الدين » و « مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ » . فهل يؤدي هذا الاختلاف في القراءة الى اختلاف في المعنى ؟ .

ملك ومالك لهما في الاستعمالات اليومية معنيان مختلفان ، فالأول علاقة سياسية ، والآخر علاقة اقتصادية . فحيثما يكون الانسان مالكا لشيء يكون معنى ذلك ان له أن ينال فائدة من ذلك الشيء . أما قول ملك فيعني وجود قوة فوق أخرى لها حق السياسة والتدبير .

غير ان كلا الجانبين يفتقران الى الواقعية ، بل هما اتفاق ليس غير . أي اننا اذا قلنا أن فلاناً مالك الدار الفلانية ، فهذا يعني انه اتفق على ان يكون الأمر كذلك في الوقت الحاضر ، واذا قيل ان فلاناً ملك الناحية الفلانية ، فهذا ايضاً لا يزيد على ان يكون مجرد اتفاق واعتبار . وعليه ، فاذا صادف أن تبدل هذا الاعتبار ونقض الاتفاق ، لم يعد لأي منهما وجود ، أي يمكن في لحظة واحدة ان يصبح مالك تلك الدار وملك تلك الناحية شخصين آخرين وباتفاقيين جديدين .

ففي حالات مثل هذه حيث تتعين المالكية والملكية في

نطاق الاعتبار والاتفاقات، يكون لكل منهما معان ومميزات تختلف عما للآخرى، أي إن ملك لا تقوم مقام مالك، ولا هذه مقام تلك، فهنا واحدة مُلك وواحدة مِلْك.

ولكن في حالات أخرى تكون هذه الروابط حقيقية وواقعية. فإذا قال أحد، مثلاً، انه مالك قواه البدنية، فيعني انه حربي الاستفادة منها، أي إن فيه قوة يستطيع استعمالها وقتما يشاء، كأن يتحدث بها، وان لم يشأ لم يفعل. وهكذا ترون إن مفهومي ملك ومالك شيء واحد هنا، أي إننا مالكو أعضائنا وجوارحنا، وفي الوقت نفسه هن ملكنا ونحن مسيطون عليها، وذلك لأنه أمر تكويني وليس مجرد اتفاق.

أما فيما يتعلق بالله، وهو خالق الكون، وإرادته فوق كل إرادة، فإن توحد المعنى في ملك ومالك أمر بين، وهنا تكون الرابطة الحقيقية بين المالك والمملوك. وقد جاء في القرآن بخصوص يوم القيامة:

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١).

وفي آية أخرى:

﴿قُلِ الْمَلِكُ مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ (٢).

(١) سورة المؤمن - آية ١١.

(٢) سورة آل عمران - آية ٢٦.

في هذه الآية يصبح «ملك» و «مالك» كلاهما تحت عنوان «مملوك» . وهذا هو معنى «لِمَن الْمُلْكُ» ، فاللام هنا لام الأفادة ، أي : من المالك ؟ فيكون الجواب : الله وهكذا يتضح ان «ملك» و «مُلْك» ليستا بعيدتين بعض عن بعض ، ولا هما تمثيان في خطين منفصلين .

فهل الله مالك وملك في يوم القيامة فقط ، لا في الدنيا ؟ فالله مالك الدنيا والآخرة وملكهما معاً ، وانما الفرق هو ان الانسان في هذه الدنيا لا يملك عيناً ترى الحقيقة ، لذلك فهو ينظر الى المالكين والملاك نظرة اعتبارية مجازية ، ويرى نفسه وغيره مالكاً للأشياء وملكاً عليها ، فيقول : أنا مالك هذه الدار ، ولكنه عندما تنكشف له حقائق الدنيا وينظر الى العالم نظرة واقعية ، عندئذ سيري ان كل مالك وملك مصطنع وما مالك أو ملك حقيقي الا وجوده :

﴿ وَلَقَدْ كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾^(١) .

والرواية التالية تؤيد هذا الموضوع أيضاً :

« عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال : الأمر يومئذ واليوم كله لله . يا جابر اذا كان يوم القيامة

(١) سورة الاحقاف - آية : ٢٢ .

بادت الحكام فلم يبق حاكم إلا الله « (١) .

إياك نعبد وإياك نستعين :

على الرغم من أن المرء يحسب أن التوحيد واحد من المسائل الإسلامية ، وأن هناك آلاف المسائل الأخرى إلى جانب التوحيد ، ولكن النظرة الدقيقة تكشف له أن الإسلام كله توحيد ، أي أن جميع المسائل ، سواء أكانت ترتبط بأصول العقائد ، أم ترتبط بالأخلاقيات وبالتربية وبالتعاليم اليومية ، كلها توحيد .

ثمة اصطلاح في المنطق اسمه التحليل والتركيب ، وهما كلمتان مأخوذتان من ميدان العلوم الطبيعية ، حيث يكثر استعمالهما . والمقصود بهما هنا هو إنه مثلما يوجد تركيب وتحليل في عالم المادة ، أي أن جميع المركبات قابلة للتحليل إلى عناصرها الأولية ، وأنه إذا أعيد تركيب تلك العناصر عاد المركب ثانية ، كذلك الأمر في الآراء والأفكار .

يقول الفلاسفة أن أفكار البشر وآراءهم تعود جميعاً إلى أصل واحد هو عدم التناقض ، أي إذا حللناها فإن رجوعها إلى هذا الأصل أمر حتمي .

(١) الميزان ج ٢ ص ٢٢٩ .

إن في الاسلام أصلاً كهذا هو التوحيد ، أي إننا إذا
حللنا جميع المباني الاسلامية لعادت جميعها الى التوحيد .
إذا أخذنا النبوة والمعاد ، وهما أصلان من أصول
العقيدة ، أو لو حللنا الأمامة ، لرأينا انها هي التوحيد .
إذا بحثنا القواعد الأخلاقية أو الأحكام الاجتماعية
الاسلامية ستوضح انها شكل من اشكال التوحيد .
إلى هنا نكتفي بهذا المقدار من هذا البحث ، مؤجلين
التفصيل فيه الى مناسبة أخرى ، كما إن في « تفسير
الميزان » تفاصيل أكثر .

التوحيد النظري والتوحيد العملي :

في الاسلام توحيدان : نظري وعملي . التوحيد
النظري يتعلق بعالم المعرفة والفكر ، أي معرفة الله
بالوحدانية . والتوحيد العملي هو جعل الذات عملياً ذاتاً
واحدة باتجاه الذات .

وبعبارة أخرى ، التوحيد النظري يعني معرفة وحدانية الله ،
والتوحيد العملي يعني بلوغ وحدانية الإنسان ! إن النقطة
التي أود ذكرها هي ان ما ذكرناه حتى الآن من سورة
الفاحة يتعلق بالنوع الأول من التوحيد ، أي التوحيد
النظري ، ولكننا سن هنا (إياك نعبد) نبدأ ببيان
التوحيد العملي . وههنا يستطيع الانسان ان يدرك عظمة

هذه السورة الصغيرة التي لا نظير لها ، والتي تعد نموذجا واضحا لأعجاز هذا الكتاب الكريم . الحق ان المرء لا يستطيع ان يمنع نفسه من الدهشة والعجب ، إذ كيف يمكن لرجل أمي ، لم يدخل مدرسة وعاش في محيط أمي يجهل كل شيء عن العلوم والحضارات ، أن يجري لسانه بذلك العمق الذي حمل علماء اللاهوت على الأنغمار في التفكير والتأمل ، وبذلك السلاسة والعذوبة ، بحيث أن المرء لا يشبع أبداً من تكراره .
واليكم توضيح ذلك :

إن الجمل والكلمات التي مرت بنا من أول السورة حتى « مالك يوم الدين » كانت مجموعة من المسائل التي تتعلق بمعرفة الله ، فهو « الله » وهو « الرحمن » وهو « الرحيم » وهو « رب العالمين » وهو « مالك يوم الدين » . ويضاف الى ذلك أنه « محمود » على الاطلاق ، وكل حمد وشكر يختص به .

في الواقع ان جميع الألهيات قد تضمنتها هذه الكلمات ، فهي تشمل أهم المسائل الالهية .
لقد صدق العلماء والحكماء عندما استنبطوا بأن قيام القرآن بطرح هذه المسائل انما هو دعوة الى ولوج أعماقه وسبر أغوار حقائقه . لا يريدنا القرآن أن ندير كلماته على

الستنا في لقلقة فارغة ، بل يريدنا ان ندرك حقائقها .
إن من يذكر الله في صلاته بهذه الصفات ، فانه
يدّعي ، في الحقيقة ، بأنه يعرف الله بصفاته وأسمائه تلك .
إن معرفتنا بأنه هو « الله » تعني معرفتنا ذاته الكاملة
الجديرة بالعبادة ، وإن كل الكائنات تتوجه اليه بالفطرة .
وبعبارة أخرى ، هي معرفة موجود مطلق الكمال
والأعتراف به ، وعلى انه منزّه عن كل نقص وعدم
وحاجة ، ولذلك فان كل شيء منه وإليه .

أما معرفتنا بأنه (رحمن) فيجب حقاً - كما سبق لنا
قوله - أن يكون الانسان دقيقاً جداً في تفكيره حتى يقدر
على معرفة الله متصفاً بهذه الصفة . أي أن يدرك أن
الوجود بكلية مظهر من مظاهر (رحمانيته) وأن ما يصدر
عنه ليس إلا الخير والرحمة ، وإن كل موجود من حيث
كونه موجوداً ، ومن حيث كونه منتسباً الى ذات الله ، ومن
حيث كونه أمراً واقعياً ، ليس سوى الخير والرحمة . أما
الشر والحقد وغيرهما فلها جانبها العدمي أو النسبي أو هي
حالات اضافية ، وليس لها وجود في نفس الانسان^(١) .

معرفة الله على أنه (رحيم) تعني إن من يصف الله

(١) للحصول على تفاصيل أوفى راجع « العدل الإلهي »
للأستاذ مطهري .

بهذه الصفة يدّعي بأنه قد بلغ مرحلة من المعرفة بحيث إنه لا يدرك نظام الخلق وصدور الأشياء فحسب على أنها من مظاهر ذات الله ، بل ويدرك أيضاً أن نظام رجوع الأشياء إلى الخير نظام خير ورحمة أيضاً ، أي إن الكائنات قد جاءت من الرحمة وإلى الرحمة تعود .

وهذا يعني ان الرحمة سابقة على النعمة ، وبعبارة أخرى ، لو عرفت النعمة أوالعذاب معرفة جيدة لظهرت أنها رحمة في لبوس نعمة .

بتعبير آخر : إن الله سبحانه وتعالى يتصف بصفات الجمال ، كالعلم والقدرة والحياة والجود والرحمة ، ويتصف بصفات الجلال ، فهو القدوس وهو الجبار وهو المنتقم ...

وهو ، سبحانه وتعالى ، ليس ثنائياً في ذات وجوده ، أي إنه لا ينقسم الى نصفين ، فنصف رحيم وخير وجواد وربوبيه ، ونصف قدوس وجبار ومنتقم . كما انه في الوقت الذي يكون فيه خيراً وجوداً ورحمة لا يكون جباراً ومنتقماً ، بل ثمة تقدم وتأخر في اسمائه وصفاته .

لقد أجرى أهل الحكمة والمعرفة بحثاً عميقة كثيرة ولافتة للنظر في هذا المجال ، تعتبر من أثنى نتائج الفكر البشري ، لأنها خلاصة أعمال اشخاص وهبوا قرائح

عبقرية ، وقدرة على المتابعة بغير كلل ، إضافة الى التعمق
والتمحيص للوصول الى حقائق الأمور .

أجل هنالك ضرب من التقدم والتأخر في أسماء الله
وصفاته ، أي أن بعض الأسماء والصفات تلدهن أسماء
وصفات أخرى . وعلى العموم ، تتقدم الصفات الجمالية
على الصفات الجلالية ، فهذه وليدة الأولى . أما الذي
تتقدم فيه جباريته وانتقاميته على كل شيء فهو (يهوه) إله
اليهود الذي اصطنعوه ، وليس « الله » الحقيقي ، رب
العالمين ، الذي يعرفه القرآن .

ومن هنا يمكن أن ندرك لماذا يقترن « اسم الله » في
القرآن بالرحمن الرحيم ، لا بالجبار المنتقم ، وذلك لأن
بيان الوجود في نظر القرآن هو بيان الله الرحمن الرحيم ،
وما جبروته وانتقامه إلا من مظاهر رحانيته ورحيميته .

من الواضح ان رحمة الرحيم هي الرحمة التي تشمل
جميع الكائنات عند رجوعها الى الله ، وهي تشمل بالدرجة
الأولى أهل الايمان ، وهم الذين كل ما يصلهم بالظاهر
والباطن خير ورحمة ، رحمة ليست في صورة نقمة ، بل
رحمة مطلقة لا نسبية .

أما القول بأن الفرق بين « الرحمن » و « الرحيم » هو
أن الأول يختص بالدنيا ، والثاني يختص بالآخرة ، أو

القول بأن « الرحمن » تشمل جميع الناس بكفارهم ومؤمنهم ، وإن « الرحيم » تشمل المؤمنين دون غيرهم ، فالمقصود من ذلك هو ما أوضحناه من قبل .

إن الدنيا والآخرة ، من حيث كونها عالمين ، لا يختلفان ، حتى يقال إن أحدهما يعتبر الرحمة تعود على (الرحمن) ، ويرى الآخر أنها تعود على « الرحيم » ، أن يقال إن الرحمة التي يشترك فيها الكافر والمؤمن مأخوذة من مادة واحدة ، وإن الرحمة التي تختص بالمؤمنين دون غيرهم مأخوذة من مادة أخرى .

ليس في عالم الوجود تقسيمات كهذه . إن الوجود ينقسم ، من حيث الرحمة ، الى القول بأن في العالم « مجيئاً » وأن فيه « رجوعاً » . ففي العالم « منه » و « اليه » . فالله رحمن يعني « المجيء منه » وهو مظهر من مظاهر الرحمة . والله رحيم يعني « الرجوع اليه » . وهو مظهر من مظاهر الرحمة أيضاً . وحتى جهنم والعذاب باعتبارهما من مظاهر جبروت الله وانتقامه ، فإنها وليدتا رحمته . وليس بالمستطاع ايضاح أكثر هنا .

مالك يوم الدين :

إنه مالك يوم الدين . هنا يطرح نوع آخر من

المعرفة . وهنا العبد يدّعي معرفة نهاية الخلق . أي انه يعرف يوم الجزاء حيث ينكشف عدم اصالة أية وسيلة أو سبب ، سوى الله المالك والملك .

كل هذا والذي قيل من قبل ينطوي تحت لواء التوحيد النظري ، أي التوحيد الذي هو من مقولة المعرفة ، وهي معرفة لازمة وضرورية ، اذ لا ينبغي أن يقال انها مرحلة فكرية لا ضرورة لها . ابداً ، لأن الاسلام يرى ان للمعرفة نفسها اصلتها ، وانه لولا هذه المرحلة لما تقدم الانسان .

لكن هل تكفي هذه المرحلة ؟ أي اذا عرف الانسان وفهم ، فهل يعد موحداً ؟ .

كلا ، إذ ان هذه المعرفة والفهم ليستا سوى المقدمة لكي يكون موحداً . أي إن عليه أن يعرف وأن يفهم لكي يصبح موحداً (التوحيد العملي) .
وعندما نقول « إياك نعبد » نكون قد بدأنا التوحيد العملي ونريد أن نعلن الوحدةانية .

أصل كلمة عبادة :

يطلق في العربية على حالة الشيء الذي يكون طيعاً ،

ليناً ، ومطيعاً ، بحيث لا يعصى ولا يقاوم ولا يعتدي ،
اسم حالة التعبد .

لم تكن الطرق في الأيام القديمة مثلما هي عليه اليوم ،
حيث تقوم مكائن خاصة بتعبيدها ومن ثم يكون السير
عليها . بل كان السير هو الذي يصنع الطرق ، لذلك فقد
كانت الطرق في أوائل أيامها مليئة بالأحجار والصخور
والأشواك ، مما كان يعيق المرور ، ولكن بازدياد المرور
تصاغرت تلك الأحجار ، ولانت ، ولم تعد تعترض سبيل
المارين ، ولا تؤذي أقدام الناس - وحواضر الحيوان ، إذ
غدت مرنة طيبة ، وهي التي كانت أحجارها من قبل
شكسة ، قلقة ، عاصية . أما بعد أن أصبحت هينة
طيبة ، أطلق عليها اسم : الطريق للمعبد^(١) .

والانسان العبد والمعبد يعني الانسان المطيع المسالم
الطيع الذي لا يعصى ، فهي حالة الاطاعة والانقياد
والرياضة ، وعدم العصيان مقدار ذرة ، تلك الحالة التي
يجب ان يتصف بها الانسان أمام خالقه ، فان تكون عبداً
لله يعني أن تكون في تلك الحالة نحو الله تعالى . أما
التوحيد في العبودية والعبادة ، فيعني انك لا تكون في تلك
الحالة امام أي كائن وتحت أي أمر ، بل ان تكون في حالة

(١) يقال طريق معبد أي مذل - مفردات راغب .

عصيان وتمرد في غير حضرة الله . وعليه ، على الانسان أن يكون في حالين متضادين : التسليم المطلق لله ، والعصيان المطلق لغير الله . وهذا معنى اياك نعبد . أي انني اعبدك أنت وحدك ، ولا اعبد غيرك .

لا بد هنا ان نشير الى ان اطاعة الذين أوجب الله طاعتهم ، كالأب والأم ، والأمام القائد الجامع للشروط ، تعد كلها في الواقع في حكم طاعة الله ، فما دام الله هو الذي يأمرنا فعلينا ان نطيع وكل ما يشبه هذا يعتبر عبادة لله ، ولكن كل ما يقف بازاء الله عرضياً ، لا طولياً ، شرك .

أنواع الشرك والتوحيد :

ورد في القرآن ذكر انواع من الشرك ، نشير الى بعض منها بحيث نلقي مزيداً من الضوء على معنى التوحيد العملي بصورة اجمالية :

١ - ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ ^(١) .

في هذه الآية عد الانسان العابد لشهواته مشركاً . وفي هذا يقول مشنوي :

(١) سورة الفرقان - آية : ٤٣ .

« أم الأصنام صنم النفس
فتلك أفعى وهذه تنين
النفس صخر وحديد والصنم الشرر
ومن الماء يأخذ حكمه الشرر
كيف يسكن الصخر والحديد الماء
(١) كيف يأمن الانسان مع هذين »
وعليه عندما نقول « إياك نعبد » نفى بذلك العبودية
لغير الله ، ونؤيد في الوقت نفسه كوننا نطيع أوامره هو ،
ولا نطيع أوامر ميولنا وأهوائنا وشهواتنا .
٢ - ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ
الله ﴾ (٢) .

في الوقت الذي يذم فيه القرآن اليهود والنصارى ،
يقول انهم ، بغير أن يكون عندهم أي أمر من الله ، اتخذ

(١) مَادَرِ بُتْ هَا ، بُتِ نَفْسِ شُمَاسْت
جُونَكِهْ أَنْ بُتْ ، مَارُوَايَنْ بُتِ اَزْدَهَاسْت
آهَنْ وَسَنُكَ اسْتِ نَفْسِ وَبِتْ شَرَارِ
آن شَرَارِ اَزْ آبِ مِيكِيَرْدِ قَرَارِ
سَنُكَ وَلَآمَنْ زَابِ كَسِ مَآكْسِ شَوْدِ
آدَمِي بِلِ اِيَنْ دَوَكْسِ اِيْمَنْ شَوْدِ

(٢) سور التوبة - آية ٣١ .

اليهود علماءهم والنصارى رهبانهم آلهة يعبدونهم .

إن الذي نعلمه هو أن اليهود والنصارى لم يعبدوا علماءهم وقد يسيهم مثلما يعبد عبدة الأصنام أصنامهم ، أي انهم ، مثلاً ، لم يسجدوا لهم ، ولكلهم كانوا يتعبدون أمامهم . أي انهم كانوا يطيعونهم مستسلمين بغير اذن من الله ، وكانوا في الواقع يطيعون أهواءهم وميولهم ، فما كان يأمر به أولئك اتباعاً لشهواتهم كان هؤلاء يطيعونهم ، يقول الله إن الطاعة من الحقوق الخاصة به فإذا ما جاء أحد بأمر من الله فلا بد من طاعته ، ولكن الله لم يرسل الأحرار والرهبان بأمر منه ، فلماذا يطيعونه ؟ .

فبقولنا « إياك نعبد » نخاطب الله قائلين اننا لن نعبد أحداً باسم الروحانيين ، أو القديسين أو أي اسم آخر، ولا نطيع أحداً طاعة عمياء ، انما نطيع من أمرتنا أنت بأطاعته ، ولا نطيع من لم تأمرنا بطاعته . كنا نطيع رسولك فذلك لأنك أنت الذي أوجبت عليه علينا . وإذا كنا نطيع الأئمة الأطهار على أنهم أولوا الأمر منا ، فذاك بأمر منك . وإذا أطعنا العلماء المجتهدين جامعي الشروط ، أي العلماء العدول المتقين ، فذلك لأن الرسول والأئمة الأطهار ، الذين أوجبت علينا اطاعتهم ، قد أمرونا بذلك .

٣ - ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

وَيَبْينِكُمْ أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١﴾ .

هذه الآية هي الرسالة التي أرسلها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سنة خمس أو ست هجرية الى ملوك العالم . انها مظهر من مظاهر التوحيد العملي في العالم : ليس للانسان أن يتخذ إنساناً آخر رباً ، ولا أن يكون انسان مريباً . لآخر . وهكذا فان « اياك نعبد » تعني : إلهنا أنت وحدك ربنا المطاع ، وليس لنا رب اجتماعي ، ولا نضع انساناً بإزائك ، ولا نطيع أمراً غير أمرك .

٤ - ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿٢﴾ .

عندما واجه موسى بن عمران فرعون ودعاه للإيمان بالله ، رد عليه فرعون غاضباً : أولست الذي كنت في بيتي وكبرت تحت يدي ، وقمت بعملك الكبير القبيح (يقصد قتل القبطي) ؟ فأجابه موسى : أتمن عليّ ذلك حتى تستعبد بني اسرائيل ؟ أتريد لي الصمت لأنك اتخذت بني اسرائيل عبيداً لك ؟ .

(١) سورة آل عمران آية : ٦٤ .

(٢) سورة الشعراء - آية : ٢٢ .

تلاحظون أن موسى (عليه السلام) يصف موقف فرعون من بني اسرائيل على انه (تعبيد) مع ان بني اسرائيل لم يسجدوا لفرعون ، انما كان قد أذلهم وأجبرهم على طاعته والعمل له ، سالباً منهم كل حق وحرية اختيار ، مستغلاً اياهم ، فكانوا بهذا المنظور ، مستسلمين لفرعون مطيعين له . لذلك فان « اياك نعبد » تعني : ربنا إنما لن نستسلم للتعبيد ، ولا للإذلال ، ولا للإكراه على العمل ، ولا للطاعة ، ولا لسلب حق الاختيار والحرية .

هذه هي نماذج مما ورد في القرآن ، توضح معاني التوحيد العملي . فالتوحيد العملي هو ذلك الذي يصطلح عليه علماء الاسلام بالتوحيد في العبادة ، أي التوحيد في الواقع الخارجي ، بمعنى ان واقع وجود الانسان قد توحد أيضاً .

خلاصة ما قيل هو إنه لا يكفي في الاسلام أن يكون المسلم موحداً في مرحلة الرأي والفكر فيعرف الله في ذاته وصفاته وأفعاله بالوحدانية ، وأن يكون قادراً ، إن طلب منه ، على ان يتحدث ستة شهور حول معرفة الله . ان شخصاً هذا شأنه لا يملك من التوحيد إلا نصفه ، والنصف الثاني هو أن يكون في الأفعال توحيدياً أيضاً ، بل ان يكون موحداً . عندئذ يكون قد عرف الله بكمال صفاته ، ويكون موحداً في التسليم بطاعته ويمكن ان نقول

انه أصبح موحداً .

ههنا ، كما قلنا من قبل ، تبدو عظمة سورة الفاتحة وتوضح ، وانه لدعاة للعجب حقاً ان يستطيع شخص لم يقرب الدرس عمره ، ولا خالط فيلسوفاً ، ولا جالس عالماً ، أن يأتي في أولى سور كتابه بكلمات ، وأن يرتبها ، بحيث يضع رسالته كلها في مقطوعة صغيرة ، وأن يصوغ فكرة التوحيد النظري بأرفع جلالها في جملة قصيرة ، وأن يبين التوحيد العملي في جملة « اياك نعبد » القصيرة ! .

حصر العبادات :

في اعراب جملة « اياك نعبد » تكون اياك مفعولاً به للفعل نعبد ، فكان حقها أن تأتي بعد الفعل ، فتكون الجملة « نعبدك » ، ولكنها لو جاءت هكذا لكان المعنى : ربنا إنا نعبدك ولكن رجال الأدب واللغة يقولون : تقديم ما يحقه التأخير يفيد الحصر

وهذا يختص باللغة العربية ، ففي الفارسية مثله أيضاً لذلك فان معنى الجملة يصبح : ربنا نعبدك وحدك ونستسلم لك ونطيعك ، ولا نطيع أمراً لا يكون صادراً عنك . فتلك الجملة إذن جملة واحدة بدلاً من أن تكون جملتين : جملة مثبتة : نستسلم لله ، وجملة منفية : لا نستسلم لغير الله .

وعلى ذلك نجد في هذه الجملة شعار التوحيد الذي
يجمع الايمان والكفر ، كقول المسلم لا إله إلا الله ، حيث
يبرز الايمان والكفر معه - الايمان بالله والكفر بغير الله .
لقد جاء في آية الكرسي :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَمَنْ
يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (١) .

الايمان في الاسلام ، بغير الكفر ، لا يكون عملياً ،
إذ يجب دائماً أن يكون بجوار التسليم لله انكار لمظاهر
الطغيان ، حتى يكتمل الايمان .

ضمير الجمع :

في هذه المرحلة عند بلوغ التوحيد العملي ومرحلة
(تكون) الانسان ، تجدر الإشارة الى نقطة لافئة للنظر ،
وهي ان الفاعل في (نعبد) ضمير يدل على الجماعة ،
فلم يقل (اعبد) فيكون الفاعل عندئذ مفرداً ، أي لم يقل
« انا اعبدك وحدك » بل قال « انا نعبدك وحدك » ففي
هذا المقام ، مقام صنع الانسان وصياغته ، تجري عملية
صنعه في ضوء معرفة الله والتوجه اليه ، لا في حالة اغفاله

(١) سورة البقرة - آية ٢٥٦ .

وعدم معرفته ، في مضمار العمل والنشاط ، لا بالنظرية
والفكر المحض .

يصاغ الإنسان في خضمّ العمل الاجتماعي وبمسيرة
المجتمع الموحد والانسجام معه ، وليس منفصلاً عن قافلة
أهل التوحيد ان الإنسان كائن فكري إلهي ، عملي ،
اجتماعي .

فالإنسان بغير الفكر والمعرفة ليس انساناً حقيقياً . ان
الإنسان المنقطع عن الله والغافل عنه ليس انساناً ان انسان
الفكر الالهي المنقطع عن العمل ليس انساناً حقيقياً
كذلك ، انه انسان ناقص ، بمثل ما هو ناقص ذلك
الإنسان المفكر الذي يعرف الله معرفة عملية ، ولكنه
منقطع عن المجتمع الموحد . لذلك فان معنى جملة « اياك
نعبد » في الحقيقة هو :

ربنا ، نحن أناس المجتمع الموحدين ، نسير في حركة
متناسقة ومعاً متوجهين اليك بأذان صاغية لأوامرك .

إياك نستعين :

منك وحدك نريد العون ، ولا نريد العون من
غيرك .

هذه الجملة تفيد التوحيد في الاستعانة ، ومعنى ذلك

هو اننا نطلب العون والمساعدة منه واننا نعتمده وحده .
هنا يمكن أن نطرح سؤالاً ويمكن ان يطرح هذا السؤال
على صورتين :

الأولى عن أصل الاستعانة . يرى علماء التربية
والتعليم وعلماء الأخلاق ، ان الانسان يجب أن يعتمد
نفسه ، لأن اعتماد المرء غيره والاستعانة بالآخرين يجعل
منه انساناً ضعيفاً واثكالياً ، بخلاف اعتماد النفس الذي
يوقظ فيه القوة والحيوية .

فموجب هذه القاعدة ينبغي على الانسان ان يتكل
على نفسه ، لا على غيره ، سواء أكان اتكاله على الله أم
على غيره . ولهذا فان علماء اليوم يرون أن كلمة
(توكل) ، التي تعني التوكل على الله ، وسلب التوكل على
النفس ، تعتبر ذات مضمون سلبي لا أخلاقي .

ويمكن أن يطرح هذا السؤال بصورة أخرى : لماذا
ينبغي ألا نطلب العون من غير الله ؟ لماذا ينبغي ألا نعبد غير
الله ، ولكن ما المنطق في ألا نطلب المساعدة من غيره ؟ لقد
جعل الله العالم عالم الأسباب ، وجعل الناس يحتاج بعضهم
بعضاً ، فلا مندوحة عن طلب عون الآخرين في سدّ
الحاجات اليومية وغيرها .

للإجابة على هذا يجب أن نقول : ليست القضية هكذا ، وإنما هي شيء آخر ، فليس كل طلب للمعونة وكل توكل على الآخرين قبيحاً ، أبداً . بل إن الله قد خلق الإنسان محتاجاً الى غيره من خلق الله ، أي ان المجتمع الانساني قد بني على أن يكون الناس محتاجين بعض الى بعض ، وانه لمن هذا المنطلق أننا نرى ان التعاليم الاسلامية تحث على التعاون . لقد جاء في القرآن المجيد :

﴿ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (١) .

وكلمة « التعاون » من مادة « عون » ، ولو كانت الاستعانة بغير الله غير جائزة بكل الحدود ، لما حث الله الناس على التعاون لكونهم يحتاج بعضهم الى بعض ، ولذلك فلا بد أن يتعاونوا فيما بينهم .

جاء في الأخبار ان رجلاً دعا الله بالدعاء التالي وهو في حضرة أمير المؤمنين (عليه السلام) : اللهم لا تحوجني إلى خلقك . فقال الامام : لا تقل هذا . فقال : فكيف أقول ؟ فقال الامام : قل اللهم لا تحوجني الى لئام خلقك .

وذلك لأن الجملة الأولى مستحيلة ما دامت طبيعة الانسان وتكوينه الاجتماعي يقتضيان التعاون . جملة

(١) سورة المائدة - آية ٢ .

(إياك نستعين) لا تقول إن على الإنسان ألا يستعين
بالآخرين ، فما هي المسألة ؟ ..

إن ما في الآية هو ان الاعتماد النهائي ، وان ما يتكل
عليه قلب الانسان ، اي ما يتكل عليه الانسان في نفسه ،
ينبغي ان يكون الله ، وأما الذين يستمد منهم العون في
الدنيا فانما هم وسائل . فالانسان نفسه ، وطاقته ، وقوة
عضلاته ، وقوة فكره ، كلها وسائل خلقها الله ووضعها
تحت تصرفه ، ولكن الأمور بيد الله . لذلك فقد يتكل
الانسان في دنياه على وسائل كثيرة ، ثم يخيب ظنه فيها
لأنها لم تقدم له العون الذي كان ينتظر . بل قد يعتمد
قواه الخاصة ، ولكنه يجدها قد خيبت أمله . إن القوة
الوحيدة التي يستطيع الانسان أن يتكل عليها وينظم برنامجه
معه دون خوف ، هي الله .

جاء في التاريخ انه في احدى الحروب ابتعد النبي
(صلى الله عليه وآله وسلم) قليلاً عن المعسكر وارتقى
مرتفعاً من الأرض وتمدد ليسترىح ، فغلبه النوم . واتفق أن
مر به أحد فرسان العدو الشجعان ، فأبصر الرسول ،
فعرفه ، ففرح بذلك وقال في نفسه إنه سيقته . وفيما كان
الرسول نائماً وقف هذا على رأسه وصاح به : يا محمد ،
أهذا أنت ؟ .

ففتح الرسول عينيه ، وقال : أي والله إنه أنا .
فقال الرجل : فمن تراه يقدر على خلاصك مني ؟
فقال الرسول دون تردد : الله .

وإذا لم يكن الرجل ينتظر هذا الرد قال له : سوف
نرى . وتأخر خطوة حتى تزداد ضربته قوة ، وإذا به يعثر
بصخرة ويقع على الأرض . فأسرع الرسول يقف على رأسه
وقال : فمن تراه يقدر على خلاصك مني ؟ وعندها قال
الرجل مفتوناً : كرمك . فعفى النبي (صلى الله عليه وآله
وسلم) عنه .

خلاصة القول هي ان هذه الآية لا تعني ان الانسان
يجب ألا يمد يده طلباً للعون أبداً ، ولكنه يجب ألا ينسى ،
وهو يطلب العون ، سبب الأسباب ، وأن يدرك ان
الوسائل كلها بيده .

إهدنا الصراط المستقيم :

إننا لكي نلقي الضوء على الصراط المستقيم يجب ان
نبين بعض النقاط :

١ - كل الموجودات تسير في مسيرة كونية لا ارادية
حتمية نحو الله في صيرورة :

﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ . وَإِنَّ رَبَّكَ

الْمُتَّهِى ﴿١﴾ .

والانسان لا يخرج عن هذا يحكم كونه من
الموجودات :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا
فَمُلَاقِيهِ ﴾ (٢) .

٢ - هنالك بين الطرق الكثيرة طريق مستقيم لا حب
واحد ، هو طريق السعادة ، وهو اختياري ، أي ان على
الانسان أن يختاره بنفسه .

٣ - بما ان ما يختاره الانسان هو طريق من الطرق .
فانه لذلك يتحرك في مسيرة ويطوي الطريق نحو هدفه .
وبعبارة أخرى ، انه يريد أن يتقدم نحو الكمال . وعليه
فان الانسان كائن يطلب الكمال ويبحث عنه . فجملة :
إهدنا الصراط المستقيم تعني : ربنا ارشدنا الى الطريق
المستقيم الذي يوصلنا الى التكامل .

٤ - طريق التكامل طريق يجب أن يكتشف ، لا أن
يبتدع ، بخلاف نظرية الوجوديين التي تدعي انه لا وجود
لأي طريق ولا لأي هدف ، وإن الانسان هو الذي يخلق

(١) سورة الشورى - آية : ٥٣ .

(٢) سورة الانشقاق آية : ٦ .

بنفسه مكانة وهدفاً وطريقاً ، فهو نفسه خالق الهدف وخالق الطريق وخالق الكمال ، أي انه هو الذي يخلق كمال كماله وقيمة قيمته . في نظر القرآن الكمال والطريق ، وكمالية الهدف ، وتقويم القيمة ، متعينة منذ بدء الخليقة والوجود ، وعلى الانسان أن يكتشفها ، وأن يعثر على الهدف ، ويقطع الطريق .

٥ - الطريق المستقيم هو طريق وجهته معروفة منذ البداية ، بخلاف الطرق غير المستقيمة المنحنية أو المتعرجة أو المنكسرة التي يفترض فيها أيضاً أن توصل الانسان الى الهدف بعد كثير من تعدد الوجهات . وعلى ذلك فان طريق الانسان نحو الكمال ليس ذلك الطريق الذي يمر عبر الأضداد والانحراف من ضد الى ضد كما يقول الدايلكتيكيون .

٦ - إن القول بأن طريق التكامل طريق يجب أن يكتشف لا أن يبتدع لا يعني انه كالطرق المكانية ، وانه كان موجوداً قبل وجود السائر ، ومخططاً ، وذا معالم كالشوارع ، وان على الإنسان أن يمشي فيه بل يعني وجود مسير بوجود السائر ، يوصل إلى الكمال الحقيقي الذي يقترب من حضرة الله ، أي ان في جبهة الإنسان استعداداً فطرياً لبلوغ الكمال الحقيقي ، كالأستعداد الكامن في نواة التمر للتخلق والنمو شجرة كاملة .

٧ - على الرغم من أن للانسان استعداداه الفطري ،
الا انه محتاج الى المرشد الهادي . ذلك لأن الانسان يختلف
عن جميع الكائنات ذوات الاستعداد الفطري اختلافاً
رئيساً .

فالموجودات الأخرى طريقها في الطبيعة واضح
مرسوم ، وليس امام أي منها الا ان يسير في الطريق
المرسوم ، وليس الانسان كذلك . ويعبر عن ذلك في
الفلسفة بمقولة : ان لكل موجود طبيعة ، عدا الانسان ،
فانه لا طبيعة له .

يصر الوجوديون على القول بأن الانسان كائن عديم
الماهية وعديم الطبيعة . لقد سبق لنا أن بحثنا هذا
الموضوع في مكانه ، وأثبتنا انه ليس صحيحاً بالشكل الذي
يشرحونه .

إن للانسان طبائع مختلفة ومتضاربة ، وعليه ان يختار
طريقه من الطبائع العليا والسفلى أما الحيوانات الأخرى
فلم يعهد اليها بحرية الاختيار ، بل الحصان والشاة
والقطعة الكلب لكل منها غرائز خلقت معها وهي التي تعين
طريقها ، ولذلك نرى كلاً منها في كل ارجاء الأرض
تختص بطبائع وميول موحدة ، وهي متشابهة في أفعالها
وسلوكلها . فالنحل والنمل لكل منها عاداتها في بناء
مساكنها واعداد غذائها ، لا تتحول عنه مدى الدهر .

ولكن امام الانسان مئاة الطرق والأساليب، له أن يختار منها ما يشاء .

لقد جاء في سورة الليل : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .

لا شك إن هذا دليل على كمال الانسان ، لا نقصه .

بقي علينا أن نرى ان كان هذا يستلزم ألا يكون للانسان أي طريق مطلقاً .

على الرغم من ان الماديين يرون هذا الرأي ، الا أن القرآن لا يقبل بذلك . يقول القرآن ان هناك مساراً مرسوماً بين الانسان والله ، وهو مسار كمال الانسان . إن امام الانسان ألوفاً من الطرق ، غير ان واحداً منها هو الطريق المستقيم اللاحب الذي يتجه نحو الله وينتهي اليه . إلا أن للانسان ملء الحرية في الاختيار ، فان اختار الطريق المستقيم فيها ، وإلا فان جميع الطرق الاخرى غير صحيحة ومضللة .

هنالك حديث يروى عن الرسول الكريم انه كان يوماً جالساً وحوله جمع من الناس ، وراح الرسول يرسم خطوطاً على الأرض ، وكان واحداً منها مستقيماً والخطوط الأخرى غير مستقيمة ، ثم قال : هذا خطي دون باقي الخطوط .

هذا هو السر في ان الظلمة ترد في القرآن بصيغة الجمع ، والنور بصيغة المفرد : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فطرق الضلال متنوعة ، وطريق الحق طريق واحد .

هنا تتجلى الحاجة الى هداية الأنبياء ، اذ ان الطريق المستقيم الذي يوصل الانسان الى الكمال النهائي لا يستطيع الانسان الاهتداء إليه بغير هدايتهم ، وهم الذين أرسلهم الله لهداية الانسان .

يقول « تفسير الميزان » أن كلمة « سبيل » قد وردت في القرآن بمعنى « الطريق » ولكنه يختلف في المعنى عن « الصراط » ، ولذلك فقد يأتي « السبيل » في صيغة الجمع ، ولكن لم يرد « الصراط » إلا بصيغة المفرد . والسبيل هو ذلك الطريق الفرعي الذي ينتهي الى الطريق الرئيس . والصراط هو ذلك الطريق الفرعي الذي ينتهي الى الطريق الرئيس . والصراط هو ذلك الطريق الرئيس . قد لا يكون للوصول الى نقطة ما غير طريق واحد ، غير أن الطرق الفرعية التي تأتي من الأطراف والأكناف كثيرة ومتعددة ، ولكنها تلتقي ذلك الطريق الرئيسي في النهاية .

نحن البشر أشبه ما نكون بالقافلة ، نكون معاً أثناء سيرنا نحو الكمال ، ولكن علينا ، للوصول ، الى الكمال

النهائي ، أن نجتاز الطريق الرئيس ، إلا أننا قد نصل إليه عن طريق طرق فرعية . فإذا قام كل امرئ ، في مكانه الوظيفي ومركزه الاجتماعي ، بالسير على وفق الموازين الانسانية والأخلاقية والشرعية ، يكون في الواقع قد اختار طريقاً سيوصله في النهاية الى الطريق الرئيس ، حتى وإن كانت البدايات متفرقة مختلفة كأن يكون أحدنا طبيياً مثلاً ، والآخر عاملاً ، والثالث تاجراً . فهذه كلها طرق يستطيع المرء بالمسير فيها أن يقترب من الصراط المستقيم .

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ :

الناس من حيث مقام العبودية وما يريدون بلوغه ، ومن حيث حريتهم في أي طريق يختارون ، ينقسمون الى اقسام ثلاثة :

فأولاً : أولئك الذين يطوون طريق العبادة وهم ، كما قلنا في شرح كلمة (الرحيم) ، مشمولون برحمة الله الخاصة ، تنزل عليهم النعمة تلو الأخرى على الدوام ، ويشعرون كأن يداً من الغيب تجرهم جراً . هؤلاء هم المقربون الى الله ، كالأنبياء والأولياء ومن ثم الأشخاص الذين بلغوا الكمال . فعلى المرء أن يجعل هؤلاء قدوة

يقتدي بهم ويقتفي أثرهم . فالانسان في الجملة الأولى .
يطلب من الله أن يضعه في طريقهم .

وثانياً : أولئك الذين يقفون مقابل الجماعة الأولى ،
والذين عصوا الله ، وعبدوا إلهاً غيره ، فبانت عليهم
أعمالهم الواحد بعد الآخر ، وكأن يداً تبعدهم دائماً عن
الطريق الصواب ، فبدلاً من أن يتجهوا نحو الأعلى مثل
الجماعة الأولى ، فيكونوا موضع نعمه المتوالية ، تراهم
موضع غضب الله ، وقد فقدوا سبيلهم نحو الكمال
كلياً ، متجهين الى هاوية الشقاء المخوفة :

﴿ وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ . هؤلاء في
الواقع ، أناس تخلوا عن طريق الانسانية واتبعوا طريق
الحيوانية ، فمسخت انسانيتهم ، فهم يتأخرون بدلاً من
التقدم ، وهم الذين يعبر عنهم القرآن بقوله « المغضوب
عليهم » .

وثالثاً : هنالك فيما بين هؤلاء وهؤلاء جماعة ثالثة ،
مذبذبة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، لا يرون طريقاً
واضحاً امامهم ليسيروا فيه ، تراهم حيارى ضائعين ،
يتخذون في كل لحظة سبيلاً ولا يصلون نهاية . وهؤلاء
يعبر عنهم القرآن « الضالين » .

فعندما نقول : إهدنا الصراط المستقيم ، صراط
الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين
ندعوا الله تعالى قائلين : ربنا ارشدنا الى الطريق
الصحيح ، طريق أوليائك الصادقين المطهرين ، طريق
الذين لا تفتأ تشملهم بنعمك المتتالية ، لا طريق عبيدك
الذين مسخوا وتغربوا عن الإنسانية ، فباؤوا بغضب منك ،
ولا طريق التائهين الضائعين الذين يظهرون في كل لحظة
بمظهر مختلف ومع جماعات مختلفات .

خاتمة سورة الفاتحة

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُؤْمِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى
مِّنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) .

وجه تسمية السورة :

تسمى هذه السورة باسم سورة البقرة بالنظر لورود

اسم بقرة بني اسرائيل فيها . وهي أول سور القرآن ،
وتألف من حوالي جزئين ونصف من أجزاء القرآن .

الحروف المقطعة :

هذه سورة مدنية ، وتبدأ ، مثل ثلاث عشرة سورة
أخرى ، بحروف مقطعة ، ونقصد بها أحرف الهجاء بدون
أن تتركب مع بعض .

قد تبدأ هذه السورة بحرف واحد ، مثل سورة
« ن والقلم » أو سورة « ق » . وقد يبدأ بعضها بحرفين
اثنين ، مثل سورة « يس » وسورة « طه » وسورة
« طس » . وقد تبدأ سور أخرى بثلاثة حروف ، مثل سورة
« طسم » وسورة « ألم » . وقد تكون اربعة حروف ، مثل
سورة « المر » ، وبعض بخمسة حروف ، مثل سورة
« حمعسق » وسورة « كهيعص » .

يختص القرآن وحده بهذه الخصوصية ، إذ لم يسبق أن
ابتدأ كتاب ، سماوياً كان أم غير سماوي ، بحروف
مقطعة . فما هو المقصود من هذه الحروف ؟ .

لقد طرح هذا السؤال منذ الأيام الأولى من صدر
الاسلام ، وظهرت نظريات عديدة بهذا الشأن ، ويمكن
القول بأنه لم يظهر لهذا السؤال جواب قاطع لحد الآن .

واليكم بعض هذه النظريات :

يرى بعضهم ان هذه الحروف سلسلة رموز بين القائل والسامع ، أي بين الله ورسوله ، تشير الى معارف ومعلومات أرفع في مستواها من مستوى العامة ، وانه لما لم يكن باستطاعة الناس أن يستوعبوا سماعها ، فلم تذكر صراحة ، بل جاءت على صورة رموز . وهذا أمر مألوف حتى بين الناس ، فحين يريد احدهم ان يقول شيئاً لا يفهمه إلا المخاطب المقصود ، فعندئذ يخاطبه بالرموز .

نظرية اخرى تقول ان هذه الرموز هي اسماء السور التي بدأت بها ، أي ان اسم سورة البقرة هو « الم » ، وان اسم سورة طه هو « طه » .

ونظرية ثالثة تقول انها قسم ، فكما ان القرآن يقسم بساير مظاهر الخلق ، بالشمس ، بالقمر بالنجم ، بالنهار ، بالليل ، وبالنفس ، فانه يقسم ايضاً بالحروف . أي ان معنى أ - ل - م - هو : اقسام ب - أ - ل - م .

عندما يقسم الانسان بشيء ، فانه في الحقيقة يقسم بشيء يكون محترماً عنده ، ويكون المخاطب عارفاً كذلك بأن صاحبه يحترم ذلك الشيء ولا يرتضي له اهانة أو تحقيراً ، ولذلك فهو يستند الى ذلك الشيء ليدل على صدقه

وانه يقول الحق . ولكن الانسان قد يقسم في حالة مختلفة . فقد يقسم ليفيد أمراً يقتضي القسم ، أي انه يقسم لكي يعرف المخاطب انه يقدر الشيء ويحترمه . فعندما يريد امرؤ أن يشعر الناس انه يحترم فلاناً ، فانه يقسم برأس فلان أو بحياته . ففي مثل هذه الحالات يكون المقصود من القسم هو المقسم به ، أي الذي اقسم برأسه أو بحياته ، لا المقسم عليه ، أي موضوع القسم .

وهذا النوع الثاني من القسم ، هو الذي يرد في القرآن . فإذا أقسم القرآن بالقمر والشمس والزيتون والتين والنهار والليل ، فانه يريد أن يوجه انتباه البشر الى أهمية تلك الأشياء .

إن من أهم الأمور التي كان لها دور اساس في حضارة الانسان وتمدنه هو حروف الهجاء . فقد لعبت هذه الحروف ، أو الأصوات التي تخرج بهيئة حروف ، دوراً كبيراً في حياة البشر الاجتماعية . إن للحيوانات أصواتاً وأغاني ، ولكنها لا تقدر أن تصنع منها حروفاً . فلولا استطاع الانسان أن يصنع من أصواته حروفاً ، كالبكم ، ولولا يكن قادراً على التكلم وايصال مقاصده الى الآخرين ، لما كان هناك علم ولا تمدن أو صناعة . وحتى الكتابة ورسم الخط ، تلك النعمة الكبرى والتي يقسم بها

القرآن ايضاً ، فقد ظهرت بعد مرحلة التكلم . أي ان
مقدرتنا على كتابة ا - ل - م منفردة هي من نتائج مقدرتنا
على ان نلفظها منفردة . فلولا هذه الحروف لكان علينا ان
نرسم صورها لأىصال مقاصدنا . لكان علينا ، مثلاً ، أن
نرسم بيتاً ليدل على البيت ، وصورة السيارة لتدل عليها .
وهذا يعني استحالة ايصال ما لا يمكن رسم شكله .

ثمة نظرية أخرى تقول إن هذه الحروف اشارة الى
اعجاز القرآن . وهم يشرحون نظريتهم كما يلي :
إن حروف الهجاء العربية التي تبلغ «٢٨» حرفاً ،
(وقد تكون أكثر في بعض اللغات ، حتى قيل ان في
بعض اللغات حوالي ٣٠٠ حرف من حروف الهجاء) تعتبر
بمنزلة لبنة البناء ، وهي في متناول الجميع . ولكن هل
يستطيع الجميع أن يقولوا قولاً رفيعاً ؟ كلا ، فالحروف
مثل خيوط الغزل بيد الناسجين ، ولكن أتراهم من حيث
الفن ينسجون على منوال واحد ؟ أبداً .

إن قدرات الكلام وفنون الخطابة تتألف من هذه
الحروف ذاتها ، وكذلك الكتب والمقالات والقصائد
الشعرية كلها نسيج هذه الحروف ، ولكن الناتج على
درجات من التفاوت ، قد يصل تفاوت ما بين السماء
والأرض .

نقرأ في آيات أخرى أن القرآن يتحدى الناس
ويطلبهم الى المبارزة ، فليجمعوا كل خطبائهم ورجال
الكلام فيهم وليأتوا بآية من مثله . أفهل يستطيعون ؟ .

فالقرآن ، بذكره هذه الحروف ، على سبيل المثال ،
يريد في الحقيقة ان يقول : ها هي المواد الأولية التي صنع
منها القرآن . أيها الناس ، لم يصنع القرآن من مواد غيرها
حتى تقولوا لو كان عندكم مثلها لجئتم بمثله . إنما هي
الحروف ذاتها وقد ألفت في طراز بديع ، فتعالوا واصنعوا
منها مثله . لم يصنع القرآن في مصنع معين حتى تقولوا انكم
لا تملكون مكائنه ومواده ، بل ان مكائنه ومواده بين
أيديكم .

هذا بيان اعجاز القرآن ، إذ كيف يمكن لشخص أمي
لم ير المدرسة ولم يقرأ كتاباً ان يصوغ كلاماً لا يقدر على
الاتيان بمثله أحد ؟ .

قبل بضع سنوات قليلة طرحت نظرية أخرى فيها
يتعلق بالحروف استأثرت باهتمام الصحافة والناس وهي
ان مصرياً مختصاً بالكمبيوتر (العقل الآلي) أجرى
دراسات دقيقة على هذه السور الأربع عشرة ، فتوصل الى
ان دور حرف البداية في كل سورة أكبر بالنسبة إلى الحروف
الأخرى المستعملة في السورة نفسها . فمثلاً إن الحروف ا -
ل - م في سورة البقرة تلعب دوراً أكبر مما تلعبه الحروف

الآخري الواردة في السورة ، وإن نسبتها من الدقة بحيث لا يستطيع العقل البشري حسابها ، إذ أن الكسور فيها تصل درجات لا يقدر عليها غير الحاسب الآلي .

وفي الختام اورد احتمالاً آخر بهذا الخصوص وهو :
هنالك بحث قديم يدور حول الوجود الأول في نظام الوجود هذا . أي ما الذي تقدم ، وما الذي تأخر . وقد جاءت نظريتان للأجابة على هذا التساؤل . فبعض يقول : في البداية كانت الكلمة والكلام ، ويقصدون بذلك ان البداية كانت في الفكر والفهم والادراك ، لأن الكلمة والكلام من علامات الكفر والتفكير ، ومن ثم ظهرت المادة . ويرى آخرون ان المادة كانت سابقة ، أي إن المادة والطبيعة قد ظهرت في البداية ، وبعد تكاملها ظهر الفهم والادراك والشعور ، ومن ثم ظهرت الكلمة والكلام .

يبدو أن القرآن يؤيد أولى هاتين النظريتين ، إذ إنه عندما يشرح قصة الخليفة ، يقول :
﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

أي ان الأول هو القول ، ثم يأتي سائر المخلوقات .

(١) سورة يس - آية : ٨٢ .

إنه لمن الواضح هنا أن القول لا يعني مجرد التلفظ ، الهواء والصوت ، فحسب ، بل ان له معنى أشمل وأكمل .

يبدو ان الله بهذه الحروف المقطعة يبين اسلوب الشروع بعمله ، أي ان القول والكلام والفكر أسبق من الجسم والطبيعة وجوداً .

ومهما يكن فان الحروف المقطعة من متشابهات القرآن ، وعل الأخص اذا قبلنا بالنظرية الأولى وقلنا انها رموز بين الله ورسوله .

ذلك الكتاب لا ريب فيه :

ذلك الكتاب . لاحظوا انه لا يقول « هذا الكتاب » ، بل يقول ذلك الكتاب ، وهذا يعني التعظيم ، ففي العربية إذا أرادوا الإشارة الى شيء عظيم استعملوا الإشارة الى البعيد ، أي إن ذلك الشيء تفصله عنا وعنكم الفواصل .

لا ريب فيه . لا شك فيه . ما معنى هذا ؟ كيف ليس في القرآن شك ؟ على الرغم من علمنا بوجود من يشك في اصالة القرآن ، حيث هو نفسه يقول :

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا

بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴿١﴾ .

في الأجابة يجب ان نقول انك قد تقرأ كتاباً وتجد فيه اموراً ، فتساءل : أصحيح كل هذا الذي فيه ، أم لا صحة له ؟ فأنت متردد وشاك . ولكي تتأكد لك صحته أو عدم صحته ، يقتضيك أن ترجع الى ما فيه من أسانيد فتتحقق منها .

نعم هكذا الأمر بشأن هذه الكتب ، وعلى الأخص في كتب الاخبار والروايات والادعاءات ، إذ إن اثبات صحتها يحتاج الى دليل وبرهان . ولكن قد يتفق أحياناً ان الأمور تتأكد للقارئ بشكل ملموس ومحسّ بحيث لا يجده محتاجاً الى اي شاهد ودليل .

فمثلاً لو أن أحداً لا سابق معرفة لك به ولم تحالطه من قبل ادعى انه عادل ، فلا بد انه بهذا يشرفيك الشك ، فتأخذ بالبحث عن البينة والشاهد . فاذا ايد لك ذلك اثنان ممن تعرف فيهم العدالة وشهدا على صدق دعواه ، فانك ستقتنع ، والآ فلا .

أما إذا كان هذا الشخص المدعي العدالة من المقربين

(١) سورة البقرة - آية : ٢٣ .

اليك ، زاملته في الحل والترحال وعرفت أعماله ودرست سلوكه ، بحيث تجلت لك عذالته وتقواه ، فهل تراك تحتاج الى دليل أو شاهد على ادعائه ؟ كلا .

كذلك الأمور في القضايا العلمية والنظرية . فبعض المسائل يتطلب اثباتها الى البرهان ، وفي بعض آخر يجد الانسان أن الموضوع واضح أمامه فلا يحتاج الى برهان ، بل ان مجرد طرحه يعتبر دليلاً على صحته .

كذلك هو القرآن . فقد يرتاب احد في أصالة القرآن ، وهذا يكون ما دام بعيداً عنه ، فما أن يقترب منه حتى يزايله الشك فيه .

ولكن لا بد أن نعلم ان الاقتراب من القرآن على نوعين : الأول هو أن يقرأ الانسان القرآن ، فيفهمه ويرجع الى التفاسير في مشكله ، والثاني هو أن يعمل به .

ولما لم يكن القرآن مجرد كتاب نظري ، فقد اقتدرت ، فيه النظرية والعمل توأمين . وعليه فان هذه الآية تريد ان تقول : يا أيها الذين ترتابون في القرآن وتشكون فيه ، لكم كل الحق في ذلك ، لأنكم لم تقتربوا منه ، ولم تنظروا فيه ، ولم تطلعوا عليه ، ولم تختبروه في مراحل العمل ! فلو اقتربتم منه ولمستموه ، لما وجدتم في أصالته ترديداً .

هدى للمتقين :

أول ما يتبادر للذهن في معرض معرفة القرآن والتقرب اليه هو ان نعرف أولاً : لماذا نزل القرآن ، وما هي ماهيته ؟ ولا يخامرنا شك في اصالته ، لأن الكتاب الذي لا نعرف سبب كتابته وما هو هدفه ، لا نستطيع أن نعطي فيه رأياً .

فلننظر الآن أي كتاب هذا ولماذا ؟ أهو كتاب في الطب ؟ في الفلسفة ؟ في التاريخ ؟ في الرياضيات ؟ لا ، ليس أيّاً من هذه . فماذا إذن ؟ إنه كتاب هداية .

انه هدى :

فمن الذين يهديهم هذا الكتاب ، أيهدي الجميع ؟ أفلا يعود هناك أي ضال بعد نزول القرآن ؟ وهل سيهدي الناس جميعاً بالاجبار ؟ كلا . فهو وإن لم يهد الناس جميعاً ، فانه سيكون سبباً لضلالة بعض آخرين ؟ وذلك كما يقول هو :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾^(١) .

ولكن ينبغي ألا ننسى بالطبع ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ .

(١) سورة البقرة - آية : ٢٦ .

والفاسق هو الذي يخرج عن طريق الفطرة الانسانية .
وفي هذا المعنى يقول مولوي :
« ادع الله ان يجعلك تحيا
في نور هذه الأمور لتصل الغاية
فقد ضل بالقرآن كثيرون
اذ بهذا الجبل هبوا في قعر بشر
ولكن الجبل لا ذنب له أيها العنيد
إنما أنت نفسك لم ترد الصعود » (١)
وهو بهذا يشير الى أن القرآن جبل الله .
فالقرآن إذن هدى للمتقين ، والمقصود بالمتقين

(١) الفسق من فسقت التمرة ، وهي ان تضغط التمرة فتخرج
النواة ، أي انشقت التمرة فخرجت النواة . (وقد جاء في
القاموس المحيط : فسقت الرطبة عن قشرها ، خرجت ،
كانفسقت . قيل : ومنه الفاسق ، لانسلاخه عن
الخير - المترجم) .

اَزْ خُدا مِي خِوَاهُ تَا زَيْنُ نُكْتِهَ هَا
دَرِ نَوْرُ زِي وَرِ سِي دَرِ مُنْتَهَا
زَانِكِهَ دَرِ قُرْآنِ بَسِي كُمَرِهَ شُدَنْدِ
زَيْنِ رَسَنِ قَوْمِي دَرُونِ چِهَ شُدَدْ
مَرِ رَسَنِ رَا نِيَسْتِ جُرمِي اِي عَنُودْ
جُونِ تُرَا سُودِ اِي سَرِ بِالا نُبُودْ

(الطاهرين) وهم الباقون على فطرتهم الأولى . وهذا موضوع بحثناه في مكانه ، وسوف نبثه مرة أخرى . فالقرآن ، على وجه العموم ، يرى أن كل انسان يولد طاهراً ، أي انه مجهز بتقوى ذاتية ، ولكنه قد يتلوث بالتدريج بمفاسد المحيط والبيئة ، فيخرج عن باطن الفطرة ، فيكون مسخاً .

يقول القرآن ، انه لو بقي الانسان على فطرته الأولى لأوصله هذا الكتاب وهداه الى القصد والغاية ، بمعونة كل ما فيه من بذور الكمال والفضيلة .

الذين يؤمنون بالغيب :

أول ما يهدي القرآن اليه هو أنه يهدي الانسان الى الايمان بالغيب . والغيب والشهادة مصطلحان من مصطلحات القرآن .

عالم الوجود ، من حيث وجهة نظر القرآن ، ليس منحصراً بالأمور التي تحسها فحسب ، بل ان المحسّات هي الطبقة الخارجية من العالم ، والقسم الأعظم منه وراء ذلك . فالمحسّ يسمى الشهادة ، وغير المحسّ اسمه الغيب .

إن ما يسميه الفلاسفة عالم الطبيعة ، من شجر ، ووزد ، وبحار ، وصحارى ، ومجرات ونجوم ... وكل ما

يراه الانسان أو يشمه أو يحسه عموماً ، هو ما يسميه القرآن عالم الشهادة .

ولو كان العالم هو كَيْل هذا ، لكان منظور الانسان منظوراً خاصاً ، أي انه كان يرى الانسان يولد ، ويعيش مدة من الزمن في هذه الدنيا ، ثم يموت ويتلاشى ، ولم يكن يرى غير هذا شيئاً ، فلا يرى له بداية ولا نهاية ، ولا يخطر له أن يسأل : من أين ظهر هذا الانسان ، وإلى اين سوف يذهب ؟ .

انما رسالة القرآن هي أن يخرج الانسان من هذه النظرة الضيقة ، فيطلعه ويجعله يؤمن بأن عالم الشهادة هذا ليس سوى قشر الوجود ، وانما الوجود الحق العظيم هو ما وراء ذلك .

افضل مثل نضربه لعالم الغيب هو الانسان نفسه . فجسم الانسان من الأمور التي يحسه الانسان كما اننا نعرف النفس ايضاً ، ههنا قسمان من عالم الشهادة . ولكننا لا نحس نفس الآخرين ، فنفسهم بالنسبة لنا من عالم الغيب ، اذ اننا حتى لو قضينا عمرنا مع غيرنا ، فسنسمع صوته ، ونرى لونه ، ونلمس جسمه ، ولا شيء غير هذا ، فنفسه ستظل خافية علينا دائماً ، فاذا اطلعنا على ما يدور في خلده فذلك لأننا نستنتج ذلك من حديثه

معنا ، وإلا فليس باستطاعتنا أن نعرف مكنونات ضميره
بصورة مباشرة ، ولا ما في قلبه .

يقال ان لنا نفساً ذاتية المعرفة ، وهو ما نعبر عنه
بقولنا : إننا هكذا نفكر ، ونحس هذا ، ونحب الشيء
الفلاني ، ونكره الشخص الفلاني . وثمة نفس غير ذاتية
المعرفة ، وهي تؤلف القسم الأعظم من وجودنا .
فالإنسان نفسه ، أكثره غيب وأقله مشهود .

والقرآن يرى هذا في العالم كله ، ويمنح الإنسان
منظوراً جديداً . فالملائكة ، واللوح المحفوظ ، والعرش ،
والكرسي ، كلها تتعلق بعالم الغيب وباطن هذا العالم ،
وعلى الرغم من اننا لا نحسها بحواسنا فاننا لا نستطيع
انكارها ، بل لا بد من الاعتقاد بأن عالم الغيب هو ما
تعجز الحواس عن احساسه ، وان ما لا تعجز عن
احساسه ، فهو العالم المشهود .

ويقيمون الصلاة :

بعد الايمان بالغيب يأتي موضوع اقامة الصلاة . يمكن
القول ان الأصل الأول ، وهو الايمان بالغيب ، يتعلق
بالنظام الفكري العقائدي عند المسلم ، والأصل الثاني
يرتبط ببناء الذات ، والأصل الثالث هو الانفاق ، ويتعلق
ببناء المجتمع ، وهذا ما سوف نعود اليه مرة أخرى .

تتضح من هذا أهمية الصلاة ، حيث اعتبرت من دعائم الدين ، وإذا كان لكل مذهب أسلوبه في تكوين اتباعه ، فإن العبادة على رأس برنامج التربية الإسلامية ، وعلى رأس كل العبادات الصلاة .

ولكن علينا أن نلاحظ أن القرآن لا يقول : يتلون الصلاة ، بل يقول : يقيمون الصلاة ، وهناك فرق بين أن نتلوا الصلاة وأن نقيمها . ففي المواضع التي يشير فيها القرآن على أنها تقرأ هي مواضع يراد بها الذم ، أي أن الكلام يدور فيها على الذين في صلاتهم شبهة .

ما معنى إقامة الصلاة :

إقامة الصلاة تعني إعطاء الصلاة حقها ، أي أنها يجب ألا تكون كالجثة التي لا روح فيها ، بل أن تجعل الصلاة العبد متوجهاً إلى الله خالقه حقاً . وهذا أيضاً هو معنى الآية :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ^(١) .

تذكرُ الله يساوي نسيان غير الله . لو أن الإنسان ظل حتى فترة قصيرة يناجي ربه ويطلب عونه ، ويحمده ،

(١) سورة طه - آية : ١٤ .

ووصفه بأنه الله ، وأنه الرب ، وأنه الرحمن ، وأنه الرحيم ، وأنه أحد ، وأنه الصمد ، وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فسيكون لذلك أرفع الآثار في نفسه ، وتبنى روحه على ما يريده الاسلام ، ولا يكون هذا بغير ذلك .

ومما رزقناهم ينفقون :

فما هو الإنفاق ؟ لا يعني الإنفاق بالطبع أن يجعل المرء من نفسه فقيراً خالي الوفاض - كما يظن بعضهم - بل الإنفاق هو بذل المكتنزات . والإنفاق قد يعني الإزالة . أي إزالة النفاق والفقر ، فهم يزيلون الفقر ويقضون على الحاجات .

والإنفاق يقيم روابط الانسان بالمجتمع على اسس مستقرة ، مثلما ان الأصل الأول ، الايمان بالغيب ، يرتبط بمنظور الانسان للعالم ، والأصل الثاني ، اقامة الصلاة يرتبط بالرباط الدائم بين الانسان وعالم الغيب .

هل يختص الإنفاق بالمال ؟ :

تقول الآية : ومما رزقناهم ينفقون . وللرزق معنى عام ، والكلمة تعني في القرآن الرزق المعنوي والمادي ، والعلوم والمعارف تدخل ضمن أرزاق الله ، وعلى الذين رزقهم الله منها أن ينفقوها ليستفيد منها الآخرون .

فلسفة الانفاق :

قد يحسب بعضهم ان فلسفة الانفاق الوحيدة هي ملء الفراغ الاجتماعي ، فيقولون لو أن الحكومات والدول تلتزم هذا الأمر فتشبيء مؤسسات تأخذ على عاتقها حل مشاكل الفقر ، فلن تبقى حاجة الى الانفاق الفردي لحلها . ولكن الأمر ليس كذلك ، أقصد ان فلسفة الإنفاق ليست ملء الفراغ لاجتماعي فحسب ، بل ان لها علاقة ببناء الانسان أيضاً .

إذ إن الانسان الذي يملك شيئاً فينتزعه من نفسه ليصبح مظهراً من مظاهر رحمة الله يكون قد قام بدور كبير في بناء نفسه وتكوينها . العطف يعني الميل نحو الآخرين ، والالتفات اليهم ، والتوحد معهم ، والأخذ بيدهم . وهذا بحد ذاته هدف أساس مهم . فاذا لم يسد المجتمع مفهوم كهذا ، يكون الأمر كالبیت اذا فقدت منه روح المحبة والعطف ، وأقيمت مقامها مؤسسات تربوية .

يقول (برتراند) راسل وأتباعه : وهل فلسفة حياة الأسرة غير أن يقوم الوالدان بتنشئة الأطفال ، وبالمحافظة عليهم ، ويتمريضهم عند المرض ؟ هذا الضرب من التربية كان سائداً في السابق القديم ، لكن بعد أن تكامل المجتمع ، كان لا بد من نقل هذه الوظائف

الأسرية الى مؤسسات حكومية كبيرة ، حيث يؤخذ الطفل من دار الولادة مباشرة الى دار الحضانة ، حيث يكبر مع غيره من الأطفال ، وهكذا تأخذ هذه المؤسسات مكان الوالدين والأسرة ، وتعود الحقوق التي كانت في عنق الأبناء تجاه الوالدين ، والتي كانت على الوالدين تجاه الأبناء ، الى روابط بين الشعب والدولة .

إن العيب الكبير في هذه المسألة هو الخروج من مسيرة الفطرة الانسانية . لقد خلق الابوان وفيهما عاطفة الأبوة والأمومة ، وخلق الأبناء وفيهم عاطفة البنوة ، أي ان الأم من حيث كونها أمأً تجدد في نفسها دافعاً يدفعها لكي تحتضن وليدها وتربيته بحنانها ، وهذه عاطفة فطرية ، بل انها أعمال تجري مجرى لا إرادياً ، حتى إن الأم لا تدري ما تفعل .

ومن جهة أخرى ، عندما تطبع الأم تلك القبلة الحنون على وجنة وليدها وتضمه الى صدرها ضمّاً فانها بذلك تربي فيه روح المحبة والحنان ، أي انه يتلقى حرارة حبها ويتقبله . ان هذا الحب والحنان يشحنان الطفل بالطاقة ، حتى اذا ما كبر ونمى ، سطع نورها في نظرات حب وحنان يلقيها على من حوله . لذلك فان بعض الذين يتربون في دور التربية ولم يروا حضن ام ولا حب أب ، ينقلبون الى مجرمين خطرين .

فالإنفاق من هذا القبيل أيضاً ، فينبغي ألا نقول ان فلسفته هي اشباع الجياع فقط ، وانه يمكن تحقيقه من باب آخر ، اذ ان فلسفة الانفاق هي بناء الانسان ، فالانسان تتربى روحه تربية انسانية في ظل العفو والتسامح والايثار .

وعلى ذلك فلا يستطيع امرؤ أن يقول انه يستطيع القناعة والاكتفاء بحبة لوز ولا يريد شيئاً أبداً . ويرى نفسه بناء على ذلك انه انسان كامل . كلا ، فمن يستطيع ان يملك ، عليه أن يملك ، وان يكمل نفسه بالانفاق . إذ ليس من الكمال في شيء ألا تملك وألا تنفق . بل ان تنال وأن تنتزع مما تنال وتنفق ، انه عامل من عوامل بناء الذات .

وهذا ما يتبين بوضوح من القرآن المجيد ، حيث يخاطب الرسول الكريم قائلاً :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُزَكِّيهِمْ ﴾^(١) .

في هذه الآية اشارة الى فلسفة البناء التي ذكرناها ، لا إلى الفلسفة الاجتماعية عن اشباع الجياع ، لأنها تقول خذ

(١) سورة التوبة - آية : ١٠٤ .

من أموالهم صدقة لكي تطهر بها نفوسهم ، وتوصلهم الى
الرشاد . مثل النبات الذي يزداد نمواً بتشذيبه ، وهذا في
الواقع شأن كل الموجودات ، فكلما أزلت عنها آفاتهما ،
ازدادت نمواً ورشداً .

والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك :

من صفات المتقين الأخرى الايمان بالوحي . فقد يتفق
أن يؤمن المرء بالوحي وألاً يؤمن به في الوقت نفسه . أي
انه يقبل بالقرآن كتاباً من أمهات الكتب في العالم ،
ويعتقد بأنه يحتوي على تعاليم منجية ، الا إنه لا يراه
كتاب وحي أنزله الله .

ولعل هذا أكثر ما يصح على غير المسلمين الذين
يعتقدون بالقرآن ويعدونه من بين كتب التربية والتعليم .

صاحب كتاب « في احضان السعادة » يذكر القرآن في
الفصل الخاص بالمطالعة والكتب ، على أنه من كتب
التربية العظيمة .

وشبل شميل (المسيحي) اللبناني العربي المادي
المذهب ، له ابيات جميلة بشأن الرسول والقرآن ، يوجهها
الى رشيد رضا صاحب مجلة المنار المصرية ، منها قوله :

إني وإن أك قد كفرت بدينه
هل أكفرن بحكم الآيات
ولكن هذا القبول بالقرآن ليس إيماناً به ، إذ الإيمان
به هو الاعتقاد بأنه وحي قد نزل من الله :
﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
الْمُنْذِرِينَ ﴾ (١) .

لا بد من الإشارة الى ان الايمان بالغيب قد شمل
الوحي أيضاً ، وما ورد ذكره إلا من باب التفصيل بعد
الاجمال ، لأن مسألة الوحي ليست بمثل وضوح مسألة
(الله) فوردت ثانية .

وبالآخرة هم يوقنون :

كلمة الآخرة مؤنث الآخر ، وهذه ضد الأول ومؤنثها
الأولى . والسبب في ايراد الكلمة في القرآن بصيغة المؤنث
هو أن هذه الصفة سبق أن وردت لوصف (السدار) أو
(الحياة) ، فوردت مؤنثة ، لتبعيتها للموصوف .

وقد تأتي « الآخرة » في قبال « الدنيا » وقد تأتي في
قبال « الأولى » . وكلمة « دنيا » يحتمل ان تكون من مادة

(١) سورة الشعراء - آية : ١٩٤ .

« دَنَوَ » بمعنى : قرب ، وقد تكون من مادة « دَنَى » بمعنى :
الدون . فإذا كانت من الدنو فتعني هذه الحياة الأقرب ،
وبذلك يكون معنى الآخرة هو الحياة الأبعد . وإذا كانت
من (دَنَى) ، فتعني هذه الحياة التي هي في الأدنى ، فتكون
الآخرة هي الحياة ذات المرتبة الأعلى .

في سورة « الضحى » تقع الآخرة في قبال الأولى ،
حيث يقول الله تعالى ، في معرض تعزية الرسول على
انقطاع الوحي :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ، وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ
لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ أي ان نهاية اعمالك خير من بدايتها ،
أي انك كلما تقدمت اقتربت من الكمال الأسمى .

على كل حال ، « وبالأخرة هم يوقنون » تعني الذين
يؤمنون بوجود حياة أخرى وراء هذه الحياة ، وهي حياة
الثواب والعقاب .

والاعتقاد بالآخرة اعتقاد بالخلود ، إذ الفرق بين
الحياتين هو أن هذه تنتهي الى نهاية ، والآخرة خالدة لا
نهاية لها ، سواء أكان الانسان فيها شقي أم سعيداً .
صحيح أن شقاء بعضهم وقتي ، الا انهم يخلّدون بعد
ذلك في سعادة دائمة . وقد وردت كلمة الخلود مرات
عديدة في القرآن .

إن الإيمان بالخلود من سمات الأديان الالهية ، وهي من الأفكار القادرة على توجيه العالم ، ذلك لأن المذاهب المادية التي لا تؤمن بالخلود ، وترى الانسان كالفقاعة التي اذا انفجرت ذهبت هباء ، لا تعني سوى اللاشيئية وسوء الظن بالوجود .

وهذا هو الذي يقلقهم أشد القلق ، حتى ان بعض الماديين لجأ مؤخراً الى حيلة ينقذ بها مذهبه من اللاشيئية هذه .

يقولون : صحيح ان الفرد فانٍ إلا انه يستمر في مسيرته ضمناً بتقدم المجتمع عن طريق التكامل . فإذا ما قُتلنا انا وأنت ، فانا نكون خالدين ما دام الطريق خالداً .

من الواضح أن مقولات كهذه ليست سوى محاولات للدفاع عن فلسفتهم . ولكن الذي يؤسف له حقاً هو أن بعض الناس يسعون الى مطابقة مفاهيم القرآن مع هذه التخرصات ، فيقولون ، مثلاً ، إن « بالآخرة هم يوقنون » تعني انهم يؤمنون بنظام أكثر تكاملاً في هذه الحياة ، أي ان الفرد ليس خالداً ، بل النوع هو الخالد . لكننا نقول لهم إنه إذا قلنا بعدم خلود الفرد ، فلا بد أن نقول بعدم خلود النوع ايضاً ، إذ انه بموجب الحسابات التي أجراها علماء الفيزياء ، يكون قد مضى على الأرض عدة ملايين من

السنين ، وسوف يأتي يوم لا تكون فيه ارض ولا انسان ،
فما معنى خلود النوع في هذه الحالة ؟ .

أولئك على هدى من ربهم :

إن الله الذي يربي العالم وينميه ، يرشد كل الكائنات الى
طريق الكمال ، فبعض يهديهم هداية تكوينية ، وبعض
يهديهم هداية تشريعية ، أي عن طريق الانبياء
والمرسلين ، ولكن هؤلاء هم وحدهم الذين يحق لهم بلوغ
الكمال عن طريق الهداية التشريعية .

وأولئك هم المفلحون :

هؤلاء وحدهم هم الناجون ، وما من أحد ناج
غيرهم . وإلى هنا ينتهي قسم الايمان في هذه السورة ،
ويبدأ قسم الكفر .

**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم
تنذرهم لا يؤمنون :**

علينا قبل البدء أن نشرح كلمتين ، ومن ثم نقوم
ببحث مفهوميها :

الكفر : وهي مأخوذة من مادة « كَفَرَ » ومعناها :

ستر . ولكن القرآن يطلق على الذي ينكر الدين اسم
« كافر » ، وذلك لأن الحقيقة جلية عندهم ، ولكنهم بدلاً
من أن يصدقوا بها ، يخفونها .

الإنذار : يخلط بعضهم بين معنى الإنذار والتخويف . فالتخويف هو أن يكون امرؤ ، مثلاً ، سائراً وإذا بأحدهم يفجر متفجرة على مبعدة منه ، فيخاف . والإنذار ليس هذا ، بل هو اعلان عن الخطر ، أي أنك إذا علمت بوجود خطر سوف يتهدد أحداً ، فأخبرته أنت بما ينتظره ، تكون قد أنذرته . فالرسل هم المندرون .

والآن فلننظر إلى القرآن . انه يقول عن الكافرين انهم لا يجديهم نفعاً ، سواء ان انذرتهم أم لا . فما معنى هذا ؟ أفهل يجب ان يكون الناس مؤمنين حتى يأتيهم الرسول بدعوته ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فانه من تحصيل الحاصل ، كما يقال .

بل قد جاء الرسل ليجعلوا الكفار مؤمنين ، لا ليجعلوا المؤمنين مؤمنين .

يتذرع بعضهم بهذا ليزعم أن القرآن يوجه المجتمع والتاريخ توجيهاً مادياً ، أي أنه يقول إن الناس مجموعتان . مجموعة مستغلة (بالفتح) ومجموعة مستغلة (بالكسر) . فالمجموعة الأولى هي التي تملك الاستعداد لتقبل الدعوة ، فجاءهم رسول فعلاً ، وكانوا هم الذين يخاطبهم . أما المجموعة الأخرى فليست موضع دعوة الرسول .

هذا كلام كله هراء ، فالقرآن للجميع ، والرسول
يخاطب كل الناس :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾^(١) .

والناس تعني عموم الناس ، ولا صحة للقول بأنها
تعني المحرومين منهم فقط .

عندما بعث الرسول ، كانت دعوته تشمل الأسود
والأبيض ، المستعمر والمستعمر ، الغني والفقير ، وغيرهم
جميعاً ، فما معنى الآية إذن ؟ .

إذن كلمة « كافر » لا تطلق في القرآن - إن لم نقل في
كل الموارد ، ففي أكثرها - على كل من لم يكن مسلماً ، بل
إنه يقصد بالكافرين أولئك الذين جاءتهم الرسل ودعتهم
إلى الحقيقة التي اكتشفت لهم ، ولكنهم واجهوا الرسل
وأنكروا . أي إن الناس ، ما لم تأتهم الرسل ، لا يكونون
مؤمنين ، ولا كافرين ، ولا منافقين ، بل هم الناس ، كل
الناس .

ولكن الناس ، بعد أن تأتهم الرسل ، ينقسمون إلى
ثلاثة أقسام : فقسم يؤمن ، وقسم ينكر ، وقسم يتظاهر
بالقبول .

(١) سورة الأعراف - آية : ١٥٨ .

فالمقصود بالكفار في الآية الشريفة ليس الذين لم
يسلموا من قبل ، بل الذين وصلتهم دعوة الرسول وعرفوا
الحقيقة ، ولكنهم خالفوا عقولهم وحكمتهم وأنكروا
الدعوة :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا
وَعُلُوًّا ﴾ (١) .

إن من طبيعة الانسان المنفتحة نفسه على تقبل
الحقيقة ، ان يتقبلها إذا ما تكتشف له . ولكن الذي يورد
الانسان موارد الهلكة ، هو أن يقف موقفاً مناوئاً
للحقيقة .

هنالك اناس كثيرون هكذا هم ؛ يتخذون مواضعهم
مع المناوئين للحقيقة . وقد رسم القرآن لهؤلاء لوحة
رائعة ، حيث يقول :

﴿ وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ
فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (٢) .

إنهم يفضلون أن ترجهم السماء بالحجارة على أن

(١) سورة النمل - آية : ١٤ .

(٢) سورة الأنفال - آية : ٣٢ .

يعترفوا بالحق . أي بدلاً أن يقولوا ربنا إن كان هذا حقاً
ومن عندك ، فوفقنا لقبوله ، يقولون : إن كان حقاً
فامحنا .

وهذا هو معنى مناوأة الحقيقة . فأناس من هذا
القبيل ، لا تنفع فيهم النذر ، ولا تفيدهم شيئاً . فهؤلاء
مقصرون ، لا قاصرون ، كما يصطلح عليهم الفقهاء .

بناء على ذلك ، إن من لم يكن مسلماً ، لا يستلزم
بالضرورة أن يكون كافراً ، أبداً . إنما الأمر كما قلنا .
والكفر في مصطلح القرآن يعني الإنكار ، وستر الحقيقة .
والكفار هم الذين يتخذون في جبهة ضد الأنبياء
والمرسلين ، ويناثونهم من مواضعهم السلبية هذه .

قد يتبادر الى الذهن سؤال عن الذين لم يعرض عليهم
الاسلام ولا أي دين آخر ، ولم يظهروا ، بالطبع ، مخالفة
ولا موافقة ، فماذا يكون هؤلاء ؟ .

الجواب هو إن هؤلاء ليسوا من المؤمنين ، ولا ريب ،
فلا يشملهم أحكام المؤمنين الخاصة ، ولكنهم ، في الوقت
نفسه ، لا تشملهم كذلك آيات مثل هذه الآية . في
الحقيقة ، إن دعوة الرسل ، هي التي توجد تلك الأقسام
الثلاثة من الناس : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين .

الكفر المقدس :

لا بد ان نشير هنا الى انه ما دام أصل كلمة الكفر يعني ، السّر والإنكار والوقوف موقف المناوئ ، فانها قد ترتدي احياناً لبوساً مقدساً في القرآن ، أي إنها عندئذ تعني الوقوف ضد الباطل والكفر به . وأوضح ما يكون هذا في آية الكرسي :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

أي إن على كل مؤمن أن يكون كافراً ايضاً ، فما دام في موضع الحق ، لا بد له ان يكون من موضعه هذا ضد الباطل ، فينكره . وهذا هو الكفر المقدس .

يعتقد الشيعة إن فروع الدين عشرة ، فيكون التسلي هو الفرع التاسع ، والتبرؤ هو الفرع العاشر . أي إن على كل فرد أن يؤمن بولاية علي بن ابي طالب . إلا أن هذا وحده لا يكفي ، بل يجب ان يكون لهذا جانبه السلبي في الوقت نفسه ، أي عليه أن يتبرأ ايضاً من كل ما هو ضد علي وخط سيره . فههنا ايضاً لا يكفي الايمان بالله ، بل يجب ان يصاحب ذلك انكار الطاغوت والكفر به .

(١) سورة البقرة - آية : ٢٥٦ .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾ :

عند الانتهاء من كتابة رسالة ما ، فانك تختتمها بتوقيعك ، أو بختمك ، وبذلك لا تستطيع ان تضيف اليها شيئاً آخر . يقول القرآن إن قلب الانسان مثل الرسالة التي تكتب فيها السطور بالتدريج ، وقد تكون جيدة أو رديئة ، الى ان تصل حيث تنتهي ، فتختتمها ، ولا تعود تستطيع اضافة شيء عليها .

فدعوة الرسول لأمثال هؤلاء لا تنفعهم شيئاً ، ولا تؤثر فيهم ، فيقول الله لرسوله : كف عن دعوتهم . وليس هذا لأن الدعوة منذ البداية لم تؤثر فيهم ، بل لأنهم قد تقولبوا ، فقد سمعوا الدعوة وألقيت عليهم الحجة ، ولكنهم رفضوا وأنكروا ، فظلت قلوبهم على هذه الحال .

يرى القرآن في الانسان كائناً دائم التحول والتبدل ، وما سمي قلبه بالقلب إلا لتقلبه . وبالطبع ليس المقصود هو قلب الانسان الطبيعي ، بل هو تلك الروح ، أو النفس ، التي لها في كل لحظة حالة جديدة . يصف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) القلب ، فيقول :

« مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ فِي الْفَلَاةِ تَعَلَّقَتْ فِي

أصل شَجَرَةٍ يُقْلَبُهَا الرِّيحُ ظَهراً لِبَطْنِ «(١)» .

لقد ضَمَّنْ مثوي هذا الحديث في بيتين ، وبالمعنى
نفسه :

كُفْتُ بِتَغْمِيرِ كِهْ دَلِي هَمْجُونُ پَرِي اَسْتُ
دَرِ بِيَابَانِي اَسِيرِ صَرَصَرِي اَسْتُ
بَاذِ پَرِ رَاهِرُ طَرَفِ رَانْدُ كِرَافِ
كَرْ جَبُ وَكَرْ رَاسْتُ بَاَصْدُ اِخْتِلَافِ

لا يكون الانسان في لحظتين بحالة واحدة ، فهو تحت
تأثير اعماله قبل أي شيء آخر ، فالعمل الساطع يضيف
عليه نوراً ، والعمل المظلم الكالح يسلب الانسان نوره
ويبقيه في ظلام . إن العمل الطيب يهب الانسان لطفاً
يجعله سريع التقبل للنصيحة وللحق وللحقيقة . أما
الأعمال التي تخالف فطرة الانسان ، اعمال الكافرين ،
فانها تورث القساوة في القلب ، وقد تحيل قلبه الى قطعة
سواد ، وهي التي يصفها القرآن بأنها قد ختم عليها ،
وانتهى أمرها ، إذ أن أصحابها يرون بأم أعينهم ، ثم
يلوون كشحاً ، كأن ستاراً قد ضرب على أعينهم ، وعلى
أبصارهم غشاوة .

(١) نهج الفصاحة والجامع الصغير ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

هذه آثار الكفر ، لا أسبابها . وبهذا البيان تحل كل المسائل .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُنَّ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) .

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين :

لما كان النفاق أخطر من الكفر ، فإن القرآن المجيد لم يذكر هنا في الكفر سوى آيتين ، ولكنه أورد آيات عدة بشأن النفاق . ولعل هناك ١٣ سورة ورد فيها ذكر

النفاق والمنافقين في صورشتي، واختص القرآن المنافقين بسورة كاملة هي السورة ذات التسلسل ٦٣ ، واسمها « المنافقون » .

ما النفاق ؟ :

النفاق يعني ان يكون المرء ذا وجهين ، أي أن يكون في الباطن شيئاً ، وفي الظاهر شيئاً آخر . إن هذه الخصلة ، وإن تكن مرفوضة ومذمومة ، إلا أنها في الوقت نفسه ناشئة عن كمال الانسان . أي ، لما كان الانسان ، من بين الحيوانات ، قد بلغ مرحلة أكثر تكاملاً ، فقد أصبح أقدر على التصنع والتظاهر . وما الحيوانات ، أو أكثرها ، بقادرة على النفاق ، باستثناء بعضها الذي وصل من حيث الذكاء الى مدى أبعد ، مكنها من أداء بعض التصنع . ولكن الحيوانات الأخرى ، كالطيور ، أو ذوات الأربع ، كالحصان ، والحمار ، ليس في مقدورها أن تتصنع . إنما القبط قد يكون له بعض هذه المقدرة ، حيث يستفيد ، عند محاولة اصطيد فأر أو عصفور ، من هذه المقدرة ، فيخفي نفسه ويصطاد فريسته ، وهكذا الثعلب ، ولذلك يوصف بالكر ، وكذلك يقال هذا عن الذئب التي تصل الى فرائسها بالحيلة .

ولكن ما من حيوان بقادر على التصنع مثل الانسان ،
الذي يسبغ على تصنعه الواناً من التعابير الأدبية ،
كالمخاتلة ، والمخادعة ، والمداهنة ، وكلها ضروب من
النفاق ، أو يقال ان فلاناً يشارك الذئب طعامه ، ويشارك
الراعي بكاءه ! .

وما قولي إن النفاق ناشيء عن تكامل الانسان ، إلا
لأننا نرى انه كلما كان الانسان أقرب الى البداوة ، كان
أقل نفاقاً . والطفل في صغره لا ينافق . ولذلك نراه اذا
كان في مجلس ، وقدم اليه طعام ، يتناوله اذا كان راغباً
فيه ، بل وقد يستعجله بالبكاء ، اذا أبطأوا في تقديمه له .
ولكن الكبير في مجلس كهذا ، على الرغم من رغبته
الشديدة في تناول الطعام ، فانه ، عندما يدعونه اليه ،
يقول : لا أشتهي . هذه كذبة لا يقوها الطفل .

كلما تقدم الانسان في مضمار التمدن ، ازدادت قدرته
على النفاق . لم يكن الانسان قبل الف سنة يعرف من
النفاق عشر معشار ما يعرفه اليوم .

أفلا تلاحظون ان الألفاظ والتعابير السائدة اليوم
أكثرها نفاقية ؟ خذ ، مثلاً كلمة (استثمار) فهي لغوياً
ذات معنى جيد جداً ، وقد استعملها القرآن بمعناها
الأصلي :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ (١)

فاستعمار من باب استفعال ، ومن مادة عمر ،
عمراناً . أي : انه طلب منكم عمران الأرض . لقد خلقكم
على سطح الأرض ، وكلفكم بعمرانها . فالاستعمار يعني
طلب العمران .

وحيثما كانت تذهب الدول الاستعمارية ، لم تكن
تقول لهم : اننا جئنا لنهب ثرواتكم ، وسلبكم خيراتكم .
بل كانوا يقولون : جئنا لنعمر دياركم . وكانوا فعلاً
يتظاهرون بفعل ذلك ، فكانوا يمهّدون شوارعاً أو
شارعين ، ولكنهم كانوا يسرقون من الشعوب آلاف
الأضعاف مما كانوا ينفقون ، وبهذا يستعبدون الشعوب .
وعلى ذلك ، فإن كلمة استعمار كلمة منافقة ، أي انها
على الرغم من معناها السليم . فإنها لا تستعمل بمعناها
الحقيقي .

ان الذين كانوا يصطلحون على تسميتهم بالمبشرين
المسيحيين كانوا في الحقيقة طلائع الاستعمار . أي انهم

(١) سورة هود - آية : ٦١ .

كانوا يمهّدون الطريق لدخول الاستعمار الى البلاد لاستعمارها . فكانوا يدخلون باسم التبشير بالدين المسيحي، فيشغلون الناس بأوصاف عيسى المسيح وأمه مريم العذراء ، وبعد مدة كان الناس يحسون أنهم أخذوا يفقدون ثرواتهم المادية تحت ستار الثروة الروحية .

يقول احد الأفارقة : يوم أن وطئت اقدم الأوربيين بلادنا ، كنا نملك الأرض ، وكانوا يملكون الأنجيل . ولكن بعد مضي ٤٠ - ٥٠ سنة رأينا انجيلهم في ايدينا ، وأرضنا في أيديهم . ذلك هو النفاق .

والحقيقة ، إن كثرة تناول القرآن لموضوع المنافقين ليس سوى تحذير لنا نحن المسلمين ، لكي نكون على حذر دائم من المنافقين ، ولئلا نقع فريسة غثائهم . فالمنافقون ليسوا محصورين بصدر الاسلام ، ففي كل زمان منافقون ، يتسربون في صفوف المسلمين ، متظاهرين بالاسلام ، ثم يطعنونه بالخنجر في ظهره .

لعلكم قد سمعتم باصطلاح « الرتل الخامس » الذي ظهر خلال الحرب العالمية الأولى . اذ كان لأحدى الدول جيش يتألف من اربعة (ارتال) تحارب بالأسلحة المألوفة ، ولكنها كانت قد سربت قبل ذلك مجموعة من الجنود الى داخل جيش العدو ، يستغلونه . يقال ان تأثير هذه

المجموعة كان أشد من تأثير الجيش العلني ، فأطلقوا عليه اسم الرتل الخامس ، إذ يتظاهر أفراده بالمحبة لأفراد العدو ، ولكنهم في الباطن يعملون لمصلحتهم .

فالقُرآن يقول إن الرتل الخامس يتهدد المسلمين ، وهم أولئك الذين يقولون : ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ يقولون أنهم يؤمنون بيوم القيامة ولكنهم يكذبون .

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا :

لم يقل « يخدعون الله » إذ ما من احد يستطيع أن يخدع الله ، ولذلك قال « يخادعون الله » . المخادعة ، من باب مفاعلة ، ومن احدى معانيها : انهم يسعون الى خدع الله ويحاولون ذلك ويريدونه .

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ :

ليس من الممكن خدع الحقيقة والواقع ، فمن يتصدى لخدع الحقائق ، فانه في الواقع يخدع نفسه . قد يستطيع المرء أن يخدع الطبيب ، ولكنه لن يخدع الطب . فهو يستطيع ان يكذب على الطبيب فيخدعه ، فاذا سأله ان كان قد استعمل الدواء السابق ، يقول نعم ، مع انه لم يستعمله ، ثم لا يتبع ارشاداته ، ويقول انه فعل . فانه لا شك قد خدع الطبيب ، ولكنه لم يخدع الطب ، بل لقد

خدع نفسه ، وذلك لأن الطبيب يصف الدواء بحسب وصف المريض المرض ، وهكذا يكون المريض هو المنافق فيزداد مرضاً ، وينتهي أمره .

والمسلمون أيضاً يمكن أن ينخدعوا ، اذ يتم الدخول اليهم عن طريق المكر والحيلة ، ولكن الخديعة لن تنطلي على الله ، رب الحق والحقيقة ، والمخادع سيكون هو المخدوع .

قد يكون في جملة « يخادعون الله » احتمال آخر ، وهو ان المنافقين ما كانوا يريدون ان يخدعوا الله ، اذ انهم لو لم يعتقدوا بالله لما فكروا في خدعه ، واذا كانوا معتقدين به ، فان المعتقد بالله لا يمكن ان يعتقد بإمكان خدع الله . وعليه ، فان هذه الجملة لا بد ان تكون من جملة تلك الموارد التي ينسب الله الى نفسه أعمال أصحاب الحق ، وأمثال هذا في القرآن كثير . ففي سورة الفتح (الآية ١٠) يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ .

لذلك فان الآية تعني : ان الذين يتصدون لخدع أهل الايمان ، يقومون في الواقع بخدع انفسهم اذ إن الذين يسировن على هدى الحق ، يكونون سائرين على الصراط المستقيم الذي توصل نهايته الى الله . انهم قد أسلموا انفسهم للحقيقة ، وان روح تسليمهم هذا هو الذي

ينجيهم ، حتى وإن بدا عليهم في الظاهر انهم في هذه الدنيا ليسوا من الشطار الأذكياء . أما الذين يدعون الشطارة والذكاء ، ويريدون ان يتقدموا عن طريق المكر والخديعة ، يحسبون أنهم قادرون على ذلك حتى في هذا المجال ، فيسعون الى خيّدع أصحاب الايمان لبلوغ أهدافهم .

ولكن بالنظر لأن الحق والحقيقة لا يمكن أن تنطلي عليهما خدعة ، حتى وإن أمكن خدع اصحاب الحق ، فإن خطط المخادعين سوف تنقلب عليهم انفسهم .

في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بما كانوا يكذبون :

يبين الله في هذه الآية اصل الحالة ومنشأها. أصل الحالة هو مرض القلب . انهم مصابون بأمراض روحية ونفسية .

ولقد وردت في القرآن آيات عديدة تشير الى امراض القلب :

مرض التكبر والاستبداد ، مرض التعصب للخرافات القديمة ، مرض اتباع الآباء والأجداد ، مرض اتباع الكبر والكبار . هذه بعض نماذج من الأمراض الروحية والنفسية التي تحول بين الانسان والرضوخ للحق ، بمثل ما

ان الفسق ، والفجور ، والتلوي ، تطمس استعداد
الانسان لتقبل الحق .

هؤلاء المرضى يزيد الله مرضهم ، وذلك لأن طبيعة
الروح تشبه طبيعة الجسم . فاذا مرض انسان يرجع الى
الطبيب للعلاج ، ولكنه إذا لم يمثل لأوامر الطبيب ، بل
نافق معه ، وكذب عليه فلا شك في انه سيزداد مرضاً .

لقد صنع الله تعالى هذا العالم بحيث تنمو فيه كل
زراعة ، إنما الانسان هو الذي عليه ان يختار نوع البذور
التي يذرهما ، فان شعيراً زرعت شعيراً تحصد وإن قمحاً
زرعت حصدت قمحاً وإن حنضلاً فحنضلاً حصيدك ،
وإن تمرأ فتمر ، وكما يقول القرآن المجيد :

﴿ كَلَّا تَمُدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾ (١) .

فالله يعين الجميع ، والعالم قد بني بحيث يسير كل نحو
تكامله ، الصالح والطالح (٢) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا
نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ .

(١) سورة الاسراء - آية : ٢٠ .

(٢) مع اختلاف واحد ، وهو ما سوف نبحثه في مكانه ، عند
البحث في كلمة « رب » بتفصيل أكثر .

سبق للقرآن أن ذكر بأن المنافقين يخدعون أنفسهم .
وهذه آية أخرى يتضح فيها خداع النفس عند المنافقين .
يقال إن الكذاب ، لكثرة كذبه وتكراره ، يؤمن
بالتدريج بصدق أقواله ، أو قد ينسى أنه هو الذي أشاع
تلك الأقوال والشائعات الكاذبة .

ومن ذلك قولهم : إن أبلهأ تضايق مما يصيبه من أذى
الأطفال ، فأراد يوماً أن يبعدهم عنه ، فأخبرهم ان في
الطرف الآخر من المدينة يوزعون بعض الخيرات من
الطعام ، فصدقه الصبية ، وانفضوا عنه ، وهرعوا الى
حيث قال . وما أن رأهم يتعدون عنه مسرعين ، حتى راح
يسرع وراءهم ، قائلاً في نفسه : لعل الأمر صحيح !

يقول القرآن هؤلاء هم الرتل الخامس الذي يتظاهر
بالولاء والمحبة للمسلمين ، ولكنه في الباطن يضمّر الشر ،
والفساد ، والأخلال بالمجتمع الاسلامي ، وأهداف
الاسلام المقدسة . وإذا طلب منهم أصحابهم أن يكفوا
عن الفساد ، يردون عليهم : إننا مصلحون ، ولسنا
مفسدين .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ :

لاحظوا كيف يستعمل القرآن الحصر . فمرة نقول :
زيد عالم . ومرة أخرى نقول : العالم زيد ، . وهذا يعني

ان زيداً هو وحده العالم في العالم ، وان غيره لا يعد من العلماء . فمعنى الآية هو أن هؤلاء هم وحدهم المفسدون ، وأن أي مفسد آخر لا يعد مفسداً بازائهم . أي ان الفساد قد تجسد في هؤلاء ، ولكنهم لا يحسون ذلك . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۚ ۞ ٢٠٣ ﴾

إذا طلب منهم سراً أن يتخلوا عن نفاقهم، وأن يؤمنوا مثل باقي الناس ، ردوا قائلين : إن الايمان والتدين يليق بعديي الاحسان والحق . أما نحن ، متنوري المجتمع ، كيف يمكن ان نؤمن مثل هؤلاء السفهاء ؟ .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ :

إن الأداة (ألا) في هذه الآية - وكما في ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ - تنبيه للمسلمين ان احذروا هؤلاء ، فانهم سفهاء ، وانهم في درجة من الظلام دون أن يدركوا ما هم فيه .

هنالك نوعان من الجهل : الجهل البسيط والجهل المركب .

الجهل البسيط : هو ألا يعلم المرء ، ويعلم انه لا يعلم ، وهذا جهل تسهل ازالته ، وذلك لأن المرء اذا لم يكن يعرف شيئاً ، وعرف انه لا يعرفه ، سيسعى حتماً

لمعرفته ، أو أنه ، في الأقل ، يستمع الى ما يقوله الآخرون
ويتقبله ان وجدته حقاً . فهذا ، على كل حال ، جهل لا
خطر منه .

الجهل المركب : هو ألا يعلم المرء ، وألا يعلم أنه لا
يعلم . وهذا جهل لا علاج له ، لأن غرور صاحبه يحول
بينه وبين ازالة الجهل ، وهذا ديدن معظم الذين يدعون
التنوير والفهم ، وهي دعوى اساسها عدم التنوير والفهم .
يشير ابو علي ابن سينا في كتاب (الاشارات) الى هذا ،
على ما أتذكر ، فيقول : « إياك وفطنة بترء » اي كن على
حذر من الذكاء الناقص . والقصد هو إن من الخير ان
يكون الانسان إما بسيطاً ساذجاً ، وإما عاقلاً مكتمل
النضج والفهم . فالساذج البسيط يعرف عادة هذه الصفة
في نفسه . أما ذوو الذكاء الناقص والذين يكونون أذكاء
أحياناً ، فانهم يحسبون أنفسهم في قمة الذكاء ، وأن كل
اعمالهم تتصف بالحكمة ، انما هؤلاء هم أكثر الناس حمقاً
وأشدهم عناءً .

للغزالي مأثورة يقول فيها : إن الوجود الناقص لأي
شيء خير من عدمه ، إلا العلم والمعرفة . أي اننا لو
ملكنا أي مقدار من الصحة ، أو من الثروة والجاه لكان
خيراً من ألا نملك منها شيئاً . وليس كذلك العلم

والمعرفة . فالإنسان الأمي خير من إنسان نصف أمي ، إذ إن هذا يظن أنه مثقف كامل المعرفة ، وعندئذ لا يسعى للاستزادة من العلم .

ثمة بيت شعر للشاعر « سنائي » على ما أظن يقول فيه :

« كل امريء يعاني من شيء

وعنائي أنا من أنصاف المجانين »^(١)

يريد أن يقول إن العقل كالعلم ، فاما أن يكون المرء عاقلاً تماماً ، أو عالماً تماماً ، فأنصاف العقلاء وأنصاف العلماء أشد ضرراً من فاقد العقل والعلم .

وكل مخادع عاش في المجتمع يكون عادة من هؤلاء (الأنصاف) من الناس ، أي من أصحاب أنصاف الذكاء ، لا كل الذكاء ، فالذكي الكامل ، إن لم يعتقد بشيء ، فإنه يدرك بذكائه أن السعادة والنجاح في الصدق . أما أنصاف الأذكياء ، والذين صادقتهم في حياتي كثيراً ، فيرون أن مكائبتهم تقتضي ألا يعاملوا أحداً بصدق ، وهؤلاء لا صديق لهم إطلاقاً ، إذ أنهم لا يثق

(١) رَنْجِشِرْ هَرْكَشِي زِيكَ جِيَزِ اسْت
رَنْجِشِرْ مَن زَنْيَم دِيَوَانَه اسْت

بهم أحد ، لأن الناس تعرف أنهم في كلامهم خبثاء ،
يتشاطرون .

والقرآن يري ان هؤلاء المنافقين هم من ذوي الجهل
المركب ، ويقول انهم لا يعلمون ، ولا يعرفون انهم لا
يعلمون ، لا يشعرون ، ولكنهم يحسبون انهم يشعرون .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى
شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾ .

وكما قال القرآن من قبل : ﴿ وما ينجذعون إلا
أنفسهم ﴾ يقول أيضاً : ﴿ والله يستهزيء بهم ﴾ أي انهم
يظنون انهم قادرون على السخرية من الحق وعلى خداعه .
ليس الأمر كذلك البتة ، بل الحقيقة هي التي تسخر
منهم ، فهم في نهاية الأمر يستهزأ بهم وحدهم .

وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ :

إنهم طغاة ، والله يزيد من انغمارهم في الطغيان حتى
تصيبهم الحيرة ويتتابهم الارتباك التام ، فلا يدركون ما
يفعلون .

الى هنا يكون القرآن قد اورد عدداً من صفات
المنافقين :

الأولى : هي ان المنافقين يتظاهرون ، فالتظاهر من

سمات المنافقين ، بحيث أنهم يتظاهرون بالايان أكثر مما يظهره المؤمن .

الثانية : هي انهم مخادعون ، مدهنون . وهذه من خاصة صفاتهم .

الثالثة : هي أنهم مصابون بمرض نفساني ، فيحسبون انهم بأعمالهم تلك يشفون مما فيهم من عقد نفسية ، ولكنهم ، على العكس من ذلك ، يشتد عليهم المرض ، وتزداد عقدهم .

الرابعة : أن الأمر قد اختلط عليهم بحيث أنهم يظنون أن في أعمالهم صلاح المجتمع ، أي انهم يلبسون أعمالهم الفاسدة لبوس الصلاح ، وهم يظنون أنها كذلك .

الخامسة : هي أنهم هم الحمق والسفهاء ويظنون ان غيرهم هم السفهاء .

السادسة : هي انهم ذوو وجهين ، ومن ذلك انهم يقولون شيئاً في هذا المجلس ، ويقولون ضده في مجلس آخر .

تلك هي صفات المنافقين التي وردت في القرآن .

هنا لا بد أن نشير الى عدد من النقاط :

١ - كلمة (الناس) : من الناس من يقول آمنا ...

فهذه الكلمة عامة ، وتشمل طبقات شتى ، كالغني ،

والفقير ، والعالم ، والجاهل ، والأبيض ، والأسود ،
والظالم ، والمظلوم ... الخ .

فإذا لم نكن نقصد أيّاً من هذه الطبقات ، والأنواع ،
ولا تهمنا أشكالها ولا ألوانها ، عندئذٍ نجيء بهذه الكلمة
لتشمل الجميع ، أي الإنسان بصرف النظر عن اللون ،
والشكل ، والطبقة ، والدين ، والعقيدة وباصطلاح
الفلاسفة : الإنسان غير المشروط .

لقد أيد المفسرون القدامى هذا المعنى لكلمة
(الناس) وهو ما نعتقد بصحته ، ولكن ثمة آخرون وقعوا
في السهو ، فقالوا إن كلمة (الناس) تطلق على فاقد
كل شيء ، أي الطبقة الكادحة ، الطبقة المحرومة . في
هذه الحالة تشمل الكلمة طبقة معينة ، ولا تشمل
الجميع .^١

إلا إن الأمر ليس هكذا ، وإنما معنى كلمة (الناس)
هو ما ذكرنا ، وما هو مقصود به في القرآن . هم الناس ،
دون اعتبار لوضعهم الخاص ، لدينهم ، لفقرهم ،
لغناهم ، للونهم ، لعلمهم ، لجهلهم . وعندما يقول
القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾^(١) فإنه لا يوجه

(١) سورة البقرة آية ٢١ .

الخطاب الى الطبقة المحرومة فقط ، وانما هو يخاطب الجميع . وكذلك قوله :

﴿لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا...﴾^(١) .

فالحج قد فرض على الناس كلهم ، لا على بعض دون بعض ، انما اشترط لذلك الاستطاعة .
كما ان كلمة (الناس) اطلقت في مكان آخر من القرآن على الكفار :

﴿اِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾^(٢) .

وهي تشير الى الحملة التي كان الكفار ينوون شنها على المدينة ، حيث اشيع ان (الناس) قد اجتمعوا لمهاجمة المسلمين ، وذلك لكي يلقوا الرعب في قلوب المسلمين .
كما ان (الناس) قد اطلقت في الآية التي نبحت فيها على المنافقين : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُوْلُ...﴾ والذين قالوا ان (الناس) تعني الطبقة المحرومة ، اضطروا الى القول بأن المنافقين جزء من الطبقة المحرومة ، وليس هذا صحيحاً ، فالمنافق يمكن أن يكون من أية طبقة . والجدير

(١) سورة آل عمران آية ٩٧ .

(٢) سورة آل عمران - آية : ١٧٣ .

بالذكر ان منافقي صدر الاسلام ، الذين عناهم القرآن ، كانوا من الأشراف في غالبيتهم . إن رئيس المنافقين على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان (عبد الله ابن أبي) وكان من أكبر شخصيات المدينة قبل هجرة الرسول إليها ، حتى ان أهل المدينة كانوا قد اتفقوا على اختياره ملكاً عليهم ، لكي يقضوا على الخلافات القديمة بين الأوس والخزرج ، فكانوا يعدون العدة لصنع تاج الملوكية له .

وفي تلك الفترة التي كان يرى فيها التاج في متناول يده ، ظهر الاسلام في مكة ، واتصل عدد من أهل المدينة بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واسلموا ، وطلبوا منه ان يرسل الى المدينة من يعلمهم أمور دينهم ، فأرسل الرسول مصعب بن عمير ، وأسلم عدد كبير من أهل المدينة ، وهكذا مهد الطريق لهجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إليها وكان حتماً ان تنهار كل استعدادات عبد الله بن أبي ، وتلاشى آماله ، فكان ان استشاط قلبه حقداً على الاسلام .

فعندما اسلمت الكثرة من أهالي المدينة ، لم يجد هذا الرجل بداً من التظاهر بالاسلام ، ولكنه في باطنه لم يسلم أبداً .

على كل حال ، فان كلمة (الناس) هنا ليست بمعنى المحرومين ، والدليل على ذلك هو عبد الله بن أبي ، هذا الذي لم يكن من محرومي المدينة ، بل كان من أشرف أشرافها .

٢ - النقطة الأخرى هي إنكم لا ريب قد لاحظتم ان القرآن المجيد قد أورد ذكر الكفار مرتين ، وذكر المؤمنين ثلاث مرات أو أكثر ، ولكنه عندما يصل الى المنافقين ، فانه يذكرهم في حوالي ١٣ آية . وقد بدأ عدداً منها بـ (ألا) التحذيرية . فلماذا يعني القرآن كل هذه العناية بتعريف المنافقين ؟ .

هذه المسألة لم يغفل عنها المفسرون ، اذ يقولون : على الرغم من ان المنافق يدخل ضمن الكفار ، الا انه ، كما ورد في القرآن ، أخطر على الاسلام من الكافر كثيراً . فالكافر - حسب تعريف القرآن - هو الذي لا يقبل بالله وبالرسول ، وهو صادق في إنكاره ، أي انه يعلن رأيه هذا ، فيعرفه الناس . أما الذي يخفي ما في قلبه ، فيقول بلسان خلاف ما في قلبه ، فهذا خطره كبير ، لأنه يخدع المسلمين ، بينما الكافر لا يخدع الناس ، لذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (١)

لقد رأينا في التاريخ أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يحارب ويتنصر ، ولكن (عليه السلام) لا يستطيع أن يتنصر مثل رسول الله ، والسبب هو أن الرسول كان يحارب الكفار ، وعلي كان يحارب المنافقين ! أي إن الرسول كان يحارب أناساً كانوا صادقين في سلوكهم وصراحتهم ، وعندما كان يقول لهم : قولوا لا إله إلا الله ، كانوا يرفضون ذلك . كان أبو سفيان ينادي : « أعل هبل ، أعل هبل » ، وكان الرسول ينادي : قولوا الله أعلى وأجل . وهكذا كان الله يقف وجهاً لوجه مع هبل ، فكانت النتيجة معلومة ، انتصار الله وهزيمة هبل .

أما علي (عليه السلام) فقد كان يواجه أمثال أبي سفيان ، ولكن شعاراتهم كانت شعارات اسلامية . اذ لو كان معاوية - وهو الذي كان يسعى للوصول الى مرامي أبيه - قد رفع ، مثل أبيه ، شعار أعل هبل لكانت هزيمته محققة . ولكنه الآن يرتدي لبوس الاسلام ، ويذرف دموع التماسيح على الاسلام ويقول :

(١) سورة النساء - آية : ١٤٥ .

﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ .

كان ينادي ان خليفة الرسول عثمان ، قد استشهد ، أيها الناس ، ايجوز ان يذهب دم خليفة الرسول هدرأ ؟ وهكذا راح يؤلب الناس للانتقام من قتلة عثمان ، ثم أعلن إن علياً كان على رأس اولئك القتلة . مع ان قاتل عثمان الحقيقي هو معاوية نفسه ، وهذا كلام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة : « وهم يطلبون دماً هم سفكوه » . ثم يخاطب معاوية قائلاً : « ... فانك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلتته حيث كان النصر له » .

ذلك انه كان قد بعث بعيونه الى المدينة ليحصوا على عثمان حركاته ، فما أن يقتل حتى يرسلوا بقميصه الملوث دماً الى الشام . وقد نفذت العيون أمره ، وبقي القميص زماناً معلقاً في مسجد الشام ، حيث كان معاوية يتباكى عنده ويلطم صدره تحت أنظار الناس ، فيشير السذج منهم ، ويحركهم باسم الله والله ، فيريقون دماءهم ويقتلون .

ثم في موقعة صفين ، يوم أدرك أن الهزيمة وشيكة ، لم يتورع عن اللجوء إلى الخديعة والنفاق ، فأمر بالمصاحف

رفعت على الرماح ، زاعماً انه يقبل بحكم القرآن ، فيما كان علي (عليه السلام) ، وهو العالم بالخدعة المخفية في ذلك ، ينادي أن اضربوا وتقدموا . غير أن الجهلة من الأخيار الذين لم يدركوا خط المنافقين ، صرخوا بأنهم لا يحاربون القرآن ، وأن استمرارهم على الحرب محاربة للقرآن . وهكذا نجا الأمويون .

ذلكم هو خطر النفاق الذي يحذر منه القرآن (بـ أ لا) التحذيرية . لم يواجه الاسلام كفراً الا وانتصر ، ولم يواجه النفاق الا وهزم ، لأن النفاق يستغل قوة الاسلام نفسها ويستخدمها ضده ، أي انه يرتدي لباس الاسلام ، ويقاتله به .

٣ - ثلاثة الأمور التي أود الإشارة اليها هي ان خطر النفاق كان دائماً يهدد الاسلام ، ولكنه لم يكن يظهر بالشكل ذاته في كل مرة ، بل كان في كل عصر وفي كل زمان يظهر بشكل جديد .

قبل ايام كنت اطالع كتاباً يبدو انه حديث الانتشار في الأسواق ، وقد ظهر لي منه ان هناك أشخاصاً يبشرون بالمادية ، بالعلم أو بغير علم ، تحت ستار القرآن .

فالكتاب يبدأ بسم الله الرحمن الرحيم ، وكله عن الله ، والرسول ، والقرآن ، ولكن عندما تصل الى محتوى

الكتاب تجده يخفي ماديته تحت ملامح القرآن .
أي إن ذلك المادي نفسه الذي ظن قبل بضع سنوات
انه قادر على محاربة الدين في ايران ، فراح يقول ان الله
كذب ، والرسول كذب ، والوحي كذب ، ولكنه هزم شر
هزيمة في قبال قوى الدين ، جاء الآن ، بعد أن يش من
أسلوبه ذاك ، بأقواله نفسها ولكن بصيغة اسلامية . أي
انه ينكر وجود الله ولكن بشكل آخر ، وكذلك ينكر يوم
القيامة ، فحيثما يكون الكلام على يوم القيامة والآخرة ،
تكون الاشارة الى نظام أعلى ، وإذا كان الكلام على
الدنيا ، فتكون الاشارة الى عالم أدنى .

فالدنيا بلسان القرآن هي عنده ذلك الظالم
والطاغوتي ، الذي اذا تغير أصبح : الآخرة ! .
وهذه بالطبع كلمة حق يراد بها باطل . فما من شك
في أن في الدنيا أنظمة سيئة ، فلا بد من محاربتها ، واقامة
أنظمة اعلى مكانها ، وهذا ما نراه في التعابير القرآنية أيضاً
ولكن القرآن لم يقصد بالدنيا والآخرة نظاماً أدنى ونظاماً
أعلى ، أبداً . بل ان الدنيا والآخرة ، والنظام الأدنى
والأعلى مواضيع متباينة مختلفة .

نلاحظ انه لا يقول ان الآخرة كذب ، ولا ينكر خلود
الانسان في العالم الآخر ، ولكنه يصف الخلود بمثل ما

يصفه الماديون ، من انه التكامل ، أي ان فرداً يروح ،
ويأتي آخر بمكانه ، ويروح الثاني ويأتي الثالث ، وهكذا
يكون الجنس البشري باقياً ، وهذا هو الخلود .

هذا هو القرآن الذي رفعه معاوية على الرمح ، انما
قيد تغيرت ملامحه . وهذا هو النفاق الذي يظهر في كل
عصر بشكل جديد ، دون أن يعرف المسلمون انهم
مخدوعون بذلك القرآن المرفوع على الرمح ، وكلما ظهرت
جماعة معادية للدين ، البست عداها لباس الدين ، ولكن
اذا تنبه لهم المسلمون واستفاقوا ، لذهبت خطط أولئك
أدراج الرياح .

والقرآن يرثي لهؤلاء حالهم ، فيقول :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا
رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

فهؤلاء على الرغم من انهم لم يربحوا شيئاً ، فانهم قد
أصيبوا بأضرار بالغة ، ولم يجدوا لأنفسهم مخرجاً ، فظلوا
ضائعين .

يسأل الامام (عليه السلام) عن العقل ، فيقول :

« الْعَقْلُ مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ ، وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجَنَانُ » .

فيسأله السائل : إذن ما هذا الذي كان عند معاوية ؟

فيكون جواب الإمام : « تلك النكرى والشيطنة » ، وهما والعقل شيان مختلفان .

ويقصد الامام بذلك الدهاء والشيطنة والنفاق ، أما العقل فهو الذي يهدي الانسان الى المعنويات والانسانية .

* * *

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بُكْمٌ عُمي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاءٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ .

بعد أن اشار القرآن إلى كيد المنافقين وخداعاتهم ، ووصفها بأنها سلسلة اعمال لا أثر لها ومهزومة ، وقال ان هؤلاء أرادوا أن يكونوا الخادعين ، فكانوا المخدوعين ، ضرب مثلين لهذا النوع من الكيد والمخادعة ، نرى فيهما وجهاً مهماً من وجوه (فلسفة التاريخ) في نظر القرآن ، بحيث يمكن القول بأنه أصل من أصول الفكر القرآني ،

ونظرة توحيدية من نظراته الى العالم . ونحن بالنظر لكوننا نجد هذا من المباحث المهمة والرئيسة ، نجدنا ملزمين أن نورد شرحاً أوفى لهذا الموضوع .

هنالك نظريات وآراء متعددة بخصوص العالم عموماً ، وبخصوص الانسان ، والمجتمع البشري ، منذ بدايته وحتى مستقبله الآتي ، من حيث الخير والشر ، والجودة والرداءة ، والحق والباطل ، وهل إن وجود العالم حق وخير ، أم إنه هباء وباطل وشر ، أم إنه مركّب ، نصف حق وخير ، ونصف شر وباطل ، وهل إن ما يحكم حياة الإنسان خير أم شر ، حق أم باطل ، أو إنه نصف حق ، ونصف شر ، فإذا قلنا بكليهما ، فلمن تكون الأصالة ، للحق أم للباطل . . . الخ .

سوف نبدأ أولاً بذكر النظريات التي قالها الفلاسفة والمفكرون وعلماء الاجتماع ، ثم نذكر وجهة نظر القرآن التوحيدية بشأن كل ذلك .

لا شك في ان حياة البشر حياة خليطة ، أي ان حياة الفرد وحياة المجتمع خليط من الخير والشر ، فيها العدل وفيها الظلم ، وفيها الصدق وفيها الغش والخداع . حياة البشر إذن صفحتان : صفحة نيرة ، وأخرى مظلمة .

إن اختلاط النور بالظلمة ، والعدل بالظلم في حياة الانسان ، من العمق بحيث ان الانسان كان موضع كلام

في الملكوت الأعلى ، قبل خلقته على الأرض ، وأنه قد نظر اليه من منظورين اثنين .

عندما يعلن الله تعالى للملائكة قائلاً : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ارتفعت الأصوات في الملكوت الأعلى تساءل عن الحكمة في خلق كائن مفسد دموي : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ لقد كان الملائكة ينظرون الى الانسان من وجهة نظر واحدة ، هي كونه مخلوقاً مفسداً ، سافكاً للدماء ، فتساءلوا - إن لم نقل اعترضوا - عن الحكمة في خلقه .

إن لهذا جانبه الآخر ، فهذا الانسان مخلوق لم يستطع حتى الملائكة أن يصلوا الى أسرار وجوده وسبرها ، وإن الله هو وحده الذي يعرف اسرار وجوده . ولكن الله لم يقبل هذا من الملائكة ، ورفض قولهم ، ورد عليهم قائلاً : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ثم خلق الانسان ، وفي اختبار استعراضي واحد أثبت لهم انهم كانوا مخطئين .

فاذا ما تجاوزنا ذلك ، نجد ان فلاسفة البشر ومفكرهم ما فتوا يتحدثون عن هذا ، ولهم فيه نظريات .

إن أكثر الفلاسفة الماديين الذين يحملون نظرة متشائمة عن الطبيعة ، والذين لا يعتقدون بأصل خلقه الانسان ،

ويعتبرونه نتيجة المصادفات ، يقولون : إن الشر جزء من طبيعة الانسان ، وانه لم يترك فعل الشر منذ أن وجد الأرض ، وانه ما يزال كذلك ، ولسوف يظل كذلك في المستقبل ، فلا أمل فيه من حيث السعادة . لذلك فهؤلاء يرفضون كل مشروع لإصلاح المجتمع ، إذ لا أمل لهم فيه ، ولا يرون امكان اصلاحه ، بل ينظرون بعين الريبة الى كل وجهة نظر اصلاحية سواء أكانت دينية أم فلسفية ، قائلين ان كل هذا اصلاح سطحي ، زاعمين ان واضعي تلك المشاريع الإصلاحية هم انفسهم من البشر ، ولهم ما للبشر من غمرايز مختلفة ، ولا يتأق من الغمرايز البشرية غير الشر ، ولذلك فهم لا يرون فائدة من وضع خطة للأصلاح الاجتماعي .

فاذا سئلوا : بأي أمل يبقى الناس أحياءً إذن ؟ أجابوا : ما من شيء يحدوهم على البقاء ولا ينبغي لهم . إن على الانسان الذي يبلغ الكمال أن ينتحر ، وهذه هي قمة التقدم ، حيث يصل الانسان الى مرحلة يدرك فيها ألا شيء في الدنيا غير الشر ، ولا يختلف مستقبله عن حاضره ، فكلما طال بقاءه في العالم ، ازدادت الشرور من حوله . وبهذا يكون الانسان قد بلغ مرحلة (بلوغه الفكري) وعليه أن ينتحر .

لقد كتب الكثير من الكتب عن هذا الموضوع ، ولسنا
بصدد ذكرها هنا ، إلا أن عدداً من أمثال هؤلاء الفلاسفة
قد انتحروا فعلاً ، وهم من الماديين ، ويعرفون بالفلاسفة
المتشائمين . وهنالك في اوربا عدد من الكتاب الذين
اتبعوا هذه الفلسفة وكتبوا حولها مقالات عديدة .

وثمة كتاب هنا في ايران وفي عصرنا هذا نفثوا
سمومهم في كتاباتهم . وأحد هؤلاء هو (صادق
هدايت) ، الذي كان شاباً ، ولكنه وقع تحت تأثير هذه
الأفكار ، وانتحر في ١٣٢٠ هـ . ش . كان هذا يفتخر في
كتاباتة بأنه قد وصل الى تلك المرحلة من (البلوغ
الفكري) التي لا يسعه معها سوى الأقدام على الانتحار .
وكان يريد من الناس أن يحذوا حذوه ، فيتتبعوه .

والأدهى من ذلك ، ان بعضاً من هؤلاء ، يقول : ان
أعظم خدمة للبشرية هي ان يستطيع الانسان قطع دابر
البشر واجتثاثه من على وجه الأرض ، كأن يباد بقبلة .
يتضح من ذلك مدى خطر هذه الأفكار وحماتها .

هنالك طراز آخر من التفكير ، وهو صادر عن الماديين
أيضاً ، وعلى الرغم من انه متشائم أيضاً ، إلا أن تشاؤمه
ليس كذلك ، وإنما هو يشير مشكلة أخرى . يقول هؤلاء

أن ليس للانسان ميول فطرية ، وانما هو يتبع ما يخطط له .

وأما الذين يقولون بمادية التاريخ والمجتمع ، فيقولون بأن ما يتحكم في حياة البشر حكماً مطلقاً هو العلاقات الاجتماعية المادية ، والعلاقات الاقتصادية ، والعلاقات الانتاجية ، وان حياة الانسان تابعة لهذه الروابط ، إن خيراً وإن شراً . فلا تفاؤل ولا تشاؤم ، فقد تكون حياة الانسان حسنة اذا حسنت هذه العلاقات ، وقد تسوء حياته إذا ساءت هذه العلاقات ، فهي محكومة بها .

يقولون : عندما كان مستوى الانتاج ووسائله منخفضاً ، ولم يكن الانسان قادراً على الحصول على أكثر مما يحتاجه لطعامه اليومي ، لم تكن حياته تختلف عن حياة الحيوان ، كالطيور التي تطير من أعشاشها صباحاً جائعة ، وتظل تلتقط الحب حتى المساء حين تعود الى أعشاشها ، وتعيد ذلك في اليوم التالي .

هكذا كان الانسان الأول . لم يكن يدخر شيئاً ، ولم يكن يملك ثروة .

كان الناس يعيشون حياة اشتراكية ، وأحياناً كانوا يعدون طعامهم بصورة مشتركة أيضاً . فالشخص لم يكن قادراً على صيد الحيوان بمفرده ، إذ لم يكن يملك الوسائل

المناسبة ، فكان يجتمع مع غيره ، فيصطادون حيواناً كبيراً بصورة مشتركة ويقسمون لحمه فيما بينهم .

في ظروف كهذه ، كان الناس مضطرين للعيش مع بعضهم كالأخوان ، تحت ضغط الظروف المذكورة ، مثلما كانت اسراب الطيور تعيش متآخية ، فلا حرب ، ولا نزاع ، ولا سفك دماء .

ثم لما تدرج الانسان على مدى التاريخ وازدادت تجربته ، واكتشفت الزراعة ، ودجن الحيوان ، واستفاد من لبنه ، وعرف طرق تكاثره ، استطاع أن يدخر طعامه ، وزرع الحنطة فحصد أضعافها ، وأصبح الفرد قادراً على انتاج ما يكفي عشرة .

وما ان بلغ الانسان هذه المرحلة من ادخار اكثر مما يحتاج ، حتى انهار تنظيمه السابق ، واستجد تنظيم جديد . في النظام السابق كان على كل امريء أن يعمل حتى يأكل ، فاذا توقفت يده عن الحركة ، توقف فكاه عن الحركة أيضاً ، ولكن في النظام الجديد ، حيث الفرد يستطيع ان ينتج اكثر مما يحتاج ، أخذ الأقوياء يسخرون الضعفاء ليعمل هؤلاء ، فيأكل أولئك . وظهرت بذلك الملكية ، ملكية الأرض ، وملكية الانسان .

وعلى اثر اختلاف نظام الانتاج وملكية وسائل الانتاج ، اختلف النظام الاجتماعي . فبعد أن كان الناس يعيشون كالأخوة ، بدأوا يعيشون متقابلين كالأعداء . غرب ذاك النور والخير السابق ، وساد الظلام حياة البشر كلها . ومنذ ذلك اليوم في تاريخ البشر انتصر الظلام على النور ، والشر على الخير ، والظلم على العدل ، والكذب والخداع على الصدق . وفي غضون ذلك كان ثمة شرر أو برق يلتمع في الظلمة بصورة استثنائية ، كأن يظهر فيلسوف أو قائد نهضة يضطره الضغط الى أن يخطو خطوة ، أو في نظر الذين لم يكونوا كثيري التشاؤم ، يظهر رسول ، وينشر الخير والعدل بعض الوقت ، ولكن لما كان النظام الذي يحكم التاريخ نظام ملكية الثروة ، لم يدم نظام الخير والعدل طويلاً ، فتلاشى مثل لمحة البرق في ظلام الليل . وعادت خطة الاصلاح نفسها لتصبح وسيلة بيد أصحاب الثروة يستغلون بها المظلومين والمقهورين . أي إن ما ظهر أولاً كإدام للخبز أصبح بلاءً على رؤوس الناس ، حتى أسمى هذا مصير كل دين أو فلسفة أو اصلاح أخلاقي يظهر على يد أحد المصلحين .

ويقولون ايضاً : ان هذا ما زال مستمراً ، وانه لا علاج له إلا إذا تغير الأساس نفسه ، أي علاقات الانتاج . يعني ان البشر كان يوماً يعيش في ظل نظام

اشتراكي مضطراً ، بسبب نقص وسائل الانتاج ، واليوم
إذا تكاملت وسائل الانتاج ، فسيضطر الانسان الى العودة
الى النظام الاشتراكي ، راضياً أم كارهاً . أي إن الحالة
تصل حداً لا يمكن أن يعيش فيها الانسان إلا اذا طبق
الاشتراكية ، ولا تأثير لارادة الانسان في هذه القضية ، بل
ان ازدياد وسائل الانتاج يوجد الاشتراكية بصورة
صحيحة .

ثم لا يعود النور ، والعدل ، والخير ، والصفاء ،
والمحبة ، والأخوة ، الى المجتمع البشري مرة اخرى ، إلا
إذا عادت الاشتراكية الكاملة : الشيوعية .

إذن ، هذه النظرية لا تقول ، كالمادية ، بأن طبيعة
البشر مجبولة على الشر وستبقى كذلك . ولكنها تقول ان
الانسان لا طبيعة له ، انما هو لعبة مسخرة بيد وسائل
انتاجه .

في البداية كانت وسائل الانتاج بشكل يضطر معها
الانسان ان يكون صالحاً ، ثم اتخذت وسائل الانتاج
شكلاً آخر ، وظهرت الثروة والملكية ، فغدا الانسان
فاسداً . وما دامت الثروة والملكية موجودة ، فلا سبيل الى
الاصلاح ، وإذا قال البشر إنهم يريدون أن يصلحوا ،
فإنهم واهمون ، وهذا ما يسمى بالاشتراكية الخيالية . فإذا

اراد الانسان اصلاحاً حقيقياً ، عليه ان يصبر حتى يبلغ مرحلة الغاء الملكية والتي تكون نتيجة لرشد وسائل الانتاج . فذلك هو اليوم الذي يمكن ان نشاهد فيه المساواة ، والعدالة ، والنور ، والخير تسود المجتمع البشري .

نظرية القرآن :

نعود الآن الى القرآن لنرى كيف ينظر الى هذه المسألة ، وهي من أهم مسائل القرآن في تفسير التاريخ . هل ينظر القرآن إلى الانسان وحياته نظرة متفائلة ، ويقول بأن الشر لم يكن له وجود ، وليس له وجود ، ولن يكون له وجود ؟ من الواضح ان الأمر ليس هكذا ، وليس ثمة ما يوجب البحث في ذلك ، لأن القرآن يقول بأن الحرب بين الحق والباطل كانت مستمرة على امتداد التاريخ ، ولذلك فهو يرى ان للباطل كياناً ووجوداً . أي ان القرآن يضع النور في قبال الظلمة . ففي قصة خلق آدم كما مرت ، وقد حسب الملائكة أن آدم شر محض ، نبههم الله الى أنهم كانوا مخطئين ، وقال انه يعلم أشياء لا علم لهم بها ، وانه يرى ما لا يرون . أي إن ما يرونه صحيح ، والله يراه أيضاً ، ولكنه يرى ضمن ذلك أموراً لا يستطيعون هم رؤيتها ، إذ أنهم لم يقرأوا إلا وجهاً واحداً

من الصفحة دون الوجه الآخر . وعليه ، فان نظرة القرآن ليست كذلك .

فهل يرى القرآن ان البشر شر محض ؟ أي انه يحمل النظرة المتشائمة اليائسة نفسها التي كان يحملها « نيتشه » و « شوبنهاور » وأتباعهما ، ممن يقولون ان البشر كائن لا يمكن اصلاحه ، فيجب ان يترك وشأنه ؟ كلا .

وذلك لأن رسالة الأنبياء هي اصلاح المجتمع الانساني عموماً . فلو كانوا يحملون نظرة متشائمة كتلك ، لما جاؤوا بمناهج اصلاحية . ثم ان هذه النظرية لا تتلاءم مع نظرية التوحيد ، وهي من أهم نظريات القرآن الرئيسة . أي ان النظرة الإلهية التوحيدية ، إلى العالم ليست كتلك ، إذ لا يمكن أن تكون نظرة القرآن الى العالم نظرة إلهية توحيدية ، ثم ترى ان العالم باطل وشر وبلا طائل .

إن القرآن المجيد يرى ، كما هو المشهود منه ، ان نظام الخليقة نظام خير ، أي إنه ، مع قوله بوجود الخير والشر في العالم ، فانه يعتقد بانتصار الخير على الشر ، والاسلام لا يميز نظرة غير هذه للعالم . فما الذي يقوله القرآن ، وما هي نظرتة بهذا الشأن ؟ .

إن نظرة القرآن هي على النقيض من النظرة الماركسية . فالقرآن يقول ، ان الحق والباطل كانا دائماً

موجودين على امتداد التاريخ ، وإن النزاع بينهما من طبيعة البشر ، لأن الانسان كائن ذو طبيعتين وسجيتين ، تلك الطبيعة التي تقول عنها الأخبار والروايات ، إن الله قد خلق فيها الشهوة والعقل . ولكن القرآن يرى أيضاً أن النصر في هذا النزاع الطويل عبر التاريخ للخير ، فالعدل والنور دائمان ، والظلمة والشر مؤقتان . والقرآن ، بخلاف ماركس ، لا يجعل الملكية هي المعيار ، وإنما هو يقول بأصالة الايمان ، أي الأسس الروحية والفطرية . أي انه لا يقول ان الدين والأخلاق كانا دائماً ألعبوبة بيد الثروة ، بل رد هذه الفكرة بشدة . لا شك ان الثروة والسلطة استطاعا احياناً التأثير في الدين وتبين ذلك في ظهور البدع والانحرافات ، ولكن ، على وجه العموم ، كان للدين الأثر الأقوى في مصير البشرية .

الأصالة للحق :

يرى القرآن أن ليس للشر والباطل أساس أصيل ، وإنما هما وليدا وجود الحق ، كالظل والضوء ، أو الظلمة والنور ، فكلاهما موجودان ، ولكن لا أصالة للظلمة في قبال النور . أي انها ليسا واقعين ناشئين عن مصدرين مختلفين ، احدهما للنور ، والآخر للظلمة ، بل الأصل هو النور ، فحيثما لا يوجد نور ، تكون الظلمة ، فلا يصح

ان نقول انه إذا خلا مكان من النور ، وجد شيء هو ضد النور ، فالظلمة هي انعدام النور .

والمسألة تشبه الصحة والمرض ، أي إذا شاء الانسان ان يكون سالماً ، فيجب ان يكون في جسمه تعادل . فمثلاً ، ينبغي ألا تزيد كريات دمه البيض عن حد معين ولا تنقص ، وكذلك كرياتة الحمر وضغطه ، ومقدار اليوريا ، الى غير ذلك . فما المرض الا انعدام الصحة ، والأصل في الجسم هو التوازن والسلامة ، وإذا أدى اختلال التوازن الى المرض ، فان ذلك يعود على الصحة والسلامة بالضرر .

ومثلما يحتاج الجسم الى التعادل والتوازن ، يحتاج المجتمع كذلك الى الصدق ، والأمانة والايمان والعفة . فلا مجتمع يجب ان يخلو من هذه المفاهيم ، فلو خلا مجتمع منها لما استطاع البقاء يوماً واحداً . ولئن ساد المجتمع ظلم ، وعدوان ، وتحلل ، واختلال ، فان ذلك أمر مؤقت ، وسرعان ما سيعود الأمر الى طبيعته . وعليه فيمكن تلخيص وجهة نظر القرآن في بضع نقاط :

١ - ليس للباطل أصول متأصلة في العالم ، وانما هو طفيلي على الحق .

٢ - ولما لم تكن للباطل أصالة وتأصل ، فانه سريع الزوال . انما الحق هو الدائم الذي لا يزول .

٣ - وعلى الرغم من أنه ليس للباطل أصل ، وانه سريع الزوال ، فان له ظاهراً عريضاً لافتاً للنظر ، بحيث انه إذا كانت العين لا تبصر الحق ، فقد ينخدع الانسان بهذا الظاهر ، ويقول بأصالة الباطل ، يرى الحق صغيراً في قبال الباطل .

ثمة نقطة أخرى جديرة بالاهتمام ، وهي أنه على الرغم من أن الباطل طفيلي لا أصل له ، وانه ، لذلك ، مثل الزبد يتلاشى بسرعة ، فانه عند ظهوره يتخذ ابعاداً واسعة مترامية الأطراف ، حتى ان الانسان الضحل التفكير ينادي : أين الحق إذن ؟ إن كل ما أراه هو الباطل . هذا هو الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس ، ولما لم يكن عميق النظرة ، يقول : حتى لو كان الحق قد ظهر في العالم ، فانه قد ظهر في لمحة البرق الخاطف وتلاشى ، وبقي الباطل هو الحاكم بأمره ، غافلاً عن الأصالة في الحق ، فما قوة الباطل إلا بوجود الحق ، وإن الباطل ليس سوى طفيلي غطى وجه الحق .

يذكر القرآن صراع الحق مع الباطل ونتيجة الصراع في آيات عديدة ، وضرب لذلك الأمثال ، كما يلي :

١ - ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ . فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

فالماء الذي ينزله الله من السماء ، يسيل في الأودية ، ويحصل الزبد ، فيخال للناس أن هذا كله زبد ، ولكنه الماء ، الأساس هو الماء ، ولكن الزبد يتسع وينتشر ويغطي سطح الماء كله . ثم يقول : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ .

أي انه يحصل مثل ذلك عند إذابة المعادن لكي يصنعوا منه بعض الحلي ، فيظهر الزبد كذلك .

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ ، فهذا مثله مثل الحق والباطل ، أو أنه ، كما يقول بعض المفسرين ، هكذا يبدو ، أي ان الحق كالماء الرائق ، أو كذائب المعدن ، وما الباطل إلا ذاك الزبد ﴿ وَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ وسرعان ما يزول الزبد ويتلاشى ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ

(١) سورة الرعد - آية : ١٩ .

النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ وهو الحق الذي سيبقى في الأرض لمنفعة الناس . فالماء الذي تحت الزبد يجري في الأنهر إلى المزارع فيروي الأرض ، ويشمر ثمرها نافعاً . وكذلك المعدن الذي يظل على هيئة قضبان أو حلي ، فيستفاد بها الناس .

٢ - ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢﴾ .

إن لفظة « كلمة » تستعمل في القرآن مرة لتدل على اللفظة ، ومرة أخرى لتدل على الحقائق ، كقوله تعالى عن عيسى « كلمة الله » .

وفي هذه الآية ، يعبر عن عقيدة الباطل ، بـ (كلمة) ، وضرب لكل مثلاً . فالحق مثل شجرة سالمة نظيفة ، مثمرة تضرب جذورها في أعماق الأرض ، وتعلو أغصانها مرتفعة نحو السماء ، مليئة بالثمر والورق في كل الفصول ، فهي ، كما يقال ، دائمة الخضرة ﴿ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ فكلما قطفت ثمارها عادت فأثمرت .

أما عقيدة الباطل ، فكشجرة رديئة ، لا ثمر لها ولا جذور . اننا نجد احياناً شجيرات نابتة بغير ثمر ، وبالتفحص نجدها بغير أصول أيضاً ، فهي واه بنيانها ، وما ان يهب عليها نسيم حتى يقتلعها وتذهب في مهب الريح ، مثل ذاك الزبد في الآية السابقة - عظيم الظاهر ، تافه الوجود .

كتب « ناصر خسرو » حواراً بين نبتة يقطين نبتت تحت شجرة دلب ، وسرعان ما نمت وامتدت سيقانها وتسلفت الشجرة وغطتها باوراقها في غصون بضعة أسابيع . فسألت كم يوماً عمرك ؟ فأجابت الشجرة : ينوف عمري على ثلاثين سنة . فضحكت منها النبتة وقالت ساخرة : انظري إلي أنا بنت العشرين يوماً نموت وترعرعت أكثر منك ، فأجابت الشجرة :

« إننتظري حتى تهب ريح الخريف

عندئذ يتضح الرجل من غير الرجل »^(١)

القصد هو إن القرآن يريد ان يقول لنا : لا تغرنكم الظواهر ، ولا تتخذوا بظاهر الباطل العري ، بل عليكم أن تعمقوا في النظرة . فقد يتخذ سلوك ، لا يزيد عمره

(١) بگذار بر من و تو و زده باد مهرگان

آنکه شود بدید که نامرد و مرد کیست

عن عشرين او ثلاثين سنة ، واجهة واسعة تبدو كما لو كانت أوسع من مدرسة الحق التي مضى عليها أربعة عشر قرناً . يقول القرآن إن علينا بالصبر ، إنتظار لهبوب الرياح المختلفة . لقد مضى على الثورة الاسلامية أربعة عشر قرناً ، ولكم هبت رياح مختلفة ، ولكنها ما زالت تقف مكينة ثابتة ، بينما ذلك السلوك وأمثاله سرعان ما يزول ويضمحل .

٣ - ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

إن الآية التي تسبق هذه تتعلق بأصل الخليفة ، أي انها تحارب الفكرة المادية التي ترى العالم هباءً فارغاً . إن حياة الانسان والمجتمع يرتبطان بأصل الخليفة . فلو كان هذا الأصل مبنياً على اللهو واللعب ، لكان الانسان ووجوده كله فراغاً باطلاً ، ولكن الله يقول : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ . لقد خلقنا هذا الكون العظيم ولم نكن نلعب . نحن لم نكن نبني مثل الأطفال لنهدم مرة أخرى من باب اللهو .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ وكأن هذه الآية رد على من يقول : إذا لم يكن خلق العالم لعباً ولهواً ، فلماذا كل هذا الباطل الذي نراه في المجتمع الانساني ؟ أفليس في العالم

كذب وخيانة ؟ أفليس في العالم ظلم وعدوان وارقة دماء ؟
فلماذا نرى كل هذه العقائد الباطلة ، وهذه الاتجاهات
الباطلة موجودة في العالم ؟ .

في الاجابة على ذلك يقول القرآن : هذه كائنات
طفيلية ، تظهر بالضرورة مع ظهور الحق ، إلا أنها لا
تدوم طويلاً ، بل سرعان ما تزول .

« القذف » هو أن تمسك بالشيء وترميه بقوة ، كأن
تلتقط حجراً وترمي به انساناً أو زجاجاً . فقول القرآن
﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ كأنه يعني اننا نصنع
من الحق قبلة نقذفها بشدة على الباطل فتحطمه تحطياً ،
وعندما تقدم لترى ما الذي حدث ، لا تجد شيئاً ﴿ فَإِذَا هُوَ
زَاهِقٌ ﴾ . ولا يعني هذا انه لم يكن زاهقاً منذ البداية ،
وانه أصبح زاهقاً الآن . كلا ، بل كان مظهرأ يبدو كبيراً
قبل ان يتقدم الحق لحربه ، وعندئذ انكشف باطنه ، وأنه
لم يكن شيئاً ، أو كان كبالون منفوخ ، ثم أفرغ من
الهواء .

٤ - ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوقاً ﴾ (١) .

(١) سورة الاسراء - آية : ١٨ .

ههنا أيضاً لا تحسبوا ان الباطل كان شيئاً عينياً وواقعاً ، وانه الآن عندما جاء الحق أخذ مكانه وملأه ، كلا ، إذ ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ كان فانياً بنفسه ، أي إنه لم يكن سوى هيكل أو شاخص ، كان نموذجاً ، لا كيان واقعي له .

فالقُرآن لا ينظر إلى حرب الحق والباطل على انها حرب بين وجود ووجود ، بل هي حرب الوجود ضد اللاوجود . حرب الكمال ضد النقص ، إذ إن الباطل يرجع كله الى النقص . فالظالم ظالم لنقصه ، لا لكماله ، أي ان ظلمه ناشيء عن جهله أو شعوره بالحقارة ، فيحسب إنه بذلك يتكامل .

الخلاصة هي إنه وإن كان القرآن يقول بوجود الحرب بين الحق والباطل ، ولكنه في الوقت نفسه لا يرى للباطل أصلاً ، على النقيض من الماديين الذين إما أن يقولوا بأن البشر كائنات شريرة بذاتها ، أو أن ينكروا على الانسان كل فطرة ، قائلين انه نتاج ما يطرأ على وسائل الانتاج من تغيرات وتحولات . ولا شك انهم ليست لديهم (مدينة فاضلة) ، ولا يمكن ان تكون لهم ، فاذا ورد عندهم شيء عنها ، فذلك خلاف عقيدتهم . ففكرة (المدينة الفاضلة) فكرة اسلامية ، وهي فكرة لا يتقدم بها أحد ، إلا إذا كان مؤمناً بإمكان اصلاح البشر .

يشير القرآن إلى مصائر أقوام ، ومدنيات تاريخية لكي يصل الى حقيقة ان كل مجتمع ساد فيه الشر ، وطفى فيه الباطل ، فذاك مجتمع آيل للزوال لا محالة ، ولا يبقى إلا المجتمع الذي يكون فيه الحكم للحق . وفي القرآن شواهد عديدة على هذا . فما أكثر المجتمعات التي بءت بغضب من الله لأنها انحرفت عن طريق الحق ، واتجهت الى الباطل .

إن من الممكن ان ينظر المرء الى التاريخ ، ليجد المجرمين لا تخلو منهم صفحة ، فيقول : التاريخ ظلام ليس غير . إلا أن هذا الحكم غير صحيح ، لأنه حكم نشأ عن المفهوم الخاطيء القائل بأن التاريخ يصنعه الأفراد . يقول القرآن إن هؤلاء هم الزبد الذي يذهب جفاء .

فلو نظرنا الى التاريخ الاسلامي ، لوجدنا هارون الرشيد ، بطل ألف ليلة وليلة ، بسجونه ولباليه المخمورة ، وظلمه ، فنقول : هذا نموذج لتاريخ العالم ، ويقول القرآن : لا ، ليس الأمر كذلك ، فهارون فان ولا بقاء له . أما الذين هم أصل إرادة عجلة الحياة ، أي الذين يفلحون الأرض ، والذين ينتجون ، ويأخذون ويعطون ، وبعبارة اخرى ، العاملون الذين بيدهم يدرون عجلة المجتمع ، فلا يلفتون نظرنا ،

مثلهم مثل الماء الذي يجري تحت الزبد ، وما هارون
وأمثاله إلا طفيليات تعيش على وجودهم . أما أنت
فواجبك ان تجاهد هارون وأمثاله ، دون أن يتتابك
اليأس ، فتقول : إن هؤلاء كانوا دائماً موجودين ، وهم
الذين كانوا يديرون المجتمع . كلا ، بل إن موسى بن
جعفر ، الذي كان في سجن هارون ، يجاور قصره ،
ويسمع عريضة السكارى وضجيجهم ، هو الذي يبقى ،
ومع ان هارون لم يسمح لأحد بزيارته ، فهو في قلوب
الناس وفي نفوسهم قوة خالدة . يصبح فكر موسى بن
جعفر أبدياً ، بينما يزول هارون بكل عظمته ، وكبكبته ،
ودبديته .

بعد هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء ، سنباشر
بتفسير المثلين اللذين نحن بصددهما :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً . .

هؤلاء أشبه بالذين يشعلون ناراً في الصحراء
يستضيئون بها ، وإذا بالريح تهب فتطفئ نارهم ويغرقون
في الظلمة ثانية . والمقصود بالنار والنور هنا هو الخطط
الخادعة لأتباع الباطل ، لا نور الحق ، كما ذهب إليه
بعض المفسرين . وشرح الموضوع كما يلي :

إن الانسان يهتدي بوسائل عديدة ، فهو يهتدي

بالغريزة ، وهذه ضعيفة في الانسان ، وقوية في حيوان .
وهو يهتدي ايضاً بالحواس ، فيتعرف الأشياء بالعين ، أو
بالأذن ، الخ . وهو يهتدي بالعقل والتفكير ، الى أن يصل
الى الاهتداء بالوحي الذي يختص به اتباع الأنبياء .
ومهما يكن فكر الانسان فهو نور ينير الظلمة . وأحياناً
يستعمل الانسان هذا النور بحسب نظام الخليقة ، وفيما
يرضي الله ، كما جاء في القرآن :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١) .

ولكن يحدث أحياناً أخرى ان شخصاً بجانب طريق
الهداية ويستخدم فكره في طريق الضلالة ، أي انه بعقله
وبفكره يضع الخطط ، ولكنها تخالف ما يقضي به الله ،
ومع ذلك فانها قد تنجح وتتقدم بضع خطوات ، ولكنها
لن تستمر ، وسرعان ما تزول .

فالقرآن يقول إن مثلهم مثل من يوقد ناراً في بيداء
مظلمة ، يريد بها أن ينير بعضاً مما حوله ، ولكن ناره
اضافة الى كونها ضعيفة الانارة ، ولا تضيء إلا ما أمامه ،
فانها لا تدوم طويلاً . أي ما دام الباطل مبنياً على الخدعة
والغش ، فانه فانٍ وزائل .

تلاحظون أن القرآن - بخلاف الذين يقولون ان الحق

(١) سورة محمد - آية : ١٧ .

كان طوال التاريخ مجرد ومضة برق سرعان ما خبت - يقول
إن الباطل هو الومضة التي سرعان ما تحبو ، فهو ما ان أضاء
ما حوله وظنّ المرء انه يرى بوضوح حتى « ذهب الله
بنورهم » . إن الله ، بما لديه من وسائل الخلق الأبدية أطفأ
نورهم « وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » ولا يرون طريقاً
يسلكون .

صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي :

بل إنهم بالاضافة الى كونهم لا يبصرون ، فان أذانهم
لا تسمع . إذا كان المرء في الصحراء أعمى لا يبصر ،
فانه قد يستطيع العثور على طريقه بما تسمع أذنه من
أصوات ، وأبواق سيارات ، وأجراس ابل سارية ، أو
حتى وقع أقدام انسان . وإذا كان نطقه سليماً ، فيمكنه أن
يصرخ مستنجداً .

ولكن هؤلاء لا عين فيهم ترى ، ولا أذن تستطيع
سماع أصوات الآخرين ، ولا لسان ينطق طلباً للنجدة .

فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ :

لا رجوع هؤلاء . لا بد أن يدفنوا في ذلك المكان .
وهكذا تلاحظون كيف ينظر القرآن الى التاريخ نظرة
متفائلة ، ويطمئتنا على أنه إذا دخل الحق حرباً ، فانه هو
المنتصر ، والباطل هو المندحر في النهاية .

كان هذا مثلاً عن النور والضوء اللذين يصنعهما
الانسان بنفسه ، أي تلك الأفكار والتعابير ، والخطط التي
يرسمها ، والتي تبقى امامه بعض الوقت .

ولكنهم قد يستفيدون من نور لم يوقدوه بأنفسهم ، بل
كان ومضة برق متجهة الى مكان آخر . فقد تنطلق
شرارة ، مثلاً ، فيظنون أنهم قادرون على الاستفادة من
هذا الشرر ، فيعدون عدتهم لاستغلاله ، ولكنه ينطفيء
قبل أن يستغلوه .

أَوْ كَصِيبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ :

أو كمثل مكان أظلمت فيه السماء ، وانهمر المطر
مدراراً ، حيث ظلمات عديدة : فأنبهار المطر ظلمة ،
ووجود الغيوم الحتمي ظلمة ، وإذا كان الوقت ليلاً ،
فظلمة ثالثة . إذ لو كان الوقت ليلاً فحسب ، بغير
سحاب ومطر ، لكان بالامكان ان يستضيء المرء بنور
النجوم . ولو كان ثمة سحاب بغير مطر ، لكان في الجو
بصيص من ضوء ، مهما يكن ضئيلاً ، ولو حدث كل
ذلك في النهار ، لكان ضوء الشمس خلف الغيوم كافياً
للرؤية . وهكذا يقول القرآن : فيه ظلمات ورعد
وبرق .

يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ
الموت :

إن الأصوات الراحدة في السماء من الشدة بحيث أنهم
يرتجفون هلعاً ، ويسدون آذانهم لكيلا يسمعوها .

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ :
كذلك البرق ، كأنه من شدة سطوعه يريد أن
يعميهم .

كُلَّمَا أَضَاءَتْ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ :
وخلال هذه الظلمات المتركمة ، يستغلون وميض
البرق ليخطوا خطوات الى الامام ، ولكن هذا لا يدوم ،
وسرعان ما يتلاشى ، فلا يستطيعون السير أكثر من خطوة
واحدة .

وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا :
وكلما استغرقهم الظلام ، لبثوا في أماكنهم واقفين .
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ :
والمجموعة الأولى التي ابتلاهم بالظلمة ، يستطيع الله
كذلك أن يسلبهم آذانهم وعيونهم .

ذلك هو مصير أصحاب الخدعة في التاريخ . إذ يقول
القرآن : إنهم لا أصالة لهم ، فلا تخشوهم ولا تحسبوا

النصر من نصيبهم ، فزوالهم محتم ، والباقي هو الحق .

ولا يعني هذا اننا يجب ان نجلس نتسظر زوال عهد الملكية ، وظهور عهد الاشتراكية ، وهكذا . كلا ، فحيثما ظهرت الاشتراكية ، اشتدت الظلمة ، وانكشف لا جدوى تكامل وسائل الانتاج ايضاً . إنما الانسان هو القادر على اقامة العدل واشعال النور ، ليحظى في رعايتها بحياة سعيدة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾

في هذه الآية المتألفة من جزئين متكاملين ، يدعو الله الناس إلى التوحيد ، أكثر مبادئ الإسلام تأصلاً ، وأقوى قاعدة من قواعده الفكرية والعقائدية .

تلاحظون أن الآية تبدأ بنداء موجه إلى الناس . وكلمة « الناس » كثيرة الورد في القرآن ، سواء كمنادى

كما هي الحالة هنا ، أم بصيغ أخرى ، مثل « الله على الناس حج البيت ... » .

وكلمتا « ناس » و « إنسان » من أصل واحد ، وليس بينهما اختلاف كبير . كل ما في الأمر ، من حيث النظرة اللغوية ، إنهم يقولون إن « إنسان » إسم جنس ، و « ناس » إسم جمع . أي عندما نقول « إنسان » نعني النوع الانساني ، ولكن إذا قلنا « ناس » فالمقصود جمعهم ، مثل كلمة « قوم » . فالخطاب إذن ، لجميع بني البشر .
بقي الآن أن نوضح ما يلي :

لكل مدرسة من مدارس العقيدة جوانب أربعة مرتبطة بعضها ببعض :

١ - من الذين تتوجه اليهم هذه المدرسة بالخطاب ؟ أي لمن وجدت هذه المدرسة ؟ أهى لجميع الناس ، أم لجماعة منهم خاصة ؟ وإذا كانت لجماعة خاصة ، فمن هم هؤلاء ؟ .

٢ - ما هدف هذه المدرسة ؟

٣ - كيف تنظر هذه المدرسة إلى العالم ؟

٤ - ما هو محتوى هذه المدرسة ؟ والمقصود بالمحتوى هو مجموعة تعاليمها وقوانينها .

هذه الأمور الأربعة مترابطة ، أي إن وجهة نظر

المدرسة إلى العالم مبنية على نوع المخاطبين ، وبالعكس ،
نوع المخاطبين يعين وجهة نظر المدرسة ، وهذان مرتبطان
بالهدف الذي ترمي اليه المدرسة ، وكل ذلك مرتبط بمحتوى
المدرسة ، أي الرسالة التي تحملها الى الذين تريد
مخاطبتهم .

إن الآية تبحث في المخاطبين ، وفي رسالة واحدة
رسالة التوحيد ، أهم رسالة من رسالات الإسلام والقرآن .

مخاطبو القرآن :

لا بد لنا أن نشير ، بهذا الخصوص ، الى أن كل
المدارس ، والمذاهب ، والعقائد سواء الإلهية منها
والوضعية ، تتوجه برسالتها إلى الذين تخاطبهم ، وهم
مختلفون .

من ذلك ، مثلاً ، قيد تكون مدرسة ما ذات لون
قومي ، كما هي حال معظم الأحزاب القومية ، والتي
هدفها (حسبما تدعي في الأقل) تحرير شعوبها وإسعادها .
وعلى ذلك ، فانها تخاطب شعوبها ، ولا تخاطب الشعوب
الأخرى . ففي بريطانيا يخاطب حزبا العمال ، والمحافظين
الشعب البريطاني .

وقد تصطبغ إحدى المدارس بصبغة العنصر والدم ،
ويكون هدفها تحرير ذاك العنصر ذاته ، لذلك فهي

تخاطب أفراد ذلك العنصر فحسب ، كانتفاضات السود
ضد البيض ، فهي تخاطب السود فقط .

وقد تظهر مدرسة تستهدف إشباع البطون الجائعة ،
فتنادي باتحاد الجياع معاً ، لايجاد قوة تستطيع أن تنتزع
خبزهم من بين براثن المعتدين على حقوقهم . فلا شك في
أنها تخاطب الجائعين ، كالماركسية التي تدعي بأنها قد
وجدت لاسعاد طبقة العمال (البروليتاريا) وتحريرهم ،
فهي تخاطب العمال ، ولا تقبل أن ينتمي إليها أحد من
الرأسماليين .

فلننظر الآن من هم الذين يخاطبهم الاسلام ؟ ومن
الذي ينتمي إلى عضويته ؟ هل يخاطب الإسلام العرب
فقط ، لكونه قد ظهر بين ظهرائهم ؟ أم أنه يخاطب أهل
مكة دون غيرهم ، لأنه ظهر في مكة ؟ .

عند الرجوع إلى نداءات القرآن ، تتضح لنا هذه
الحقيقة ، وهي إننا في كل نداءاته لا نجد نداءات تقول :
« يا أيها العرب » أو « يا أيها القرشيون » أو « يا أيها
المكيون » أو « يا أيها المدنيون » أو « يا أيها الشاميون » .
بل نجد إن نداءات القرآن على نوعين : فمرة يكون النداء
« يا أيها الناس » وهو نداء موجه إلى كل البشر ، ومرة
أخرى يكون النداء موجهاً إلى المؤمنين ، يوصل اليهم ما

يريد من التعاليم ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا » .
وهنا يطرح سؤال نفسه ، وهو : أيصح أن نخاطب
جميع البشر ؟ وهل هذا عملي أم لا ؟ .
يقول بعض ، بما أن الانسان النوعي كائن انتزاعي ،
بحسب المصطلح الفلسفي ، فلا يمكن أن يكون مخاطباً
لمدرسة واحدة .

ويقول آخرون إنه ما دام الانسان ، كإنسان ، خلواً
من الوجدان ، فإن المدرسة التي تخاطبه لا تقدر على خلق
حركة ما .

من الممكن أن نخاطب الناس على أنهم عرب ، أو
عجم ، أو إيرانيون ، وعندئذ نكون قد خاطبنا وجدانهم
القومي أو الوطني ، ويمكن تحريكهم من هذا المنطلق . أي
لنا أن ننادي : « أيها الأيراني » و « أيها المصري » و « أيها
العربي » عليك أن تكون كذا وكذا . وهذه نداءات تستند
إلى الروح القومية أو الوطنية ويمكن أن تستند
إلى الروح العنصرية ، فنقول « أيها السود » أو « أيها
الحمير » أو أن تستند إلى الروح الطبقية ، لأن للطبقية
وجدانها ، فنقول « أيها المحتاجون » ، « أيها العمال » ،
« أيها الفلاحون » . فههنا نستطيع إيجاد تحرك بالاستناد إلى
الروح الطبقية . ففي الخطاب الموجه إلى العمال ،
يقولون : « أيها العامل ، لماذا يجب أن تكون ثروتك

قليلة ؟ وعندئذ يكون دافعه إلى الحركة منافعه الخاصة ،
حيث يقول في نفسه : لماذا يأخذ غيري حقي ؟ فأنتم من
هذا تشعرون بأن المصلحة هي دافعة .

ولكن إذا نادت مدرسة « يا أيها الناس » فعلى من
تستند ؟ .

هذا هو الجانب المهم في المسألة التي سبق أن قلنا إن
وجهة نظر أية مدرسة هي التي تعين نوع الذين تخاطبهم ،
وهما مسألتان مترابطتان .

الاسلام لا ينظر إلى الانسان هذه النظرة ، أي انه لا
يرى وجدان الانسان في قوميته ، ولا في عنصره ، ولا في
طبقاته ، إنما الاسلام يرى في الانسان (فطرته) « كل
مولود يولد على الفطرة » وهذا ما سوف نبينه في مكانه
بالتفصيل .

وعلى ذلك ، وحسب ما تقدم ، فإن الله تعالى وهب
الانسان في بدء الخليقة وجداناً شريفاً وروحاً ملكوتية
« ونفخت فيه من روحي » . وهكذا نجد هذا الوجدان
الشريف في مكنون كل انسان عند ولادته ، بصرف النظر
عن أبويه .

إن الروح القومية ، والعنصرية ، والطبقية ،

وغيرها ، روح مكتسبة . إنما هذه الفطرة هي التي يتوجه إليها الاسلام بخطابه .

أي إنه يقول : أيها الانسان ، انني أدعوك لأنك انسان . ولم يقل : لأنك من المحرومين ، ولم يقل : لأنك أسود اللون ، الخ . فدعوة الاسلام تستند الى الروح الانسانية ، لا الروح القومية ، ولا العنصرية ، ولا النفعية .

وبعبارة أخرى ، إن الخطاب موجه إلى الانسان الذي ينشد العدالة ، وليس لأن منافعه في العدالة ، بل لأن العدالة من القيم الانسانية .

يستفاد من نصوص القرآن أن أحد أهداف الاسلام الرئيسية هو العدالة . وما من شك في إنه إذا سادت العدالة ، فالمتضررون هم المعتدون والظالمون ، والمتفعون هم المظلومون . ولكن الفرق كبير بين أن نقول : إن هدف الإسلام هو أن يمين على المستضعفين ، وأن يحررهم ، وأن نقول : ان الإسلام إنما يخاطب المستضعفين دون غيرهم . ليس الأمر كذلك ، فالاسلام ، وإن حرر المستضعفين ، فانه يوجه خطابه إلى البشر كافة ، بما فيهم أمثال فرعون ، فهؤلاء من الذين يخاطبهم القرآن أيضاً . وذلك لأن القرآن يرى في أعماق كل انسان ، حتى وإن كان فرعوناً ، ذلك

الانسان الأصيل الذي ولد على الفطرة . إنه يقول :
فرعون هذا الذي يحكمكم الآن ، وترونه جباراً ، ظالماً ،
بعيداً عن الانسانية ، فيه بقية من الفطرة التي خلقه الله
عليها ، وذلك لأنه انسان . ولذلك ، فان رسل الله ، قبل
أن يحاربوا الفراعنة ، يسعون أولاً إلى أن يستثيروا الانسان
الكامن فيهم ، لعلهم يرفعون :

﴿ إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُلْ لَهُ هَلْ لَكَ إِلَىٰ
أَنْ تَزَكَّىٰ ، وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾^(١) .

فيأمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون ، عله يستطيع
إثارة روح الانسانية فيه ، فيحرر الانسان الكامن في
أعماقه ، فان لم يستطيع ، فليشن عليه حملته . أي إن
عليه ان يشن حملته من الداخل أولاً ، ومن الخارج بعد
ذلك .

رسالة التوحيد :

الجزء الثاني من هذه الآية هي أكثر رسالات القرآن
أصالة ، وهي الأساس لرسالاته الأخرى . إنها رسالة
التوحيد ، وهي ليست مقصورة على خاتم الأنبياء ، بل
هي على رأس رسالات جميع الأنبياء .

(١) سورة طه - آية : ٢٤ .

ينظر القرآن إلى هذا الموضوع بهذا الشكل : إنه لا يقول للناس : عليكم أولاً أن تعبدوا أحداً ، وثانياً أن يكون هذا الذي تـمدونه هو الله . كلا ، فالإنسان لا يستطيع العيش بدون عبادة . كل الناس يعبدون بشكل ما ، وهذه العبادة جزء من - يزة الإنسان وفطرته . أي إن الإنسان عابد بالفطرة يريد أن يقدس شيئاً ، فينزهه ويسعى للتقرب إليه .

هذه الفطرة موجودة في كل البشر ، بما فيهم الماديون ، وهذا كارل ماركس يقول : « نريد أن نحرر الإنسان من عبادة غير الإنسان ، لكي يعبد الإنسان نفسه » .

فهذا أيضاً يلاحظ إن على الإنسان أن يعبد شيئاً ، ولكنه ، يريد أن يكشف للإنسان معبوده الحقيقي ، على ما يقول .

أما رسالة القرآن فهي : أيها الإنسان ، اعبد ربك ، الذي خلقتك وسواك ، ذلك الذي بيده وجودك وكيانك ، والذي إذا غفل عن الكون لحظة انقلب عليه سافله .

﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

سبق لنا في سورة الفاتحة أن بحثنا موضوع العبادة ، وقلنا إن مفهوم العبادة في القرآن مفهوم واسع ، وعلى

درجات ، ومن درجاتها العليا السجود أمام المعبود . ولكننا إذا تجاوزنا تلك المرحلة ، نرى ان القرآن يعتبر كل اطاعة عبادة . ومن ذلك قوله ان من يطيع أهواءه فقد عبد نفسه .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ ^(١) .

ولعل مصطلح « عبادة الذات » المعروفة في اللغة الفارسية « خُودپَرستی » قد جاء من القرآن .
وطبيعي إن عبادة النفس لا تعني أن يسجد الانسان لنفسه ، وإنما القصد هو اتباع الهوى وإطاعته .

الشرك والتوحيد :

ينبغي أن نذكر هنا أن الشرك نقيض التوحيد . فالشرك من المشاركة ، كما جاء في القرآن على لسان موسى وهو يطلب من ربه « وأشركه في أمري » أي اجعل هارون شريكاً لي في تبليغ الرسالة .

فلز إن كان الشرك يعني بالضرورة أن يشرك الانسان إلهاً آخر مع الله ، أي أن يعبد إلهين في آن واحد ، وأنه إذا عبد إلهاً غير الله ، فلا يكون هذا شركاً .

(١) سورة الجاثية - آية : ٢٣ .

لقد جاء في القرآن ، على لسان الهدهد مخاطباً
سليمان :

﴿ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ،
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ . . . ﴾ (١) .

هؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس ، ولم يكونوا
يعبدون غيرها ، هل هم مشركون ؟ .

الشرك في لغة القرآن لا يعني الثنائية في العقيدة ، بل
يعني اتخاذ إله غير الله . فكل المخلوقات ، في منطق
القرآن ، تعبد الله . فإذا وضع أحد غير الله في موضع
الله ، يكون قد جعل لله شريكاً في العبادة ، على الرغم
من أنه لا يعبد سوى إلهه الذي اصطنعه لنفسه . وعلى
هذا ، فالذين يعبدون الشمس مشركون أيضاً .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

فيما يتعلق بالتقوى ، بحثنا ذلك في محاضرات سابقة
مطبوعة (٢) وبصورة مفصلة . ولكننا نورد ما يتعلق بهذه
الآية . فالتقوى هنا نتيجة التوحيد ، فكيف هذا ؟ .

(١) سورة النمل - آية : ٢٢ - ٢٥ .

(٢) انظر المحاضرتين ١ و ٢ من كتاب « محاضرات في الدين
والاجتماع » .

التقوى من مادة « وقى » بمعنى الصيانة والحفظ والتطهر . وقد سبق أن قلنا إن للتقوى - حسبما جاء في القرآن وفي الروايات عن أهل البيت - درجات ومراتب ، مثل الايمان .

كل عقيدة نظيفة تحتاج الى جو نظيف . فكما أننا عندما نبذر القمح ، يجب ان نطهر الأرض من الآفات والتلوثات ، حتى ينمو الزرع ، كذلك الأفكار والآراء الصحيحة ، تحتاج إلى روح نقية ونفس سليمة ، حتى تنمو وتزدهر . فإذا دخلت فكرة طاهرة نفساً غير طاهرة ، وقعت الحرب بينهما إلى أن يستسلم أحد الجانبين ، فإما أن تطهر النفس ، وإما أن تطرد الفكرة بعيداً .

لقد جاء في بداية سورة البقرة أن القرآن جاء هدىً للمتقين . والمقصود بالتقوى هنا هو التقوى الفطرية الأولى التي تولد مع كل مولود ، فإذا حافظ الانسان على ذلك المقدار من التقوى ، فإن هداية القرآن تشملته ، ولكن الذين تلوثوا لن يستمعوا إلى كلام الله .

في هذه الآية يقول القرآن إذا عبد الانسان الله ، تزداد روحه قوة ، ونفسه طهارة ، ويزداد تقبله للعقائد النظيفة ، وتصدر عنه أعمال طاهرة .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً :

كيف لا يعبد الانسان هذا الله على كثرة مظاهر ربوبيته التي نشاهدها فيما حولنا . فهذه الأرض التي نستريح عليها ، أهي معلولة المصادفات ، أم هي معلولة الربوبية ؟ وهذه السماء التي هي بمثابة السقف ، تتدلى منها القناديل ، وتغمر النجوم فيها ، ترى كيف وجدت ؟ إنكم ترون غيمة تمر في السماء ، ثم تنزل مطراً على الأرض ، فينمو زرعكم ، وينضج ثمركم ، بألوان مختلفة ، فهل يحصل كل هذا ذاتياً ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من عبادة خالق لا يصدر عنه إلا الخير والرحمة ، لا أن نعبد حجراً لا ينفع ولا يضر ، ولا أن نعبد إنساناً فنكون في أسره .

إن الذي عبادته هي الحرية والتحرر هو (الله) .
بهذا المعنى يقول حافظ الشيرازي :

« لا قدر لحافظ أن يتحرر من تلك الخصلة
الجمدة

إذ المقيدون بشباكهـا هم الناجون »^(١)

* * *

(١) خلاص حافظ أز أن زُلف تابداز

مباد كه بستیگان کمنید توستیکار اتند

﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾

يتناول القرآن في هذه الآيات موضوع الأعجاز ، وكون القرآن معجزة ، داعياً الناس إلى معارضته قائلاً : إذا كنتم ترون هذا الكتاب كأبي من كتب البشر ، فتعالوا وهاتوا بكتاب مثله .

في هذه الآية يخاطب القرآن العرب ويطالبهم بمعارضته ، ولكنه في سورة الاسراء يعرض الموضوع بشكل آخر ، فهو لا يخاطب المعاصرين للرسول وحدهم ، سواء من العرب أو العجم ، بل كل الناس على وجه الأرض ، وفي كل الأزمان ، يدعوهم إلى المبارزة ، بل إنه يتجاوز الناس الى الجن ويجعلهم ضمن المخاطبين .

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١) .

(١) سورة الاسراء - آية : ٨٨ .

هذه الآية وأمثالها تبين حقيقتين : الأولى هي أن المعجزة موجودة في العالم ، والثانية هي أن القرآن معجزة . وهذان أمران لا ريب فيهما من منظور القرآن .

إنكار معجزة القرآن إنكار للقرآن نفسه :

هنالك أشخاص ، نجد نماذج لهم في وقتنا الحاضر أيضاً ، لا يدركون سر المعجزة ، مع أنهم يريدون أن يتقلبوا القرآن بنحو من الأنحاء ، ولكنهم ينكرون كونه معجزة ، أو أنهم ينكرون وجود المعاجز أصلاً ، ويؤولون جميع المعاجز التي وردت في القرآن ، مثل انفلاق البحر لموسى ، وتحول عصاه إلى حية ، تأويلات طبيعية ، ويوجهونها توجيهات باردة . وهذا يعني إنكار القرآن ذاته .

يشير القرآن المجيد في كثير من آياته إلى معاجز الأنبياء السابقين . وفي هذه الآيات التي نحن بصدددها ، يثبت القرآن أصل وجود المعجزة أولاً ، ويثبت كذلك أن القرآن معجزة إلهية . وما فتئ القرآن يدعو الناس من ذوي الحجب والوجدان للنظر والتفكير . فعلينا نحن أن نستجيب ، فنفكر في المواضيع الخليفة بالتدبر والتعقل ، ومنها موضوع كون القرآن معجزة ، فنتفهم أسرارها ، وهي من أهم أسرار المعارف الإسلامية الكبيرة . ولنبدأ بجانب من جوانب هذه المعجزة ، وهي لغة القرآن .

لغة القرآن :

المعجزة من مادة (عجز) ، والعجز يعني عدم القدرة ، والمعجزة هي ما يبقى الآخرون عاجزين أمامه ، وهي ما لا يستطيع أحد القيام به .
قد يعبر أحياناً عن المعجزة بعبارة (خارق للعادة) ، ولكن هذا التعبير هو من تلك التفاسير التي يقول بها الأشاعرة لمعنى المعجزة ، وهو ليس من المعاني الجديدة .
والحقيقة إن القرآن لم يستعمل كلمة « معجزة » ولا عبارة « خارق للعادة » ، فكلتاهما من اصطلاحات علماء الاسلام .
كلمة « معجزة » شائعة الاستعمال عند عموم المسلمين ، ولعلها كانت مستعملة منذ أيام الأئمة الأطهار .
ولكن عبارة (خارق للعادة) ليست كذلك ، ولعل جماعة معينة من المسلمين قد استعملتها ، كالأشاعرة مثلاً ، إذ هم كانوا يعتقدون ان المعجزة إن هي إلا خرق للعادة .
يختار القرآن لفظة أخرى ، وهي كلمة « الآية » وهي تبدو أكثر ملاءمة من التعبيرين المذكورين .
فلماذا يعبر القرآن عن المعجزة بكلمة آية ؟ إن الآية تعني العلامة ، أو الدليل القاطع . وهذا الدليل هو ما يحتاجه رجل يدعي إنه رسول الله ، وإن الله قد أرسله ، وإنه يوحى إليه ، وإن على الناس أن يصدقوه ، بدليل إن

ما ينطبق به ليس من كلامه ، بل من كلام الله . فهل ينبغي على الناس أن يصدقوه بلا جدال ؟ هنالك في هذه الحالة ثلاثة احتمالات : الأول هو أن يكون هذا الشخص صادقاً في ادعائه بأنه رسول الله ، والثاني هو أن يكون كاذباً دجالاً ، عالماً بكذبه ودجله ، والثالث هو أن يكون هو نفسه مخدوعاً ، كأن تتنابه حالات باطنية أو نفسية تثير فيه انفعالات وإحساسات تتجسد في خياله ، فيحسبها حياً ويؤمن بها أيضاً .

هذا الاحتمال الثالث كثير الوقوع لبعض الناس . فهناك أشخاص لم يكذبوا ، ولا يريدون أن يكذبوا ولكنهم على صدقهم يتوهمون أشياء ، وتختلط عليهم الأمور . إن ما كان يحدو بكفار قريش إلى أن يصفوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمجنون هو أنه كانت له سوابق حسنة بين الناس ، بحيث لو انهم وصفوه بالكذاب لما صدق ذلك أحد ، ولذلك كانوا يعمدون في دحض دعوته إلى أن يقولوا للذين آمنوا به ، إن هذا الرجل صريع الأوهام والخيالات النفسية .

بناء على ذلك ، ينبغي على من يدعي النبوة أن يثبت ذلك بالدليل القاطع ، وإذا ما طالبه الناس بهذا الدليل كان طلبهم معقولاً ، وإلا فان قبولهم لدعوة كهذه بدون دليل يعد حماقة .

فالمعجزة هي ذلك الدليل القاطع الذي يثبت ادعاء النبوة ، وهي لذلك تسمى بالآية أيضاً .
ولزيادة إيضاح هذا الموضوع ، نبادر ببحث المواضيع التالية على التناوب :

- ١ - ما المعجزة ؟ .
- ٢ - هل المعجزة ممكنة ؟ .
- ٣ - هل تقع المعجزة ؟ .
- ٤ - كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها ؟ .
- ٥ - رسول الاسلام والمعجزة .
- ٦ - إعجاز القرآن .

١ - ما المعجزة ؟ :

يرى بعضهم أن القضية ليست قضية معجزة ، بل هي قضية القبول بوجود الله أو عدم القبول بوجوده . أي إنهم يقولون : إذا نحن قبلنا بوجود الله ، فلا حاجة بنا إلى الدخول في قضية المعجزة . إذ أن الله الذي نقبل به مطلق القدرة (وهو على كل شيء قدير) ، فهو قادر على إحياء الميت ، وإحالة العصا إلى حية ، ونقل الرسول في لحظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، بل والسير به في السماوات .

ولكن الأمر بخلاف هذا الظن ، وليس بهذه البساطة

التي تقول إن القبول بوجود الله يحل جميع المسائل .
ولتوضيح ذلك نقول :

١ - يتصور بعضهم إن المعجزة هي وقوع أمر بغير سبب . إلا أن هذا التعريف بعيد عن الصحة كثيراً ، ولعل الماديين والذين ينكرون المعجزة هم الذين عزفوا على هذه النغمة أولاً ، ومن ثم شاعت على الألسن .

وذلك لأن الذين يؤيدون المعجزة يريدون منها أن تكون دليلاً على شيء ، فإذا حصلت المعجزة بدون علة ، فلن تكون ذات دلالة على أمر أبداً .

ولنفرض فرض المستحيل أن أمراً قد وقع بدون علة ، عندئذ لا يمكن إثبات أي شيء في العالم ، ولن يبقى أي قانون علمي أو طبيعي ، ولا شيء من الفلسفة وعلم الكلام ، بل سوف يتزلزل حتى بحث إثبات وجود الله .

فنحن نعرف الله بكونه علة العالم ، فإذا افترضنا أن ليس للعالم نظام ، وأن الشيء يمكن أن يحصل بدون علة ، فلن نستطيع رد قول القائلين بأن العالم قد تكون بطريق المصادفة وبدون علة ، لذلك فهذا الحديث لا يصلح للمعجزة البتة^(١) .

(١) لقد بحثنا هذا الموضوع بحثاً مسهباً في كتاب (العدل =

٢ - وقد يقول آخرون إن المعجزة لا تعني حدوث أمر
بغير سبب ، إنها ليست شذوذاً عن قانون العلية ، ولكنها
بدلاً من أن تكون لها علة واقعية ، تكون لها علة بديلة ،
أي إن المعجزة هي استبدال علة بأخرى .

فمثلاً ، العلة الواقعية لظهور الانسان هي الامتزاج
بين الذكر والأنثى . فاذا أزيلت هذه العلة الحقيقة وأني
بعلة أخرى بمكانها ، فظهر انسان بغير امتزاج بين الذكر
والأنثى ، فتلك هي المعجزة .

هذا القول ناشئ أيضاً عن عدم الاطلاع على العلوم

= (الاهي) ، وقلنا انه لباطل أن يظن أحد أننا إنما نقوم بالأعمال
عن طريق العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب ، لكوننا
عاجزين ، وإن الله لكونه قادراً على كل شيء فلا حاجة له إلى
العلة والمعلول .

كلا ، ليس الأمر كذلك ، فقد ثبت عند الحكماء أن قدسية
ذات الله وكماله تقتضي أن تجري الأعمال ضمن نظام العلة
والمعلول ، وبعبارة أخرى نظام العلة والمعلول هو نظام فعل
الله .

هناك عدد من الآيات في القرآن الكريم تخص هذا الموضوع ،
يتضح فيها ان الله ، عن طريق الأسباب ، يحقق أوامر ، سواء
أكانت أسباباً طبيعية ، مثل نزول المطر ، ونمو النباتات ،
وأمثالها أم أسباباً غير طبيعية مما وراء الطبيعة ، مثل الملائكة ،
وجنود الله غير المرئيين .

العقلية ، وذلك إننا إذا قبلنا بمبدأ العلة والمعلول ، وأنه هو السائد في العالم ، فلا يمكن نقضه أو تغييره وتبديله ، إذ إنه ليس عقداً تعاقدياً ، إنما هو حقيقة واقعية لا تخلف فيها .

ففي الطبيعة إذا كان (أ) علة وجود (ب) ، فهناك بين (أ و ب) رابط واقعي وحقيقي ، بحيث إن أيّاً منهما ليست له رابطة مماثلة مع طرف ثالث ، وليس لأي منهما وجود بغير الآخر . الخلاصة إن العلة الحقيقة لأمر ما هي علة واحدة فقط . والأمر الواحد لا يمكن أن يرتبط برابط العلية والمعلولية بشيئين اثنين .

لذلك ، في المثال السابق ، لا يمكن أن يكون (ج) بمكان (أ) ، ولا أن يصبح (د) معلولاً (أ) بدلاً من (ب) ^(١) .

٣ - هنالك بإزاء هذين التعريفين تعريف ثالث للمعجزة ، يجيب على جميع الاعتراضات العقلية السابقة ، وهو أن نقول : إن المعجزة لا تلغي قانون العلة

(١) اما عن نوع الرباط بين العلة والمعلول ، ولماذا لا يمكن الحصول من علة واحدة على أكثر من معلول واحد ولا أن يكون الشيء معلولاً لعلتين ، فقد ورد تفصيل ذلك في الحاق المجلد الثالث من كتاب (اصول الفلسفة) .

والمعلول ، ولا هي تنقضه ، ولا هي استثناء منه . بل هي خرق لقوانين الطبيعة .

هنا لك فرق بين خرق قانون العلة والمعلول ، وخرق قوانين الطبيعة . فالمعجزة لا تعني حدوث أمر عن غير طريق العلة والمعلول الأصلي ، إنما المعجزة هي التي تحدث بخلاف المسير العادي والجريان الطبيعي للأمور .
وبعبارة أوضح :

المعجزة خروج أمر عن المجرى العادي إلى الحد الذي يظهر فيه تدخل ما وراء الطبيعة ظهوراً واضحاً .
ففي هذه الحالة لا تكون علة قد أخذت مكان أخرى ، إذ إن الرابط بين العلة والمعلول ، وهو رابط أصيل ، موجود ومقبول . أما المعجزة فيمكن توجيهها هكذا :

إن العلل الواقعية للأشياء ، والتي يريد الإنسان أن يصل إليها عن طريق التجربة والعلم ، ما زالت مجهولة ، والله وحده يعلم العلل الحقيقة للأشياء ، والإنسان إنما يصل بتجاربه واختباراته إلى سلسلة من المقارنات والعلاقات فقط ، وبحسب أنها هي العلاقات العلية .

وعلى ذلك فالمعجزة هي ما يحدث عن غير الطريق المألوف الذي يظن الناس إنه يحدث به عادة . وسوف نوضح هذا مرة أخرى .

٢ - هل المعجزة ممكنة ؟ :

لقد اتضح جواب هذا السؤال إلى حدٍ ما في الفصل السابق ، حيث قلنا إن إمكان حدوث المعجزة أو استحالتها يرتبطان بتعريف المعجزة وكيفية تناولنا لها .

فإذا قلنا إن المعجزة هي ما يحدث بدون علة ، فتكون عندئذٍ مستحيلةً بالبداهة . كذلك الأمر إذا قلنا إن المعجزة نقض لقانون العلية ، أي تبادل الأمكنة بين العلل .

أما إذا نظرنا إلى الأمر من خلال التعريف الثالث ، أي أنها خروج الطبيعة عن مجراها العادي ، عندئذٍ تكون المعجزة ممكنة ، وليست مستحيلة . وعلينا هنا أن نستزيد شيئاً من التوضيح .

يورد « هيكل » ، الفيلسوف الألماني المعروف ، بعض المبادئ التي يبني عليها مسائل كثيرة من فلسفته .

يقول : هنالك سلسلة من المسائل تعتبر من الضرورات العقلية ، ولا يجوز خلافها ، أي إنها لا نقض لها . مثل المسائل الرياضية التي يسميها « القضايا التحليلية » .

تقول في الرياضيات إن مجموع زوايا المثلث ١٨٠ درجة أو قائمتان . هذا الحكم من أحكام العقل الضرورية ، أي إذا استطاع العقل أن يدرك ما هو

المثلث ، فهو يدرك فوراً بأن الضرورة تقتضي بأن يكون مجموع زواياه ١٨٠ درجة ، ويستحيل أن يكون غير ذلك ، حتى بجزء من الدرجة .

والقضايا التي تعتبر في الفلسفة والمنطق من القضايا الضرورية تشبه هذه ، مثل اجتماع النقيضين وارتفاع النقيضين .

إلا أن هناك مسائل أخرى هي مسائل تجريبية ، أي المسائل التي لا يدرك فيها العقل أية ضرورة وإنما تقول إنها هكذا لأننا وجدناها هكذا .

والمثال الذي يضربه « هيكل » للمسائل التجريبية هو قوله : إننا بحسب تجاربنا الكثيرة لاحظنا أن الماء يتحول إلى بخار في درجة حرارة ١٠٠ ، ونطلق على هذا اسم « العلة » فنقول إن الحرارة هي « علة » تبخر الماء . وإذا رأينا الماء يتجمد في برودة تحت الصفر ، نقول إن البرودة هي « علة » تجمد الماء .

يقول « هيكل » إن أيّاً من هذين ليس ضرورة عقلية ، وإنما نحن وجدنا الأمر هكذا فحكمنا به هكذا ، ولو أننا منذ ولادتنا كنا قد رأينا خلاف ذلك ، أي إذا رأينا أن الحرارة هي التي تجمد الماء ، وأن البرودة تحيله إلى بخار ، لما قام في عقلنا أي اعتراض . أي إن الانجماد

بسبب البرودة ، والتبخر بسبب الحرارة ، ليستا مما يوجب العقل ضرورتها ، بل هما من القضايا الوجودية الصرف . فهي موجودة في العالم هكذا ، وليس خلافها ضروري أيضاً .

هذا القول ، إلى هذا الحد قول معقول ، وهو يشبه ما توصل إليه ابن سينا وأمثاله الذين كانوا يتساءلون : ماذا بشأن العلوم الطبيعية التي تستند دائماً إلى التجربة ، والتجربة لا تؤدي إلى القول بضرورتها ؟ وكيف ننظر ، من هذا المنظور ، إلى العلوم الطبيعية وقوانينها ؟ فهل يمكن درج قوانين التجربة تحت قانون العلة والمعلول الفلسفي ؟ .

يقولون إنه في الموارد التي تكشف فيها التجربة عن علاقة ما ، مثل الحرارة التي تكون سبب تبخر الماء والبرودة التي تكون سبب انجماد الماء ، لا بد أن تكون هناك (علة) حقيقية لهذا ، وأن تلك العلة الحقيقية لا يمكن أن تترك مكانها لعلّة أخرى . ولكن القول بأن العلة هي ما نحسه بحواسنا في التجربة ويكشفه لنا الاختبار ، فأمر مشكوك فيه . ولهذا نجد ، ان العلوم التجريبية تتغير كل يوم ، فينسخ قانون قانوناً قبله ، ويقوم مقامه .

فمثلاً عندما اكتشف الانسان ان الحجر يسقط إلى

الأرض إذا رمي من أعلى ، قالوا إن في الحجر قوة جاذبة تميل إلى الإقتراب من مركز الأرض .
وكان هذا حكماً أصدره على اثر القيام بتجارب كثيرة ، واتفقوا عليه . ولكن على اثر مجيء (نيوتن) تغير الحال ، وقالوا : لا ، ليس الحجر هو الذي يميل إلى الاقتراب من مركز الأرض ، بل إن قوة الجاذبية في الأرض هي التي تجذب الحجر اليها .

ومن ثم ظهرت النظرية النسبية ، وأعيد النظر في النظرية السابقة .

فالشئ الثابت من كل ذلك هو إن الحوادث لا تحدث بدون علة ، ولكن ترى هل يكتشف العلم تلك العلل أم لا ؟ وهل إننا بمجرد أن نكتشف علاقة ما ، يصح أن نقول إننا قد اكتشفنا العلة ؟ كلا ، هذا غير صحيح ، فهذه ليست العلل الحقيقية ، فلا الحرارة علة التبخر ، ولا البرودة علة الانجماد ، ولا الجاذبية علة سقوط الحجر ، فهذه العلائق كثيراً ما تتبدل .

هنا يتضح بجلاء الفرق بين (ناموس الطبيعة) وقانون العلة والمعلول . فمن حيث الناموس الطبيعي نجد إن كل حالات الولادة الانسانية لها طريق واحد فقط ، فلا بد من الذكر والانثى ، ولا بد من انعقاد النطفة ، حتى

يكون الانسان . ولكن هل قانون العلة الأصيل هو الحاكم هنا ؟ هل غير هذا مستحيل ؟ أفلا يمكن أن تتولد في وقت ما في رحم المرأة خلية ذات استعداد خاص ، فتجمع بين عمل بويضة المرأة وعمل حيمن الرجل ؟ .

والعقل لا ينكر هذا ، إنما يقول : هذا ما وجدناه وما نراه ، ولكن قد يحدث بشكل آخر لا نعرف سره حتى الآن ، كأن بويضة المرأة حيمن الذكورة . فإذا حصل هذا فإن قانون العلية لا ينتقض ، بل الذي ينتقض هو الأساس الطبيعي . وهذا هو المعجزة .

فالمعجزة ، إذن خرق لنواميس الطبيعة ، وهي ، بهذا المعنى ، ممكنة الحدوث .

نعود إلى « هيكل » مرة أخرى . إذا ادعى أحد النبوة وقال ان معجزته هي أنه يستطيع رسم مثلث مجموع زاوية ١٩٠ درجة ، فيجب تكذيبه فوراً ، لأن هذا مستحيل الادعاء نفسه دليل على كذب المدعي .

أو قد يزعم مدعي النبوة إنه قادر على احداث حدث بدون علة ، فيكون كاذباً أيضاً ، لأن ذلك يناقض الضرورة العقلية .

ولكن إذا ادعى أحد إنه يستطيع أن يخرق النواميس الطبيعية كتلك الأعمال التي يقول عنها « هيكل » إننا لا

غملك دليلاً عليها ، وإنما وجدناها هكذا دائماً ، فاننا نتقبل ذلك .

وبعبارة أخرى ، إن القوانين العقلية مطلقة ، غير مشروطة ، أي ليس فيها « إذا » . ولكن القوانين الطبيعية مشروطة ، أي عندما نقول إن مجموع زوايا مثلث يساوي قائمتين ، فلا يصح أن نضيف : إذا لم يحل دون ذلك مانع . ولكن في القوانين الطبيعية نستطيع أن نقول إن قانون الجاذبية يقضي بأن يجذب الجسم الكبير جسماً أصغر منه ، إذا لم يحل مانع دون ذلك ، أي إذا أنت وضعت يدك لتحول دون سقوط الجسم ، فإن قانون الجاذبية يتوقف عن العمل .

يتضح من ذلك إن اكتشاف العلل الحقيقية ليس في طاقة البشر ، فهي خافية عليه ، وإن كل الذي يستطيع أن يتوصل البشر إلى معرفته هو سلسلة من العلاقات فحسب . إن الله وحده هو العليم بتلك العلل .

جاء في سورة « الطلاق » : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، أي لا حاجة له بأي علة من العلل الظاهرة . ثم يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَلْفِ أَمْرَةٍ ﴾ .

ولكنه ، لكي لا يظن الناس أن ليس في نظام العالم علة ومعلول ، وإن الله قد يقوم أحياناً بأعمال على خلاف

نظرية العلية ، يقول ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا ﴾ أي إنه وضع لكل شيء حداً أو مقداراً وعلاقة ، ولكنها علاقة يعلمها الله وحده .

أما كون الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، بحيث لا يرى البشر لها سبباً من الأسباب التي يعرفها ، فلأن هذه هي الظواهر ، وليست العلل الحقيقية ، فهذه علمها عند الله وحده .

وإذا أراد الله فانه يكشف لبعض الناس عن أسرار العلة والمعلول ، وإذا ما تلقى أحد هذه الأسرار من الله ، يكون بمقدوره أن يتصرف في أعمال العالم كما يشاء ، بغير أن يتدخل في نظام العلة والمعلول .

وهذا هو معنى الحديث الذي جاء فيه أن العبد قد يقترب من ربه إلى الحد الذي يكون الله عيناً له يبصر بها ، وأذنأ يسمع بها ، ويدأ يعمل بها .

٣ - هل تقع المعجزة ؟ :

جواب هذا السؤال سهل يسير ، فإننا بعد معرفتنا أن المعجزة ليست خرقاً لنظام العلة والمعلول نجد الكثير من حوادث خرق نواميس الطبيعة قد وقعت ، وتقع .
ينقل عن ابن سينا أنه قال : إذا سمعت أن (عارفاً)

من الناس قد بقي شهراً دون طعام ولم يمِت ، فلا يأخذك العجب . فهو قد عمل بخلاف قانون الطبيعة ، وليس بخلاف الوجود الكلي . فإن القول بانه إذا لم يأكل الانسان مدة ثمانٍ وأربعين ساعة ، مات ، قول صحيح ، لأن عملية هضم الطعام المألوفة تقتضي أن يصل إلى المعدة طعام خلال تلك المدة .

إلا أن بعض الناس يستطيع ، بتقوية إرادته ، أن يسخر جسمه بحيث إنه يستطيع أن يسيطر حتى على حركة قلبه ، وأن يكون تنفسه على وفق ارادته ، وأن يتحكم في هضم الطعام وفي فعاليات معدته .

هنالك نماذج عديدة لأمثال هؤلاء الناس بين مرتاضين ، ومنهم من كان يستطيع أن يحبس انفاسه مدة طويلة ، فلا يتنفس ، مع ان الافراد العاديين قد لا يستطيعون ذلك حتى لدقيقة واحدة .

هذا ينتج من تقوية الروح وترويضها ، أي إننا نقوي الروح بحيث تصبح هي المسيطرة على فعاليات الجسم .

يقال ان بعض الزعماء الروس الذين زاروا الهند في وقت ما ، أثارت أعمال من هذا القبيل حيرتهم ودهشتهم ، بحيث أنهم عندما عادوا إلى بلدهم طلبوا أن تدرس هذه الأمور في جامعاتهم ، وكأنها علم من العلوم .

لقد رأى هؤلاء ، من بين ما رأوا ، إن رجلاً قد أدخل في تابوت ، ودفن في قبر بدون أن يكون هناك منفذ للهواء وللتنفس . ثم بعد أن أخرجوه بعد مدة ، أخذ يتنفس كالعادة ، وكان واضحاً أنه عند دفنه قد قطع تنفسه باختياره .

على كل حال ، أمثال هذه الأعمال كثيرة ، وغمادها تقوية الإرادة عن طريق التمرين ، وبعضها غير شرعي . وعلى ذلك ، فإن المعجزة ، كما قلنا ، عمل يجري على خلاف القوانين الطبيعية ، مع ملاحظة أن الأنبياء كانوا يتمتعون بعناية الله ، ويمثلون النماذج للإنسان الكامل ، وللروح القوية ، وللإرادة المتينة . فتعليل المعجزة ليس من الأمور الصعبة .

٤ - كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها ؟ :

يقول المناطقة إن هناك ثلاثة أنواع من الأدلة :

- ١ - الدليل الوضعي .
- ٢ - الدليل الطبيعي .
- ٣ - الدليل العقلي .

الدليل الوضعي :

وهو أن نضع علامة لتدل على شيء معين بحيث لو

اختلف الشيء لوجب اختلاف الدلالة ، كدلالة الألفاظ على المعاني ، فلفظة (الخبز) وضعت لتدل على هذا الطعام المعروف ، والماء لهذا الذي نشربه ، ولو كان الأمر معكوساً ، أي لو وضع الخبز لما نشربه ، والماء لما نأكله ، لما اختلف الأمر ، ولما حصل التباس ، أي ليست هناك أية رابطة ذاتية بين الاسم والمسمى في أي من المثالين المذكورين .

ومثال آخر إشارات المرور ، فقد تواضعوا على أن يكون الضوء الأخضر إشارة للعبور الحر ، وهذا دليل وضعي ، فلو كانوا قد تواضعوا على أن يكون الأخضر علامة الوقوف لدلّ على ذلك أيضاً .

فهل دلالة المعجزة على صدق النبوة كتلك أيضاً ؟ هل تواضع الله مع الناس من قبل على أنهم إذا رأوا من أحد أعمالاً معينة عليهم أن يعلموا أنه مرسل من الله وأنه يصدقهم القول ؟ .

ليس الأمر كذلك ، لأن ما يريد الله إيصاله الى الناس يرسله بوساطة أنبيائه ، ونحن الآن بصدد اثبات الأنبياء أنفسهم .

الدليل الطبيعي :

وهي الدلالة التجريبية ، كأن يدل السعال على ألم

الصدر ، أو تدل سرعة النبض على الحمى . هذه علائم طبيعية عرفت بالتجربة .

لا شك إن المعجزة ليست من هذه الدلالات ، إذ أنها ليست ضمن تجارب البشر .

الدليل العقلي :

وهو الدليل الاستدلالي ، مثل دلالة المعلول على العلة . عندما يلاحظ العقل حدوث الحدث ، يعرف إنه يستحيل حدوثه بدون علة ، فيحاول معرفة علة ذلك المعلول . وهذا ما يحتاج إلى الوضع أو التجربة .

دليل المعجزة من هذا النوع ، ولتوضيح ذلك نقول :
هنالك طريقتان لتبيان دلالة المعجزة . يقول أصحاب علم الكلام إن المعجزة نوع من الأدلة العقلية ، بصورة عملية ، كأن يدرك العقل رضا شخص ما من سلوكه ، أو أنه يستشف رضاه من سكوته . ومن هذا القبيل اعتبار تقرير العصمة حجة ، كما جاء في الفقه ، أي إذا كان المعصوم يقرر طريقة الوضوء أو يتوضأ عملياً ليتعلم الآخرون ، فذلك في نظرنا حجة ، وكذلك إذا توضأ أحد أمام المعصوم ولم يعترض عليه ، فنذكر بالدليل العقلي على أن طريقة الوضوء هي تلك ، مستدلين على ذلك بأنه لو لم يكن كذلك لاعتراض المعصوم ، وبما أنه لم يعترض ، فلا

شك إن طريقة الوضوء صحيحة في نظره . فإذا سأل احد لماذا يعترض المعصوم إذا لم تكن الطريقة صحيحة ؟ نقول ، إذن لكان سكوته إغراءً بالجهل ، أي إنه يحمل الناس على الجهل بطريقة الوضوء الصحيحة ، وهذا عمل قبيح غير مقبول ، والمعصوم لا يرتكب مثل هذا العمل .

وهؤلاء يقولون إن دلالة المعجزة على النبوة تعتبر من هذا القبيل ، وذلك حينما يأتي شخص ويقول : أيها الناس ، أنا رسول الله إليكم (مع العلم بأن الله عارف بكل أعمال البشر) ، يكون هذا الزعم قد أعلن في حضور الله ، فعندما يقوم بأعمال خارقة للعادة ، سواء أنسبها إلى نفسه أم إلى الله ، تكون هذه حتماً دليلاً على صدقه ، إذ لو كان كاذباً لكان على الله أن يحول دون حدوث المعجزة ، فلو تركها تحدث لكانه أيد الكاذب ، وأغرى الناس بالجهل .

كان هذا ملخص ما يورده المتكلمون بخصوص المعجزة .

إلا أن هناك عدداً من العلماء يعتقدون بأن المتكلمين لم يدركوا حقيقة المعجزة لكونهم حسبوها عملاً يحققه الله مباشرة على يد النبي ، بدون أن يتدخل النبي في اجراءاتها ، وأنه لم يكن سوى الواجهة الظاهرية ، وأن الله

هو الذي يقوم بالمعجزة على يد النبي ، كأن يجلس عيسى عند الميت ، ولكن الله هو الذي يحييه ، أي ليس لعيسى أي دور في إحيائه ، إنما هو مجرد وسيلة . أي إن العمل عمل الله بصورة مباشرة ، وكما إننا ، أنا وأنت ، لم يكن لنا أي تأثير في تحقيق المعجزة ، كذلك ليس للأنبياء يد في تحقيقها .

كلا ، ليس الأمر كذلك ، بل هو أرفع من ذلك بكثير . إن بين المعجزة وصاحبها علاقة واقعية بحيث لا يمكن حدوثها على يد شخص آخر .

المعجزة إعلان عن الكمال الروحي والمعنوي الذي بلغه « ولي » الله . عندما يحقق ولي الله اعجازاً ، تكون قواه البشرية في اتصال بقوى الله ، أي إن الله يمنحه إرادة وقدرة فوق ما للبشر .

يتضح مما سبق ذكره ، إنه بسبب قيام ولي الله بالطاعة لله اطاعة كاملة وبسبب الرياضيات العملية التي يقوم بها ، يبلغ مرحلة تكون له فيه ارادة من القوة بحيث انها تقهر الطبيعة . وبعبارة أخرى ، يستطيع البشر في ظل الطاعة والعبادة ، أن يبلغ من الله قرباً يصبح معه نموذجاً لله في الأرض .

وعليه ، فإن قيام أولياء الله بأعمال خارقة للطبيعة

يكون من عمله أنفسهم ، إنما بطاقة تفوق طاقة البشر .
وهذا نفسه قد ورد على لسان علي بن ابي طالب ، إذ
أنه عندما اقتلع باب خيبر بمفرده ، الباب الذي كان يجد
أربعون أو خمسون رجلاً صعوبة في زحزحته ، وقذف به
بعيداً ، قال :

« والله ما قلعتُ بابَ خَيبَرِ بِقُوَّةِ جَسَدَانِيَّةٍ ، بَلْ بِقُوَّةِ
إِلَهِيَّةٍ » .

أي إن ساعدي البشريتين ما كانتا قادرتين على ذلك ،
إنما أعانتها على ذلك قوة إلهية ، بحيث لو كان الباب أثقل
من ذلك عشر مرات لكان قادراً على اقتلاعه .

إذن يقول علي (عليه السلام) : قلعت . أي إنه هو
الذي قلع الباب ، لا أنه أمسك بالباب ، فاقتلعه الله
وقذف به بعيداً . إنه قلع الباب ولكن بالقوة التي وهبها
الله له . فالمعجزة تعني ، إذن ، انه إذا أحيا عيسى الموق ،
فإنه لم يحيهم بقوته البشرية ، ولا الله أحياها مباشرة بدون
تدخل الانسان ، وإنما عيسى أحياها بقوة ربّانية .

يتضح من ذلك إن دلالة المعجزة على صدق النبوة
دلالة عقلية ، ولكن ليست كذلك الدلالة العقلية التي
يقول بها المتكلمون ، بل دلالة عقلية منطقية مئة بالمئة .

٥ - رسول الاسلام والمعجزة :

اعترض بغض المستشرقين ورجال الدين المسيحيين على القرآن وعلى الرسول ، في معرض طرحهم موضوعاً ، تابعهم فيه بعض الكتاب المسلمين بشكل آخر ، فأيدوا مزاعمهم وقبلوها . ذلك الموضوع هو معاجز رسول الاسلام .

طرح المسيحيون الموضوع هكذا : ويستنبط من القرآن أن النبي كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة إذا ما طالبوه بها ، وفي القرآن ما يدل دلالة صريحة على ذلك ، حتى إنه ينكر ذلك أشد الانكار . ثم يستشهدون على ذلك بايراد بعض الآيات ، التي سوف نردها فيما بعد .

أما بعض الكتاب المسلمين المحدثين فقد عرضوا للموضوع هكذا :

ترتبط المعجزة من حيث الأساس بأدوار طفولية البشر ، أي الأدوار التي كان البشر ما يزال في مرحلة التوحش ، لم يصل بعد إلى مرحلة العلم والعقل والمنطق . ولذلك لما لم يكن بالامكان عرض المسائل على الناس بطريق العلم والمنطق ، كان على الأنبياء أن يأتوا بالمعجزات .

وبعبارة أخرى ، كان الانسان طفلاً ، والطفل لا

يفهم كلام المنطق والاستدلال ، على حد قول الشاعر :

«إذا اضطررت للتعامل مع الطفل

فعليك أن تنطق بلسان الطفولة»^(١)

فالمعجزة لغة الطفولة للأطفال ، أي إنسان العصور
السحيقة . ولكن ما إن بلغ البشر مرحلة البلوغ الفكري
التي يمكن فيها أن تخاطبه بلغة العلم والمنطق والاستدلال ،
حتى لم تعد ثمة حاجة الى المعجزة . بل يتقبل البشر قول
الرسول المبعوث الذي يضع الخطط والقوانين الاصلاحية
والتقدم بالانسان نحو التكامل ويؤمن به بلا تردد .

إن اختلاف رسول الاسلام عن الرسل الذين أتوا
قبله ، هو إن ظهوره اقترن تاريخياً بمرحلة تحول البشر من
التوحش الى التفكير .

وفي ذلك يقول إقبال اللاهوري : ان رسول الاسلام
يقع ضمن مقطع تاريخي يرتبط ماضيه بمرحلة طفولة البشر
وتوحشه ، ويرتبط مستقبله بمرحلة العلم والمنطق .

وعلى هذا ، يختلف الوحي الذي نزل على نبينا في
آخر الزمان عن الوحي الذي نزل على سابقه ، بل إنما
جاء رسولنا ليحمل الناس إلى مرحلة العقل والمنطقة .

(١) جُونُكِهِ بَا كُودَكَ سَرُو كَارَتْ فِتَادْ

پَسْ زَبَانِ كُودَكِي بَايْدُ كُشَادْ

ويستطرد إقبال اللاهوري ، فيقول : إن الرسول ينتمي ، من حيث منشأ عمله - وهو الوحي - الى مرحلة سابقة ، ومن حيث روح رسالته - وهي الدعوة الى العقل والمنطق والعلم والتجربة والاختبار والاعتبار بالتاريخ - الى المستقبل .

وهذه ، في نظر اقبال هي فلسفة اختتام النبوة بالرسول ، أي إن ذكر الماضي يؤدي إلى نتيجتين اثنتين : الأولى اختتام النبوة ، والثانية الاستغناء عن المعجزة . أي بمجيء رسالة هي خاتمة الرسالات ، لن تكون الظروف بعد ذلك مهيئة لنبوة أخرى ، ولن تكون حاجة الى المعجزة ، لأن المعجزة تتعلق بالمراحل السابقة .

هذا هو الطرح الذي يراه اقبال ، وقد تبعه في ذلك بعض الكتاب المسلمين .

إننا الآن لسنا في مقام بحث هذا الموضوع بحثاً مسهباً ، ولكننا نقول قولاً مجملاً ، وهو إن هؤلاء ، في هذه الفلسفة التي يوردونها عن اختتام النبوة يقعون في خطأ جسيم .

طبعاً لا أقصد أن أقول ان اقبال ينكر انتهاء النبوة (حسبما ظنه بعضهم) . بالعكس ، فاقبال يقبل بختم النبوة ، انما توجيهه لهذا الأمر غير صحيح .

إن الفلسفة التي يذكرها تؤدي إلى نتيجة هي عكس ما يريد اثباته تماماً ، وذلك لأننا إذا اعتبرنا توجيهاته صحيحة ، لكانت النتيجة « ختم الدين » لا « ختم النبوة » .

إننا الآن لسنا بصدد هذا ، بل نحن نبحث في المعجزة . إن أقوال الكتاب المذكورين تشير إلى مسألتين : المسألة الأولى تقول ان مرحلة البلوغ الفكري لا تتطلب المعجزة . والمسألة الثانية هي ان الاسلام يمتنع عن الاتيان بأية معجزة ، كما ورد في عدد من آيات القرآن . فلا بد من بحث هذين الموضوعين .

أما فيما يتعلق بموضوع انتفاء الحاجة إلى المعجزة في مرحلة البلوغ الفكري عند البشر ، فإنه غير صحيح ، وذلك لأن القرآن ، كما قلنا من قبل ، يستعمل تعبير « آية » ولا يستعمل تعبير « معجزة » .

فالآية هي الدليل ، والدليل يعني هنا إن ما يقوله هذا الشخص ليس من عنده ، إنما هو من عند الله .

قد يستعمل نبي كلاماً منطقياً ، كلاماً يمكن إثباته بما يشتمون به المسائل العلمية كالبرهان والتجربة والاختبار . فيكون هذا في هذه الحالة ، مجرد حكيم أو عالم كبير ، ولكن ثمة فرق كبير بين الحكيم العالم الفيلسوف والنبي .

فكلام الحكيم الفيلسوف يقع في مستوى كلام البشر ،
ولكن الرسول يريد أن يقول شيئاً أكثر من هذا .

فبالإضافة الى أن كلام الرسل منطقي وعقلاني ، فان
لهم كلاماً آخر ، وهو إن هذا الكلام ليس كلامهم ، إنما
هو قد بلغ إليهم ، وهم يبلغونه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ .

أي إن هذا الذي أقوله ما كان بسبب إني أمضيت
الليل أفكر فيه لأن لي دماغاً أكبر من الأدمغة ، كلا ، بل
هو كلام الله قد أوحى إلي .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
الْمُنذِرِينَ ﴾ .

إن لي لساناً واحداً وهو متوجه نحوكم ، ولكن
لروحي في الباطن اتصال بمكان آخر ، ومن هناك يأتيني
البلاغ ، فأبلغكم به .

إنني ، أصلاً ، رسول ، أحمل رسالة الله إليكم ، لا
كلامي أنا . والموضوع كله يدور حول حمل الرسالة . فأنا
رسول نبي ، أحمل اليكم رسالة من غيري .

إذا فرضنا إن السيد سقراط قال يوماً إن له فلسفة
كهذه في الأخلاق . فإذا وجدنا كلامه منطقياً ، قبلناه .

ولكن إذا قال سقراط إن كلامه ليس من عنده ، بل من عند الله ، وإنه مجرد حامل لكلام الله إلينا ، عندئذ نقول له : عليك أن تثبت لنا هذا ، فعلى الرغم من أن كلامك منطقي ، لكنه لا يكون دليلاً على أنه من عند الله ، فكون الكلام منطقياً شيئاً ، وكونه ليس للقاء ، بل من كلام الله ، وإن اطاعته تنيل الثواب ، والكفر به كفر بالله ، شيء آخر .

كثيرون هم الذين يتكلمون كلاماً منطقياً ، ولكننا إن لم نطعمهم فلا بأس علينا . ولكن الذي يقول هذا ليس كلامي ، بل هو كلام الله ، فإن لم نطعمه نكون قد تمردنا على الله ، وإن أطعناه نكون قد عبدنا الله .

وعليه ، يصح القول بأن الرسول يستطيع ، في مرحلة البلوغ الفكري ، أن يثبت أقواله بالدليل المنطقي ، كأن يقول : أيها الناس فكروا واعقلوا ، وادركوا صحة أقوالي . ولكن صحة أقواله شيء وكونها من عند الله شيء آخر .

قد يأتي نبي الاسلام فيقول : لا تشربوا الخمر ، فالخمرة تضركم ، إنها رجس وشر . ثم يقول : حسن ، أنتم تريدون الدليل الآن . أنظروا إلى الذين اعتادوا على شرب الخمر أزماناً طويلة ، لتروا ماذا يحدث لهم ،

ولأعصابهم ، ولجهازهم الهضمي ، ولأكبادهم . إذهبوا
وجربوا أولئك الذين يشربون الخمر ويسكرون ، كم
يسبون للمجتمع من مصائب ، ولا تجربة خير من هذه .
فالأحصائيات عن الجرائم الناشئة عن تعاطي الخمر دليل
على ضرورها .

فالناس الذين يلتزمون العقل والمنطق ، يفهمون جيداً
إن هذا الطلب منطقي ، فلا ينبغي لهم أن يقربوا الخمر .
ولكن القول ، مرة أخرى ، بأن هذا بلاغ من الله ،
يكون شيئاً آخر . لذلك فإننا ، في مرحلة البلوغ ، حتى
لو أدركنا صحة جميع أقوال الرسول بالبراهين العلمية
والعقلية ، فإننا ، في موضع تصديق نبوته ، نحتاج الى
المعجزة .

إلى هنا كان البحث يتعلق بالطرح الأول . ونأتي الآن
إلى الطرح الثاني ، القائل بأن الرسول ، بشهادة القرآن ،
كان يمتنع عن القيام بمعجزة ، وأنه لذلك لم تكن له
معجزة . ويستشهد هؤلاء بآيات عديدة ، أوضحها ما جاء
في سورة الاسراء :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَنْبُوعاً ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ
الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ

عَلَيْنَا كِسْفًا ، أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونُ لَكَ
بَيْتٌ مِنْ ذُرْهُرٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ
حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا
بَشَرًا رَسُولًا ﴿١﴾ .

تقع مكة في أرض قاحلة جرداء ، لا ماء فيها ولا
زرع ، ولم يكن في مكة يومئذ ماء جار ، والموجود منه في
الوقت الحاضر ويستفاد منه في منى وعرفات ، يأتي معظمه
من نهر الطائف ، والطائف تقع على بعد اثني عشر فرسخاً
إلى جنوب مكة ، حيث أمرت زبيدة ، زوجة هارون
الرشيد الخليفة المقتدر ، فخصص مال وافر - وهي التي
كانت تحت تصرفها بيت مال المسلمين - لحفر جبل الطائف
وإيصال نهر منه إلى مكة . أما في عصر النبي ، فلم يكن
في مكة ماء سوى ماء زمزم ، وهذا أيضاً لم يكن بالوفرة
الموجودة حالياً لأنهم وسعوا في حفر البئر بعد ذلك فازداد
ماؤها .

قال كفار قريش ومخالفو النبي ، انهم لن يؤمنوا
حتى :

١ - يفجر لهم الماء من الأرض .

(١) سورة الأسراء - آية : ٩٢ - ٩٦ .

٢ - لما كانت مكة خالية من كل زرع أو بستان ، فقد طلبوا أن تكون له بستان فيها أشجار العنب وأنهار تجري .

٣ - اذا كان يظن كما يقول ، أن العالم سوف يختلف في يوم القيامة ، وأن السماء والأرض تتداخلان ، فليعمل شيئاً الآن لتنزل السماء قطعاً .

٤ - يأتي بالله وبالملائكة من السماء لتأييده .

٥ - أو أن تكون له دار مليئة بالمال .

٦ - أو أن يصعد إلى السماء ليأتي منها برسالة يقرأونها ، تؤيد نبوته .

هذه هي الشروط التي أوردوها للإقرار به . ولكنه رد عليهم بأنه بشر عادي ، يحمل إليهم رسالة .

بهذه الآية يتشبت المعارضون قائلين إن الكفار طلبوا من الرسول ستة أنواع من المعاجز ، فرد الرسول : سبحان الله ! ما هذا الذي تطلبون ؟ كيف تطلبون المعاجز ، وأنا لا قدرة لي على الاتيان بها ؟ .

وهذه الآية هي نفسها التي استدل منها المسيحيون على أن النبي لم تكن له معاجز وكذلك استند عليها عدد من المتنورين الذين قالوا إن المعجزة تنفع في عصر طفولة البشر ، ولما كان النبي ، في عصر بلوغ الفكر ، كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة .

كلاهما قد جانبنا الصواب ، وها نحن نكشف عن الأمر .

سبق أن قلنا إن المعجزة ليست مستحيلة ، على اعتبار أن المستحيل هو كل ما لا يمكن حدوثه عقلاً ، وحتى لمن كانت له قدرة غير متناهية ، يبقى المستحيل ، مستحيلاً ليس لأنه غير قادر عليه ، بل لأن الأمر غير ممكن الوجود ، إنه العدم بذاته ، الفراغ نفسه ، فالأمر الذي حقيقته عدم الوجود ، لا يمكن أن يتحقق له وجود .

وعليه ، فإن طلب المعجزة يختلف عن طلب المستحيل ، لأن المعجزة ، كما قلنا ، هي وقوع أمر على خلاف الناموس الطبيعي الجاري ، ولكنه بذاته ممكن الوقوع بقدرة خارقة للطبيعة . هذه ناحية ، والناحية الأخرى هي إننا قلنا إن على جميع الأنبياء أن تكون لهم معاجز ، على أنها آيات وأدلة على صحة دعاواهم بأنهم رسل من الله . . . وهذا يكفي ، ولكن هل الأنبياء ملزمون أن يحققوا للناس كل ما يطلبون ؟ لو كان الأمر كذلك لأصبحوا من المشعوذين والسحرة اللاعين بالشعابين .

يأتي الناس وقتما ما يشتهون ويجلسون أمام النبي ، ويقولون : إذا كنت نبياً افعل لنا الشيء الفلاني الذي نطلبه منك . ثم تأتي جماعة أخرى ، وهكذا . هذا استهزاء ! .

إن الرسول يأتي من المعاجز بالقدر الذي يثبت إنه رسول من الله . وما ان يلقي عليهم الحجة حتى ينتهي الأمر ، ولن يرضخ لهم وإن ألحوا إلحاحاً شديداً .

وعلى حد تعبير العلماء ، فإن الأنبياء غير ملزمين أن يعملوا على وفق اقتراحات الناس . أي إن الأمر ليس كما لو كان طفل يبكي ، فتحمله أمه إلى رسول الله وتقول : ما دمت نبياً قادراً على المعاجز ، فحبذا لو قمت بمعجزة صغيرة تسكت بها هذا الطفل .

كلا ، المعجزة دليل يستطيع بها طالب الحقيقة أن يدرك الحقيقة أن يقبل بمن يأتيه فيقول : إذا أردتني أن أؤمن فاعطني كذا مقداراً من المال .

لقد أتت الرسل لكي يؤمن الناس ، والايمان والمساومة لا يجتمعان ، بل إنهم يحثون الناس على البذل والعطاء ، أي إنهم يطالبون الناس بأن ينفقوا في سبيل الله .

وإن مما يلفت النظر هو أنه على الرغم من أنهم يدعون الناس الى الانفاق وإلى الجهاد ، فأنهم لا يتقبلون كل أنواع الانفاق . فعندما يأتيهم من يقول : أريد أن أنفق مالاً فيما تأمرني به ، فاذا أحسوا أن إنفاقه هذا يقصد منه التبجح فلن يقبلوا منه ذلك ، أو إذا جاء أحدهم وقال

إني أريد أن أكون من جند الاسلام يسأل عن دافعه
للإنخراط في سلك الجندية ، فيقول لأنني أحب أن يذكر
التاريخ اسمي ، فانهم يطردونه قائلين له : ما هجرت إلى
الله . أي إنك تفتقر إلى الإخلاص والإيمان .

وعلى ذلك ، يتضح معنى الآيات جلياً فالآية الأولى
تقول :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَبُوعاً ﴾ .

ثمة فرق بين القول « لن نؤمن لك » و « لن نؤمن
بك » . فالثانية تعني : نؤمن بك والأولى تعني : نؤمن من
أجلك .

فهؤلاء لم يقولوا : لن نؤمن بك ، بل قالوا : لن
نؤمن لك ، أي إننا لن نؤمن من أجلك وبعبارة أخرى ،
يقولون : إذا كنت تريد أن نصبح من أتباعك ، وهذا
طبعاً في مصلحتك ، فعليك أنت أيضاً أن تفعل شيئاً
لمصلحتنا .

« حتى تفجر لنا » اللام تفيد الملكية المصلحية ، فمن
الواضح إنهم كانوا يريدون جريان العين لمنفعتهم ، وليس
هذا طلباً لمعجزة ، بل طلب لمعاملة مقايضة .

﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ
خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ .

لا شك في انه لو كان للنبي في مكة بستان ذات
نخيل وأعناب ، لما وزع ثمارها على الملائكة ، بل على
أهل مكة . فهذا أيضاً ليس طلباً لمعجزة بل هو طلب
مصلحي ، أي إنهم كانوا يريدون من النبي أن يحيل مكة
إلى الطائف ، مكة التي لم يكن فيها ماء ولا بستان ،
تتحول إلى مدينة مثل الطائف مليئة بالبساتين والأشجار
والمياه .

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ .

لوجاء أحد فطلب معجزة قائلاً إذا كنت صاحب
معاجز ، فلتكن معجزتك أن تقتلني ! أفهذا طلب
معجزة ؟ كلا ، إذ ما نفع المعجزة بعد أن يكون قد
قتل ؟ .

يقول كفار قريش : إنك تقول إن السماء تسقط يوم
القيامة على الأرض ، فإذا كنت صادقاً فافعل ذلك الآن .
فلو حقق لهم النبي هذه المعجزة ، فاحترقوا جميعاً ، فما
كان نفع ذلك لهم ؟ .

﴿ أَوْ تَأْتِي بِلَهُةٍ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ .

وهذا أيضاً طلب المستحيل ، إذ ليس من الممكن أن يكلم الله عبده مباشرة .

بل لو كان الله مثل البشر بحيث يراه الناس بأعينهم ويسمعونه بأذانهم ، لما بقيت حاجة إلى إرسال رسول .
إن الله الذي عرفنا على رسوله ، وله المشرق والمغرب ﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، ليس جسماً ، ولا هو في السماء حتى ينقلوه إلى الأرض .

إنهم يطلبون أن يتحول الله بشراً ، وهذا أيضاً مستحيل . وكذلك الأمر مع الملائكة الذين ليسوا من جسم مادي ، فلا يرون ، وإن كانوا أحياناً يظهرن في صورة أفراد من البشر ، فيراهم بعض الناس ، فهم ليسوا من جنس البشر ، ولا من جنس المادة حتى يمكن للجميع أن يروهم . فهذا أيضاً طلب غير معقول .

﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ﴾ .

هذا أيضاً طلب مادي جنوني محض . لقد كانوا من عبيد المال إلى درجة لم يكونوا يفهمون شيئاً غيره .

والطلب الأخير واضح أيضاً ، ولا يعدو أن يكون ذريعة ، إذ لو فرضنا أن الرسول جاء برسالة من السماء ، لعادوا يقولون : إنك أنت الذي كتبته .

على كل حال ، بعض هذه الطلبات جنونية ،
وبعضها من باب الحق وليس فيها ما يدل على طلب
الحقيقة .

ولهذا يرد عليهم الرسول بأنه ليس سوى بشر مرسل
اليهم . وما يطلب من الرسول ينبغي أن لا يكون جنونياً
ولا أحمق .

إذن ليس الأمر كما يقول أولئك الكتاب ، بأن هذه
الطلبات تشبه طلبات الأمم السابقة من أنبيائها ، وأن نبي
الاسلام كان يمتنع عن الاتيان بمعجزة . كلا ، إذ لو كان
طلب هؤلاء معقولاً وباحثاً عن الحق ، لما ردهم رسول
الله .

وإذا ما تغاضينا عن كل ذلك ، نرى أن القرآن يذكر
العديد من معاجز الأنبياء السابقين ، كنوح ، ولوط ،
وهود ، وصالح ، وموسى ، وإبراهيم ، وعيسى ،
وغيرهم . يورد لهم معاجز متنوعة لا يعتورها الشك
والتردد .

فهل يعقل ان يعدد القرآن هذه المعاجز للأنبياء ، ثم
عندما يطلب من الرسول معجزة يقول انه مجرد رسول
فحسب ؟ فلو كان الأمر كذلك ، لكان من حقهم ان
يسألوا : أو لم يكن الذين ذكرت معاجزهم أنبياءً مثلك ؟
أوليست تلك معاجزهم ؟ .

إذن يتضح إن معنى الآية هو إن ما تريدونه ليس من نوع تلك المعاجز ، فلو كانت لحققتها لكم .
ثم على الرغم من أن القرآن هو نفسه معجزة ، وسوف نبحت في ذلك قريباً ، وهو منصوص عليه في القرآن ، أفلم تكن للرسول معجزة أخرى ؟ .
إن القرآن نفسه يشير إلى عدد من معجزات نبي الاسلام بصورة صريحة ، منها :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

هذا قول صريح عن رحلة جسمانية غير عادية قام بها الرسول الكريم . أفليست هذه معجزة ؟ .
ففي الوقت الذي كانت فيه واسطة النقل هي البعير ، فلا طائرات (جت) ولا (جامبو) ، يسافر الرسول من المسجد الحرام إلى فلسطين في ليلة واحدة . فكيف يمكن تعليل هذا بغير المعجزة ؟ .

عندما نزلت هذه الآية قال كفار قريش ، ما دليلك على ما تقول ؟ فرد عليهم الرسول بأن وصف لهم القافلة

(١) سورة الأسراء - آية : ١ .

التي كانت في الطريق إلى مكة من الشام ، وأنهم قد
أطرقوا في المكان الفلاني ، وقالوا كيت وكيت . فادركت
قريش إنه مر بالقافلة .

ثم قصة انشقاق القمر :

﴿إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾^(١)

٦ - إعجاز القرآن :

نعرف إن نبينا خاتم الأنبياء ، وإن دينه خاتم
الأديان وخالد ، بل إن الرسل السابقين كانوا مقدمات ،
ومراحل أولية ، إذ كان الانسان أيضاً يمر بمراحل ويخلف
مراحل ، حتى يتهيأ للمرحلة النهائية ، وعند مجيء خاتم
الأنبياء ، لن يكون نبي بعده ، ويبقى دينه خالداً إلى
الأبد .

فلننظر ما سرّ ختم النبوة . ولكيلا ندخل في تفاصيل
هذا الموضوع ، أصدرنا رسالة صغيرة تحت عنوان (ختم
النبوة) إلا أننا نشير هنا إلى نقطة واحدة بهذا الخصوص .

إن الدين الخاتم للأديان يختلف عن الأديان الأخرى

(١) سورة القمر - آية : ١ .

في كثير من سماته . ومنها خصوصية معجزة الدين الخاتم
للأديان ، أقصد معجزته الأصيلة .

معاجز الأنبياء السابقين كانت من المعاجز الطبيعية ،
مثل إحياء الموتى ، تحول العصا إلى حية ، وأنفلاق
البحر ، وأمثالها . . .

هذه كلها حوادث موقته ، أي إنها تحدث في لحظة
معينة ومكان معين ، ولا تبقى طويلاً .

فإذا تم إحياء ميت ، فإن ذلك يتم في لحظة واحدة ،
وقد يبقى حياً بضعة أيام ، ولكنه يموت في النهاية وينتهي
كل شيء .

وإذا انقلبت العصا حية ، فهي تنقلب في بعض
ساعة ، ثم تعود إلى ما كانت عليه .

إن معاجز الأنبياء السابقين من هذا القبيل ، بل إن
إن بعض معاجز النبي أيضاً من هذا القبيل ، مثل
الاسراء ، وانشقاق القمر ، فهي تحدث في ليلة وتنتهي .

ولكن بالنسبة لدين خالد يريد أن يبقى قروناً طويلة
بين الناس لن تكفيه معاجز موقته قصيرة العمر . إن ديناً
هذا شأنه ينبغي أن تكون له معجزة خالدة أيضاً .

لذلك فإن معجزة خاتم الأنبياء الأصيلة جاءت على
هيئة كتاب . كان للأنبياء الآخرين كتب ومعاجز ، إلا أن

كتبهم لم تكن معاجز ، ومعاجزهم لم تكن كتباً .
كانت التوراة كتاب موسى ، ولكنه كان يقول إن كتابه
ليس معجزة ، وإن معجزته غير التوراة .

ولكن معجزة رسول الاسلام كتابه على التخصيص ،
ولا يعني هذا أنه لم تكن له معاجز أخرى ، بل يعني أن
كتابته أيضاً معجزة ، وهذا من مستلزمات خلود خاتم
الآديان .

ثمة نقطة أخرى هي الدين الخاتم للآديان ، ويعد
أحد أسرار الختم ، فهو بالنسبة الى المراحل السابقة يعد
بمشابة مرحلة التخصص النهائي لمراحل ابتدائية ، أي إنها
المرحلة التي يكون للانسان فيها وجهة نظر .

فالطالب في مرحلتي الابتدائية والثانوية يستمع لكل ما
يقال له ويتعلم ، ولكنه عندما يبلغ مرحلة الجامعة ، ويبدأ
باختيار مراحل التخصص ، أي مرحلة اليسانس ومرحلة
الدكتوراه ، عند ذلك يكون في مرحلة تكوين وجهة
نظره ، والاجتهاد في فنه .

فمرحلة ختم الآديان - من حيث النظرة العامة
للشعر ، لا من حيث النظرة الخاصة للفرد - هي مرحلة
تكوين وجهة النظر .

وفي هذه المرحلة يكون للشعر شأن في المسائل الدينية

والاجتهاد . هل كان هناك مجتهدون في الأدوار السابقة ؟
كلا ، فكل ما يوجد في القرآن من تعابير عن الفقه والتفقه
لم يكن له وجود في السابق بأي شكل من الأشكال .

إن ما يقوم به المجتهد اليوم بقوة العلم والاستدلال
والاجتهاد ، كان من عمل الأنبياء في السابق ولكن لا بقوة
الاجتهاد ، بل بقوة الوحي والنبوة .

في الحقيقة ، لم تكن في تلك الأديان أرضية
للاجتهاد ، لأن الدين هو الذي عليه أن يهيء أرضية
الاجتهاد ، أي إن الدين يجب أن يبين الأصول والضوابط
الكلية . لكي يتمكن عدد من المتخصصين من الاستناد
الى تلك الأصول والضوابط الكلية ، ويعملون أفكارهم
فيها لاكتشاف المسائل الجزئية .

ولما كانت الأديان السابقة بمثابة دروس أولية ، لم تكن
تستطيع تبيان الأصول والكليات وشرحها لأن البشر لم يكن
قد تهيأ بعد لتقبلها .

ثمة مقولة ترى إن هناك أنبياء مرسلين وغير مرسلين .
الأنبياء المرسلون أولوا الشرائع والقوانين ، مثل ابراهيم
وموسى ، وعيسى ، والأنبياء غير المرسلين هم التابعون
الذين كانوا يبلغون شرائع اصحاب الشرائع ، إذ انهم لم
يكونوا أنفسهم من أصحاب الشرائع .

إن ما يقوم به المجتهدون اليوم هو ما كان يقوم به الأنبياء غير المرسلين . طبيعي ان عمل المتجهد لا ينحصر بهذا فحسب ، فهو بالاضافة إلى كونه متجهداً ، فإنه حاكم شرعي ، وقائد للأمة ، وأمر بالمعروف ونهيه عن المنكر بين الناس ، والمصلح بينهم ، لأنه المسؤول عن اصلاح المفاسد .

وهذا ما كان يضطلع به الأنبياء السابقون ، أما في هذا الدين الخاتم للأديان ، فلن يبعث رسول جديد ليضطلع بهذا الأمر ، وإنما هو قد ألقى على عاتق المجتهدين .

ولهذا قال الرسول الكريم : علماء أمتي كأنياء بني اسرائيل . والمقصود طبعاً أولئك الأنبياء الذين كان عملهم يقتصر على التبليغ والتفهيم والتعليم والترويج لشريعة موسى .

لذلك نحن نقول إن الأدوار السابقة كانت أدوار الوحي ، أي إنه كان على الأنبياء أن يقوموا أيضاً بالتبليغ والترويج ، ولكن في مرحلة الدين الخاتم للأديان ، يقوم العلماء ، وليس الأنبياء ، بالتبليغ والترويج واستنباط الكليات من الجزئيات .

فالعلماء ، إذن ، من هذا المنظور ، وفي هذه الحدود لا

أكثر ، هم خلفاء الأنبياء ، لا كل الأنبياء ، بل خلفاء
الأنبياء المرسلين .

وجوه اعجاز القرآن :

يكمن اعجاز القرآن عموماً في جانبي القرآن اللفظي
والمعنوي ، أي الجانب الجمالي والفني ، والجانب العلمي
والفكري .

وبما ان مقولة الفن والجمال تختلف عن مقولة العلم
والفكر ، فالجمال يرتبط بالفن ، والعلم بالاكتشاف ،
فالعلم هو ما يكشف للانسان حقيقة من الحقائق ، والفن
هو ما يخلق الجميل البديع .

لا شك إن للفن والجمال موضوعاتهما ومقولاتهما ،
وواحدة من تلك الموضوعات هو الكلام . والحقيقة إن
الانسان لا يسحره موضوع من مواضيع الفن بأشد مما
يسحره الكلام الجميل .

لنا أن نقسم الجمال إلى قسمين : الجمال الحسي ،
والجمال الذهني . والأول ينقسم ايضاً إلى سمعي
وبصري .

فجمال الورد والحدائق يدخل ضمن الجمال
البصري ، وجمال الصوت في المغني من الجمال السمعي .

فهل جمال الكلام من هذا النوع الأخير؟ كلا ، إذ أن جمال الكلام ليس من الجمال الحسي ، أصلاً ، بل هو من الجمال الذهني القادم عن طريق الحس .

ما أشد تأثير قصيدة رائعة أو قطعة نثر بديعة ! خذوا مثلاً نثر سعدي وشعره ، وهو يمازج بينهما في كثير من الأحيان ، فتراهما وقد احتضن كل منهما الآخر في تآلف جميل ووصف بديع بحيث أن « كَلستَان » سعدي ما يزال يحتفظ برونقه وبهائه ، على الرغم من مضي سبعة قرون على موت مؤلفه .

فكيف حصل هذا ؟ إنه الجمال ، جمال الفصاحة والبلاغة .

هنالك شاعر آخر اسمه (القآني) من معاصري سعدي نفسه ، ومن شيراز نفسها ، أراد أن ينافس سعدي في شعره ، بل كتب ديواناً مثل « كَلستَان » سَعدي ، ولكنه لم يبلغ شأوه .

يقال أنه في إحدى الليالي الشتائية كان نفر من الخلان قد اجتمعوا في دار أحدهم بشيراز متحلقين حول النار يستدفئون وينشدون الشعر ، فقرأ أحدهم قصيدة للشاعر سعدي ، حتى وصل إلى هذا البيت :

«أيتها السماء اغلقي لحظة نافذة الصبح
بوجه الشمس ، فما اطيب الليلة مع قمري»^(١)

وكان « القآني » الشاعر حاضراً ، فانتشى وطرب
وقال : هذا الرجل لم يبق موضعاً لشاعر ! وقذف بديوانه
شعره في النار فاحترق ، وقال : إذا كان هذا هو الشعر ،
فليس لنا نحن أي موضع فيه .

وعليه ، قد يكون بعض الشعر على درجة من العذوبة
والجمال بحيث إن شاعراً مثل « القآني » وهو نفسه من
أساتذة الكلام ، يقع تحت تأثير شعر يحمله على الاعتراف
بعلو منزلة ذلك الشعر ، ويتدني منزلة شعره هو . هذا هو
تأثير الكلام .

ما الذي أبقى على شعر حافظ ، وشعر مولوي ؟ إنه
جمال شعرهما ، إذ أن جمال الكلام ، أو كما يقول العلماء :
الفصاحة ، والبلاغة ، والوضوح ، والايصال ، والابداع ،
والجاذبية ، والسحر أمور لا يمكن إنكارها .

يتفق علماء اللغة ، والمطلعون على لغة القرآن ، وحتى
الأجانب الذين درسوا اللغة العربية على أن القرآن لا مثيل

(١) بَیْنْدِیْكَ نَفْسِ آسْمَانِ دَرِیْجَةُ صُبْحِ

بر آفتاب كه إمشب خوش است یا قمرم

له من حيث الفصاحة والبلاغة والجمال .
فالقرآن يمتاز بصياغة خاصة ، فلا هو بالشعر ، ولا
هو بالنثر ، مع إن كل العرب إما أن يكون شعراً أو نثراً .
وكون القرآن ليس شعراً ، واضح لأنه يخلو من الوزن
والقافية والمعروفين في الشعر القديم .

وبالإضافة الى خلو القرآن من الوزن والقافية ، فانه
خلو أيضاً من أحد أركان الشعر الأخرى ، وهو الخيال ،
إذ انه يشرح الأمور بغير أن يستعمل تعابير خيالية .
ونقصد بالخيال تلك التشبيهات المبالغ فيها التي ترد في
الشعر كثيراً ، حتى قيل : أحسن الشعر أكذبه ، فكلمها
ازداد فيه الكذب ازداد جمالاً ، كما يقول الشاعر فردوسي :

« من حوافر الخيل في ذلك الوادي الفسيح
غدت الأرض ستة والسماء ثمانية »

كل من يسمع هذا يقول : أحسن وأجاد . ولكن ما
أكذبه ! أبالإمكان قول كذبة أكبر ؟ أيمن بمجرد أن
يركض عدد من الخيل في مكان ضيق ، ويعلو الغبار ،
تزداد طبقات السماء السبع فتصبح ثمانية ، أو تقل طبقات
الأرض السبع الى ست ؟ .

إنها لكذبة كبيرة ، ولكن الشعر لذلك جميل .
وثمة شاعر آخر يقول :

« يا رب ، ما عين الحب هذه التي أنا
 منها شربت قطرة ماء فبكيت بحرّاً^(١)
 وقام طوفان نوح حياً من دمع عيني
 مع أني في حزني عليك بكيت على حذر^(٢) »
 عذب وجميل هذا ، ولكنه عذب بهذا الكذب .
 وطبيعي ، إن هذا ليس كذباً منهياً عنه شرعاً ، ولكنه فن
 ولون من ألوان الوشي في الكلام . ولكن القرآن لم يقرب
 هذا اللون من القول .

ثم إن هذا الضرب من المحسنات الكلامية يلائم
 أنواعاً خاصة من المواضيع : في الحب ، في الحماسة ، في
 المدح ، في الهجاء ، أما في المواضيع المعنوية فليس بإمكان
 أي شاعر أن يظهر فنه ، وإذا حاول بعض منهم ذلك ،
 فسوف يضطر إلى الباس المعنى لبوس المادة فيجسمه ،
 ويتحدث عنه .

فمثلاً ، إذا أرادوا الكلام على المعرفة ، جسموها في

(١) يا رب چه چشمه ایست محبت که من از آن
 یک قطره آب خودم و دریا کریستم
 (٢) طوفان نوح زنده شد از آب چشم من
 با آنکه در غمت بمدارا کریستم

زي « الخمر » أو إذا أرادوا القول في الله سبحانه ، عبروا عنه بخصلة الشعر ، أو في الغناء في الله والتقرب اليه ، يقولون :

الخرقة رهينة في مكان ، والدفتر في مكان آخر ، وأمثالها .

ولكن القرآن يتناول المعنويات بكل يسر وسهولة كالماء الرائق ، ويشرحها .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ - الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ - مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ - إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . . . ﴾ .

لا ريب ان كل مسلم يكرر هذه الآيات عشر مرات ، في الأقل ، يوماً وطول حياته ، ولكنه لن يضجر منها ولا يملها لما فيها من العذوبة والرفقة .

فالقرآن ، إذن ليس شعراً ، لأنه يخلو من الوزن والقافية ، بل بينت فيها الأمور بصراحة ، وبغير توسل بالخيال .

ولا هونث ، لأن النثر لا يمكن تلحينه ، وما أعجب
الخان القرآن !

أفهل رأيتم كتاباً ، دينياً أو غير ديني ، يقرؤه الناس
بالخان مختلفة ؟ .

إن الكتاب الوحيد الذي يمكن أن نقرأه باللحن هو القرآن ، وهذا ما يعتبر الآن فرعاً من فروع العلم . فالآيات المختلفة تصلح لألحان مختلفة ، أي ان هناك الحاناً مختلفة لمعاني تناسبها . فاذا كان الآية للتخويف مثلاً ، اتخذ لها لحن يرفع القلب . وإذا كانت الآية تشويقاً وترغيباً ، وضع لها لحن يمنح الهدوء والاطمئنان .

إذهبوا إلى دنيا المسيحية بعظمتها ، واتساعها ، وإلى اليهود الذين يحتلون فلسطين ، فهي وان كانت رقعة صغيرة ، إلا ان اليهود متسلطون على معظم إذاعات العالم ووكالات أنبائه ، هل تسمعون الإنجيل والتوراة يرتلان ترتيلاً من وراء المذيع ؟ لئن قرأوهما باللحن لكانا مدعاة للسخرية ، ولا يطيقهما أحد . أو يمكن قراءة نثر سعدي باللحن ؟ .

هذا من مميزات القرآن ، لم تسبق لغيره باللغة العربية ولا من بعده .

من الأمور اللافتة للنظر هو ان جميع الذين حفظوا القرآن ، وعشقوه ، وهم أنفسهم كانوا من فصحاء زمانهم ، لم يستطيعوا تقليده حتى بسطرين اثنين . لقد تقبلت الدنيا علياً (عليه السلام) فصيحاً بليغاً . وهذا ما تطرقت اليه في كتابي (جولة في نهج البلاغة) وقلت : كيف إن خمسين وثلاثمائة ألفاً من السنين تمضي

على علي (عليه السلام) وخطبه - مع إن أكبر الأدباء
والفصحاء والخطباء كانوا في عصره وجاءوا بعده وذهبوا -
وهي ما تزال باقية على عظمتها وروعها .

إن الآية الأولى التي نزلت من القرآن ﴿ إقرأ باسم
ربك الذي خلق ﴾ سمعها علي (عليه السلام) وهو في
العاشرة أو الحادية عشر من عمره ، قبل ان ترسم في
ذهنه أية أفكار أخرى ، فكان استعداده للتلقي موفوراً ،
وظل يستأنس بالقرآن طيلة حياته . لو كان أحد قادراً على
الكلام مثل القرآن لكان علي بن أبي طالب (عليه السلام)
أجدر الناس بذلك ، ولكننا مع ذلك ، عندما نضع نهج
البلاغة إلى جانب القرآن نجدهما مختلفين .

إني ما زلت أتذكر أواخر أيام دراستي يوم كنت قد
تعرفت على القرآن وعلى نهج البلاغة . ففي لحظة خاطفة
تكشف لي الاختلاف الشاسع بينهما .

كنت قد قرأت نهج البلاغة . كانت إحدى الخطب
تضم الكثير من التشبيه والاستعارة ، وهي من أبلغ خطب
البشر وأفصحها . وهي خطبة كلها وعظ وتذكير بالموت
وباليوم الآخر . انها خطبة مثيرة حقاً ، يقول :

« دَارُ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ لَا تَدُومُ
أَحْوَالُهَا ، وَلَا يَسْلَمُ نَزَالُهَا ، أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَتَارَاتُ

متصرفه ، العيشُ فيها مدمومٌ ، والأمان منها معدومٌ ، إنما أهلها فيها أغراضٌ مستهدفةٌ ترميهمُ بسهامِها . . . »^(١) .
وفي آية واحدة من القرآن نقرأ :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾^(٢) .

على الرغم من ان كلام علي (عليه السلام) يبلغ القمة من البلاغة ، ولكنك إذ ترى هذه الآية وسط كلامه ، تحس وكأن ماءً قد أريق على ما حولها من كلام ، فتبدو هي كالنجمة في ظلام الليل .

إن الأسلوب مختلف أصلاً ، وإن ما يحس به الانسان يستعصي على البيان ، فالآية تجسم يوم القيامة الى حد الجلاء الكامل ، وكيف إن ان العبد يعود الى سيده الحق ، من بين هذه الكثرة الكاثرة من الاسباد الباطلين .

كان عصر القرآن عصر الفصاحة والبلاغة ، أي إن كل فنون الناس كانت منحصرة في الفصاحة والبلاغة . وقصة سوق عكاظ معروفة ، حيث كانت العرب تقصدها

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٢٧ .

(٢) سورة يونس - آية : ٣٠ .

في الأشهر الحرم ، يعرضون فنونهم من شعر وغيره . كان الشعراء يقدمون من مختلف القبائل ، ينشدون خير ما عندهم من شعر ، وما كان ينتخب كأحسن العشر كان يعلق على ظهر الكعبة فالمعلقات السبع المشهورة كانت تعتبر من أروع الشعر عند العرب ، وظلت طويلاً معلقة ، لأن احداً لم يأت بخير منها . ثم عندما نزل القرآن ، جاءوا هم بأنفسهم ورفعوها عن جدار الكعبة .

كان ليبيد بن زياد من مشاهير شعراء العرب ، ولكنه كف عن نظم الشعر بالمرّة بعد أن نزل القرآن وأسلم ، وعكف على قراءة القرآن .

قيل له لم لم تنظم الشعر بعد اسلامك ؟ .

فقال : لا أستطيع قول الشعر . إذا كان هذا هو القول ، فان كل ما قلناه كان كلاماً فارغاً . إن لذتي بقراءة القرآن لا تفوقها لذة .

في هذه الآية التي نحن بصدددها ، يدعو القرآن الناس الى أن يأتوا بسورة مثل سوره ، وفي آية أخرى يقول ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ ويشمل الآية الواحدة أيضاً . أي إنه يقول : إن كنتم قادرين فهاتوا بآية واحدة من مثله .

ولكن على الرغم من أعداء القرآن الكثر ، سواء

الذين كانوا في عصره ، أم الذين جاءوا بعده ، فان احداً منهم لم يستطع قبول هذا التحدي . بل حتى الذين جاءوا في أيامنا هذه ونسجوا اقوالاً يعارضون بها القرآن ، فانهم عندما عرضوها على القرآن استبان خطل ما يدعون .

إذن فاحدى وجوه اعجاز القرآن هو وجهه الفني ، وهو ما يصطلح عليه بالفصاحة والبلاغة . إلا إن هذا التعبير يقصر عن ايصال الحقيقة ، لأن الفصاحة تعني الوضوح ، والبلاغة تعني الأبلغ ، إلا أنها لا تفني بايصال المقصود ، فيجب ان تضاف اليهما الجاذبية التي تحكي سحر القرآن ، لأن القرآن كان ينفذ الى القلوب على نحو خاص عجيب ، بحيث كان تأثيره سريع الظهور ، فيجذبهم نحو الايمان .

لقد كان الكفار ينعتون النبي بالساحر ، وهذا بحد ذاته اعتراف ضمني بعجزهم عن الاتيان بآية مثل آيات القرآن ، وهو دليل على سحره . فقد كانوا يرون شخصاً لا يحمل أية عقيدة ، ما ان يستمع الى القرآن مرة أو مرتين ، حتى يقع صريع حبه والايمان به . ولهذا كانوا يقولون انه السحر .

عندما كانت الأعراب تدخل مكة من البادية ، كانت تطوف بالكعبة حسب عاداتها ، فكان المشركون يوصونهم

أن يضعوا قطناً في آذانهم ، لكيلا يسحرهم الرجل الذي يخرج السحر في كلامه ، وكانوا يهيشون لهم القطن ، لكي يصموا آذانهم عن سماع القرآن .

واتفق أن جاء أحد زعماء المدينة يزور مكة ، فعرض له أحد المكيين يحذره من سحر محمد . يقول هذا الرجل : لقد حشوت أذني بالقطن حتى لم أكن لأسمع الطبول لو ضربت بقربي . ثم دخلت المسجد الحرام وأخذت أطوف . فرأيت رجلاً يتعبد ، لفتت ملامحه نظري ، ولاحظت شفتيه تتحركان ، ولكني لم أكن أسمع ما يقول .

وفجأة رحت أتساءل : ما هذا الذي قاله الرجل عن السحر ؟ ولماذا أصدقهم ؟ خير لي أن أنتزع القطن لأسمع ما يقول هذا المتعبد ، فاذا كان معقولاً في كلامه قبلته ، وإلا رفضته . فأخرجت القطن من اذني ، ودنوت منه ورحت أصغي لما يقول . كان يقرأ آيات من القرآن بصوت خفيض ، وكنت أصغي وأحس قلبي يلين حتى عشقت الرجل .

ويدخل الرجل الاسلام ويصبح واحداً من كبار المؤمنين في الاسلام . ويهوى الأمور لهجرة الرسول الى المدينة . بل إن بذر بذرة الاسلام في المدينة وهجرة

الرسول اليها يبدآن من هذه الجلسة^(١) .

هذا التأثير هو السحر ، أو هو فن القرآن الجميل .
يتضح من تاريخ الأدب انه كلما تقادم الزمن ازداد نفوذ القرآن المعنوي في الأدب الاسلامي . أقصد ان الأدب العربي في صدر الاسلام ، أي في القرنين الأول والثاني ، كان موجوداً ، ولكن لم يكن للقرآن فيه ذلك النفوذ المطلوب ، ولكننا نجد هذا التاريخ يقع تحت سلطة القرآن بمضي الزمن .

من ذلك مثلاً تأثير القرآن في الشعر الفارسي الاسلامي . فالشاعر « رودكي » كان من شعراء القرن الثالث . وقد نظم كل شعره باللغة الفارسية . أي إننا لا نلاحظ تأثير شعره بالقرآن كثيراً . ولكننا اذ نتقدم شيئاً فشيئاً إلى عصر فردوسي وبعده نلاحظ تأثيره القرآن بصورة أوضح .

وفي القرن السادس والسابع ، أي في عصر مولوي .

(١) هذه قصة أسعد بن زرارة وذكوان الخزرجي اللذين كانا قد قدما المدينة مبعوثين عن قبيلتهما ليعقدا حلفاً لمحاربة الأوس ، ولكنهما رجعا بقلبين مليئين بالايمان بالله واعداء العدة لهجرة الرسول .

نجد ان هذا لا حديث له إلا القرآن ، وكل ما يقوله
تفسير للقرآن ، ولكن من منظور صوفي .

لقد كان ينتظر ان يكون هذا معكوساً ، أي إن تأثير
أي أثر ادبي في عصره يجب ان يكون أكبر من تأثيره في
آداب القرون التالية .

كان هذا بحثاً قصيراً في فصاحة القرآن وبلاغته ، أما
القسم الثاني من اعجاز القرآن فيتعلق بجانبه المعنوي ، أي
بمحتواه .

إذا نظرنا الى المباحث الإلهية في القرآن ، وإلى ما يقوله
القرآن بشأن يوم القيامة والأنبياء السابقين ، وإلى رأي
القرآن في فلسفة التاريخ وفلسفة الأخلاق ، لتجلت لنا
عظمته .

تلك هي قضايا من صلب رسالة القرآن ، لأن القرآن
ليس كتاباً طبياً ، ولا هو كتاب هندسة للبناء والطرق ،
إنما هو كتاب رسالته أن يهدي الناس .

إن للقرآن وجوهاً أخرى من الأعجاز ، مثل الأخبار
بالغيب ، أو التنبؤ بالمستقبل ، وانسجامه وعدم وجود أي
اختلاف فيه . وكل واحدة من هذه جديرة بالأسهاب

والتفصيل ، ولعل العمر يمهّلنا لكي نبحث فيها في
جلسات تاليات^(١) .

(١) أرى أن هذا لم يتحقق ، مع الأسف الشديد ، فقد تصاعدت
الثورة الإسلامية في إيران ، وأمضى الشهيد كل وقته في اسناد
الثورة وإدامتها ، حتى بلغ أخيراً مراده بالشهادة في سبيل الله ،
ونعم المراد .

الفهرس

٧	كلمة المترجم
٩	كلمة الناشر
١٣	الجزء الأول
١٧	معرفة القرآن
١٩	انواع معرفة القرآن
٢٠	الأول : المعرفة السندية أو الانتسابية
٢٥	الثاني : المعرفة التحليلية
٢٧	الثالث : معرفة الأصل
٣٠	إصالات القرآن الثلاث
٣١	شروط معرفة القرآن
٣٨	ما معنى معرفة القرآن
	الفصل الأول :
٤٩	معرفة القرآن تحليلياً
٥١	كيف يعرف القرآن نفسه
٥٣	معرفة القرآن
٦٢	من يخاطبهم القرآن

الفصل الثاني :

- العقل في نظر القرآن : ٦٩
دلائل كون العقل حجة ٧٠
١ - الدعوة الى التعقل ٧٠
٢ - الاستفادة من العلة والمعلول ٧٣
٣ - فلسفة الأحكام ٧٥
٤ - مكافحة شحطات العقل ٧٦
منشأ الخطأ في نظر القرآن ٧٩

الفصل الثالث :

- القلب في نظر القرآن ٨٧
تفريق القلب ٨٨
مميزات القلب ٩٠
الجزء الثاني ٩٩
سورة الفاتحة ١٠١
ابتداء الأعمال بسم الله ١٠٤
ترجمة كلمة « الله » ١١٠
الرحمن الرحيم ١١١
الفرق بين الرحمن الرحيم ١١٢
الحمد لله ١١٤
الحمد يكون لله ١١٨
رب العالمين ١٢١
الرحمن الرحيم ١٢٥

١٢٨	 مالك يوم الدين
١٣١	 إياك نعبد وإياك نستعين
١٣٢	 التوحيد النظري والتوحيد العملي
١٣٧	 مالك يوم الدين
١٣٨	 أصل كلمة عبادة
١٤٠	 أنواع الشرك والتوحيد
١٤٥	 حصر العبادات
١٤٦	 ضمير الجمع
١٤٧	 إياك نستعين
١٥١	 إهدنا الصراط المستقيم
١٥٧	 صراط الذين أنعمت عليهم
١٦١	 سورة البقرة
١٦١	 وجه تسمية السورة
١٦٢	 الحروف المقطعة
١٦٨	 ذلك الكتاب لا ريب فيه
١٧١	 هدى للمتقين
١٧١	 انه هدى
١٧٣	 الذين يؤمنون بالغيب
١٧٥	 ويطيعون الصلاة
١٧٦	 ما معنى إقامة الصلاة
١٧٧	 ومما رزقناهم ينفقون

- هل يختص الإنفاق بالمال ؟ ١٧٧
- فلسفة الانفاق ١٧٨
- والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ... ١٨١
- وبالآخرة هم يوقنون ١٨٢
- أولئك على هدى من ربهم ١٨٥
- وأولئك هم المفلحون ١٨٥
- إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم
لم تنذرهم لا يؤمنون ١٨٥
- الكفر ١٨٥
- الإنذار ١٨٦
- الكفر المقدس ١٩٠
- ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة ١٩١
- ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر
وما هم بمؤمنين ١٩٣
- ما النفاق ١٩٤
- يخادعون الله والذين آمنوا ١٩٨
- وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ١٩٨
- في قلوبهم مرض فزادهم الله ٢٠٠
- ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ٢٠٢
- ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ٢٠٣
- الجهل البسيط ٢٠٣

٢٠٤	 الجهل المركب
٢٠٦	 ويمدهم في طغيانهم يعمهون
٢٢٦	 نظرية القرآن
٢٢٨	 الأضالة للحق
٢٣٨	 مثلهم كمثل الذي
٢٤٠	 صم بكم عمي
٢٤٠	 فهم لا يرجعون
٢٤١	 أو كصيب من السماء
٢٤٢	 يجعلون أصابعهم
٢٤٢	 يكاد البرق
٢٤٢	 كلما أضاءت
٢٤٢	 وإذا اظلم
٢٤٢	 ولو يشاء الله
٢٤٥	 مخاطبوا القرآن
٢٥٠	 رسالة التوحيد
٢٥٢	 الشرك والتوحيد
٢٥٣	 لعلكم تتقون
٢٥٦	 وإن كنتم في ريب
٢٥٧	 إنكار معجزة القرآن إنكار للقرآن نفسه
٢٥٨	 لغة القرآن
٢٦٠	 ١ - ما معجزة ؟

٢٦٥	٢ - هل المعجزة ممكنة ؟
٢٧١	٣ - هل تقع المعجزة ؟
٢٧٣	٤ - كيف تثبت المعجزة صدق صاحبها ؟
٢٧٣	الدليل الوضعي
٢٧٤	الدليل الطبيعي
٢٧٥	الدليل العقلي
٢٧٩	٥ - رسول الإسلام والمعجزة
٢٩٥	٦ - إعجاز القرآن
٣٠٠	وجوه إعجاز القرآن
٣١٥	الفهرست